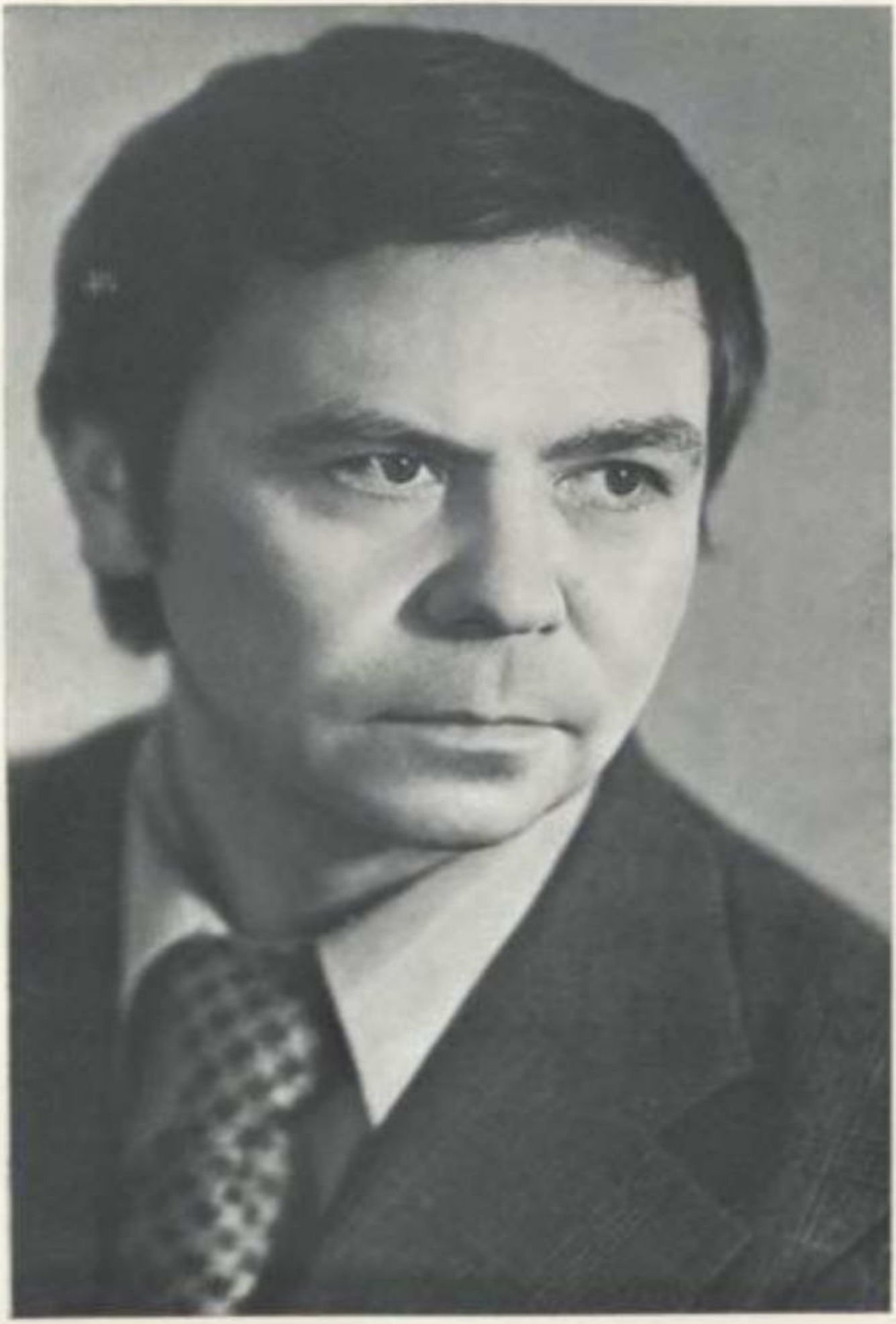

فالنتين راسبوتين

الهارب

ترجمة خيري الضامن

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الإسكندرية

موسكو
دار التقدم

Валентин Распутин

[illegible]

На арабском языке

© Издательство «Современник», 1979 г.

(ج) المقدمة لدار التقدم ، ١٩٨٢

(ج) الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٨٢

طبع في الاتحاد السوفييتي

Р [illegible] 011(01)—82 114—82

070201000

في ادب فالنتين راسبوتين

فالنتين راسبوتين من ابرز الكتاب السوفييت في السبعينات . ولد عام ١٩٣٧ في قرية سيبيرية صغيرة على نهر انغارا الشهير الذي ينبع من بحيرة بايكال الاكثر شهرة . كرس الكاتب تاجه كله للناس البسطاء في اقليمه المحبب ، وبالدرجة الاولى للفلاحين الذين يرتبطون بكل الوشائج بطبيعته البكر . وعلى كل حال فان مؤلفات الكاتب حتى الآن (ولد باشر بالنشر قبل اكثر من عشرين عاما) مكرسة كليا لحياة الريف السيبيري . الا ان تاج فالنتين راسبوتين انتشر حاليا في كل مكان من بلاد السوفييت . فقد حظيت قصصه باقبال الملايين من القراء واهتم بها مخرجو اشهر المسارح ومؤلفو السيناريو . وترجمت مؤلفاته الى العديد من اللغات الاجنبية .

ومنذ سنوات يبدي النقاد السوفييت اهتماما كبيرا بتركيز الكاتب على المادة الفلكلورية في سيبيريا ، وبالاهمية العامة للقضايا النابعة من تلك المادة ، وهي الاهمية التي تتجاوز كثيرا اطار ذلك الموضوع .

وبالمناسبة فان هذه الخاصية لا ينفرد بها راسبوتين وحده . فهي تلازم نتاج كوكبة من الكتاب السوفييت في الستينات والسبعينات ، اولئك الذين يجمعهم مصطلح غير دقيق ولكنه راسخ في الدراسات النقدية : «النثر الريفي» . هذا المصطلح بعد ذاته لا يرضي الكثيرين . ورغم احتجاج الكتاب والنقاد على محدوديته وعدم دقته فقد ثبت اقدامه عميقا في ممارسات الحياة الادبية في الستينات والسبعينات ، حيث شغلت القضايا الخاصة بمصير الفلاح والتناسب بين حياة المدينة والقرية من جديد ، كما حقق مرارا في تاريخ الادب الروسي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، مكانة بارزة جدا . وبهذا اهتمام الكتاب السوفييت بالريف في

الستينات والسبعينات لعبر منولغ للرحلة الاولى . ففى بلد صناعى هائل . فى عصر الاشتراكية المتطورة والثورة العلمية التكنيكية . فى الوقت الذى تحول فيه القسم الاكبر من سكان البلد الزراعى سابقا الى سكان مدن . افرد كتاب كثيرون فجاة مكان البطولة الرئيسية تقريبا لعجوز قروية بسيطة . للمراة الروسية ذات المصير العسير والفؤاد النقى المكشوف على العالم كله . لخازنة التقاليد الشعبية الازلية . ويرى النقاد ان الاسباب العميقة لهذا الانعطاف تكمن فى سرعة التحولات الاجتماعية الجارية فى الاتحاد السوفييتى . وعندما يضطر كثير من الناس . فى غضون الزمن المخصص لحياة جيل واحد . الى التكيف لظروف حياة جديدة تماما ويفقدون الوشائج التى تربطهم بالعالم الذى ولدوا فيه . بالعالم القريب من الطبيعة البكر . لا بد وان ينشا فى مثل هذه المراحل التاريخية العديد من الصدامات الدرامية . بل وحتى الفاجعة . وليس فى ذلك ما يثير الاستغراب . ان طريق التقدم معقد ومحفوف بالتناقضات احيانا . والقارىء يشعر بالامتنان للاديب الذى يوضح ويجسد بالكلمة الشعرية ما يهتم به هو . المهندس والعالم والعامل المعاصر . خلف اولئك الآباء والاجداد الذين قضوا حياتهم بعيدا عن المدن الكبيرة . وربوه صغيرا فى جو مفعم برياح حقول القمح وانفاس الانهار البكر وعطور الغابات الناعسة . لقد جسد «النثر الريفى» تلك التغيرات التاريخية التى شهدتها القرية السوفييتية بنتيجة التحولات العلمية والتقنية والاجتماعية التى شملتها . وادى هذا الادب بكل حرص واهتمام واجب الابن فى صيانة وتوديع ذكرى عالم القرية الروسية القديمة التى تعرضت لتغيرات هائلة فى غضون بضعة عقود . ويتصدر كوكبة «ادباء الريف» كتاب موهوبون من امثال فكتور استافييف وفاسيلى بيلوف وفاسيل شوكشين وفيودور ابراموف وسرغى زاليغين وبقدينى نوسوف . . . ولكل من هؤلاء الكتاب موهبته الاصيل من العطايا العامة . ولكنهم جميعا تمكنوا فى الوقت اللازم من الالتفات مرة اخرى الى الريف الروسى والقاء نظرة حل همومه ومشاغله من ذروة تاريخية جديدة فى الادب السوفييتى . ويعزى نجاح «النثر الريفى» الى التوفيق بين المتابعة اليومية الملموسة لحياة القبيلة البسطاء فى القرى والمدن وبين العطايا

الازلية الجنرية لرسالة الانسان واعتماده على الطبيعة وعلى سبل التقدم الاجتماعي وتناقضاته .

تعرد لفالنتين راسبوتين مكانة خاصة وبارزة جدا بين ممثل «النثر الريفي» السوفييتي المشهورين والمعترف بهم عن جدارة واستحقاق في الستينات والسبعينات . ويخيل البنا انه ما من ناقد سوفييتي معاصر مهتم بالنثر السوفييتي الحديث الا وكتب في السنوات العشر الاخيرة عن فالنتين راسبوتين وحاول ان يبدي رايه في ادبه . ويتصور كل من هؤلاء النقاد بانه هو نفسه الذي يتمكن من فك لغز الشهرة الغريبة التي يتمتع بها فالنتين راسبوتين . فما هو ذلك اللغز يا ترى ؟

الجواب على هذا السؤال . بصيغة عامة . في منتهى البساطة . انه يكمن في الشاعرية المحضة والاكتمال الفني لمؤلفات الكاتب . فعندما تقرأ قصصه تظن وتعتقد بانك عرفت عن ابطالها كل شيء بالتمام والكمال . وتخرج من تلك القراءة باعتقاد راسخ بانك عرفت كل ما ينبغي ان تعرفه عنهم . ولا يخامرك ادنى شك بان الكاتب لم يهمل شيئا او لم يذكره بالشكل المطلوب . فهو يتحدث عن اشياء واحداث في الوجود البشري – كالحياة والموت والمصير الانساني والخيانة القاتلة ومسؤولية الانسان الكبيرة حيال الاحياء – لا يجوز التقصير في الكلام عنها كما لا يمكن عرض صيغ متعددة فلسفية لها . اذ ان هذا وذاك ليسا من طبيعة تلك الاشياء وتلك الاحداث .

تثير مؤلفات فالنتين راسبوتين الانتباه بتوقيعها غير المعتاد بين بساطة الحبكة والموضوع والشخوص العاديين حسب الظاهر وبين عمق المغزى الفلسفي للقصص الكاتب وقاصيصه . وقبل ان نتحدث عن اصالة موهبة راسبوتين يجدر بنا ان نقدم للقارىء فكرة . ولو باعرض الخطوط . عن حبكة اكثر مؤلفاته انتشارا .

تتحدث قصة «نقود لماريا» (١٩٦٧) . وهي اول عمل كبير لفت انظار جمهور واسع من القراء وعاد بالشهرة على الكاتب . عن مصيبة المت ببانعة حانوت ريفي . فهذه المراة الساذجة النزيهة اقترفت . بسبب من طيبة قلبها . خطا نجم عنه نقص كبير في حسابات الحانوت . وذلك الخطا يهددها . وهي ام لاربعة اطفال . بالسجن . ويحاول زوج ماريا اقتراض نقود من الجيران والاقارب كي يسد

المبلغ لينقذ زوجته . وعلى خلفية هذا الحادث العادى البسيط ترسم ريتسة الكاتب تشابكا معقدا لمختلف المصائر والعلاقات البشرية وظروف حياة الناس فى القرية والمدينة اللتين يتوجه اليهما انسان يكاد يستولى عليه اليأس وهو ينشد العون . لا يتهم راسبوتين احدا . ولا يوجه الى القارىء بالطبع ارشادات تربوية . بيد ان كل من يقرأ القصة يتصور نفسه طوبا وكأنه يحل محل اولئك الذين اصيبوا بنكبة واولئك الذين تتوفر لديهم الامكانية لمساعدة الانسان فى محنته ، فيجرب ضميره ويمتحنه .

اما قصة «المهلة الاخيرة» (١٩٧٠) فحبكتها ابسط . بلغ نبأ قرب وفاة آنا الطاعنة فى السن الى ابنائها الكهول فتقاطروا من مختلف المدن على القرية لتوديع امهم فى ساعاتها الاخيرة . يصر امام انظار القارىء شريط لمصائر عادية تماما لاناس مختلفين . الشىء الوحيد المشترك بينهم هو انهم انفصلوا من زمان بعيد عن نمط الحياة الريفى القديم ولا يريدون ، بل ولا يستطيعون العودة اليه ، فلا يفهمون العالم الروحى لامهم الفلاحة العجوز ، ذلك العالم الغريب عليهم . بيد ان الكاتب يصور هذا العالم بحب وعشق شاعرى يجعلان القارىء يودع العجوز آنا بحرقة والم مدركا ان حياته تفقد ، مع هذه «العجائز القديمة» ، شاعريتها التى لا يمكن التعويض عنها .

آخر قصة نشرها راسبوتين حتى كتابة هذه السطور (١٩٨١) هى «موعدنا يا ماتيورا» (١٩٧٦) . وكان يريد لها ان تغدو بحثا تسجيليا عن اختفاء قريته وسقوط راسه من على وجه البسيطة تحت ضغط الحضارة التى لا ترحم . فان مياه انغارا العجيب يجب ان تغرق الى الابد قريته بنتيجة انشاء محطة كهرمائية . ان هذه الظاهرة العادية فى العصر الحاضر ، حيث ينتقل الناس من قرية تعودوا عليها الى بلدة عصرية تتوفر فيها اسباب الراحة ، قد اكتسبت لدى راسبوتين طابعا تعميميا لتوديع شاعرى للطبيعة العذراء ولنمط الحياة العريق ولعادات الاجداد وتقاليدهم . وتنتشى واقعية الكاتب فى هذه القصة بسمات جديدة حيث تستوعب عناصر من خيال الفولكلور الشعبى اندمجت هنا بالتحليل النفسانى الرهيف جدا . ومن جديد يفسر القارىء قيم الماضى ويحب الطبيعة دون ان يتلقى اية ارشادات او وصفات تربوية من الكاتب .

حبكات قصص راسبوتين ناجحة بسيطة كما هو واضح . وسيار قيمة الشخصية الانسانية في مؤلفاته ليس هو نجاحها الظاهر ومنجزاتها في الحياة المعيشية ، بل قدرة الانسان على الحفاظ على كرامته في احلك الظروف حتى في مواجهة الموت . وابرز شخوص قصص راسبوتين واكثرها جاذبية الفلاحات البسيطات اللواتي يؤدين ببسالة واجبهن الدنيوي حتى النهاية . ومن هؤلاء آنا العجوز الطاعنة في السن بطلة «المهلة الاخيرة» ، وناستيونا الشابة بطلة قصة «الهاربة» (١٩٧٤) .

تحتل قصة «الهاربة» (الترجمة الدقيقة لعنوانها بالروسية : «تذكر ما دمت حيا» – Live And Remember) مكانة خاصة في نتاج فالنتين راسبوتين . وهي تحظى باكبر اقبال لدى القراء السوفييت . وتقديرا لهذه القصة بالذات منح الكاتب في عام ١٩٧٧ جائزة الدولة للآداب . ان التوتر الدرامي الناجح في حبكة هذه القصة هو الذي ساعد على انتشارها على نطاق واسع . و«الهاربة» هي قصة راسبوتين الوحيدة التي تتحدث عن الماضي . احداثها تعود الى سنوات الحرب الوطنية العظمى عندما خاض الشعب السوفييتي طوال اربعة اعوام (١٩٤١–١٩٤٥) كفاحا باسلا ضد الفاشية الالمانية . ان المآثر البطولية التي اجترحها المواطنون السوفييت والتضحيات التي قدموا عليها ، وسجلها الادب السوفييتي في صور رائعة ، لا تعد ولا تحصى . الا ان راسبوتين اختار لقصته حادثة تشذ عن ذلك السياق : جندي تخور قواه النفسية امام اعباء الحرب الطويلة الامد ومخاطرها فيهرب في طريقه من المستشفى قبيل ان تضع الحرب اوزارها ويتوجه نحو قريته . ويختبئ هذا الجندي السابق الفارّ من القانون في منطقة مهجورة ليس بعيدا عن مسقط راسه . ولا احد يعرف بسره الفظيع سوى زوجته الشابة التي تزوره في مخبأه وتساعده في تذليل آلام الجوع والوحدة وتانيب الضمير . الا ان الزوجة الشابة لم تتحمل ذلك السر المشين للحرب فتنتحر ، وهي حامل ، حيث تغرق في مياه انغارا . لقد حول راسبوتين هذه الحادثة العاسارية جدا الى تصميم فني رفيع يكتشف لكل انسان عن اجرامية الانانية البشرية الفتاكة وعن ماساة الخروج على المجتمع . ان قصة «الهاربة» تجمع بين الدقة والصدق في تصوير نفسية الشخوص

المتميزة واصالة الحياة في الريف السيبيري وبين الكشف عن المغزى الفلسفي العميق للقضايا الانسانية العامة . ولقد وجد القارىء السوفييت في بطلة هذه القصة نموذجا للكمال والنقاوة .

الا ان قصة «الماريه» لا تقتصر على ناستيونا وحدها الساحرة . فهي تتناول الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشية ، وما تعنيه تلك الحرب بالنسبة للمواطنين السوفييت . ولعل من افضل صفحات القصة تلك التي تتحدث عن مآثر اولياء سيبيريا ابناء الحرب وعن النساء اللواتي بقين بدون ازواج والاطفال الذين ظلوا بدون آباء وعن العمل في التعاونية الزراعية وفي الغابات ، وعن انتصارات الوفاة وعن الجنود المنسوبين القليلين الذين ظلوا على قيد الحياة وعادوا من الجبهة وعن النبأ العظيم الذي هز القرية ، نبأ انتهاء الحرب . وعن الاحتفال بعيد النصر .

مزقات فالنتين راسبوتين تجمع جسما عضويا بين الدقة الواقعية والعمق السيكولوجي وبين التشدد الاخلاقي الرفيع . وذلك هو ما يضع راسبوتين في صف الورثة الحقيقيين المخلصين لاعلام الواقعية العظام في الادب الروسي الكلاسيكي وفي مقدمتهم ليف تولستوي وفيودور دوستويفسكي . ان قارىء راسبوتين يحس بامتنان وبدون اي خطأ صلة مزقاته بالتقاليد الادبية الروسية ، مع ان هذه الصلة لا تتسم اطلاقا بطابع التقليد الظاهري او التشابه السطحي او الصدى الغريب السافر . وهي ليست اقتباسا او تأثرا . انها صلة قريبة حميمة نشأت من تفاعل هذا الفنان المعاصر في الينابيع الصافية لحياة الشعب ، تلك الينابيع التي ارتوى منها نتاج اسلافه العظام .

ان راسبوتين الواقعي في تصوير طباع ابطاله وملابسات حياتهم يسعى الى توسيع وإغناء الامكانيات الشاعرية لمنهج الواقعية . وهو يجمع ببراعة في قصته الاخيرة عوداما يا ماتيورا» بين الوصف الدقيق للحياة الحقيقية والاسطورة ، بين الصدق الحياتي والخيال ، ويوشي السرد بالرموز الشاعرية . وتكتسب مزقات الكاتب باطراد مغزى انسانيا عاما واسعا ، وهو امر هام ومفهوم ، على ما نعتقد ، لدى الناس من مختلف القوميات ومن مختلف المستويات الثقافية . فان راسبوتين لا يزال يختار ابطاله من بين الشخصية السوفييت

البسطاء المهنيين بحاجات وجودهم غير البسيط . الا ان الكاتب يكتشف بعمق متزايد عن التفاعل الخلاق بين حياة الانسان المعاصر وعمليات الطبيعة . وتهمية بعضها للبعض الآخر . تلك التهمية التي ندركها الآن . في ثمانينات القرن العشرين . بحدة خاصة . ان قدرة راسبوتين على الكشف عن شاعرية وجمال العالم الارضي بالكلمات تساعد القراء على تعميق احساسهم بانهم جزء لا يتجزأ من هذا العالم وانهم حراسه الواعون المدركون لمسؤوليتهم . ان خاصية نتاج راسبوتين هذه تضفي عليه اهمية ملحة شاملة .

وهناك سبب آخر لجاذبية ادب راسبوتين الصيغة لا بد من الاشارة اليه . ونعني به لغته الفريدة . لغة راسبوتين . والتي هي في الوقت ذاته اللغة الروسية المعروفة بطابعها القومي العميق الجذور . ومما يزيد له ان خاصية قصص وقاصيص راسبوتين هذه ابعد ما تكون عن متناول القارئ الاجنبي . ومن الصعب تجسيد الخصائص الاسلوبية لمؤلفات فالنتين راسبوتين باللغة العربية بكل ما فيها من غنى وكمال وتفرد . فان راسبوتين محلل نافذ البصيرة للعمليات الاجتماعية الراهنة . وقد جعل اللغة الشاعرية لكتبه تتشبع بالتلاوين القديمة الخلابة للهجة الشعبية التي يتكلم بها الجيل الاقدم . والصيغة الزاهية الحية للهجة الريفية المعاصرة . والبلاغة الغنية المدهشة والايقاع الفنان الرخيم .

ان القارئ السوفييتي يعتبر فالنتين راسبوتين اليوم امل الادب الروسي المعاصر ووريثا شرعيا للادب الروسي الكلاسيكي بما يتميز به من وعي بالمسؤولية الوطنية وموهبة نزيهة للتعبير عن الحقيقة التي يحتاجها الجميع .

اجاب فالنتين راسبوتين على سؤال احد الصحفيين عن الغاية النهائية التي يتوخاها الكاتب من ابداعه فقال : «العمل . وان بقدر ضئيل . على تحقيق المهمة السامية للروح البشرية . . . وفي المقام الاول : لتهذيب المشاعر» .

يكاترينا ستاريكوفا

الهـــارب

١

كان شتاء عام ١٩٤٥ ، وهو الاخير من اعوام الحرب ، عجافا على غير عادته في هذه الانحاء . الا ان الصقيع اشتد ، كما ينبغي له ان يشتد اثناء اعياد التعميد ، فتجاوز الاربعين درجة مئوية تحت الصفر . تحجر ثلج الثلج في ايام معدودات وتساقط من على الاشجار التي بدت جامدة عواتا . وواحت الثلوج التي تلفع الارض تتلفت بصرير وصريف تحت الاقدام . وغدا التنفس عسيرا في هواء اضحى المتكسر كالزجاج . ثم حط الصقيع من جديد بطش الشيء ، وخف مرة اخرى فتلاحمت قشرة ثلجية انبسطت على الاماكن المكشوفة .

في تلك الاثناء حدثت سرقة في حمام عائلة غوسكوف القائم في البستان السفلي عند ضفة انغارا قريبا من المياه . فقد اختفت فاس ميخيتش ، وهي فاس قديمة جيدة الصنع . ولذا اضفى الامر اخفاء شيء عن انظار الغرباء كانت هي اول ما يخبئونه تحت خشبة سالبة من خشب الارضية جنب المدفأة الحجرية . ويتذكر العجوز ميخيتش جيدا انه دس الفاس تحت الخشبة بالفعل حالما فرغ من قرم التبغ يوم امس . ولكنه لم يجدها في مكانها بعد يوم واحد من ذلك . فتش عنها في كل مكان فلم يعثر لها على اثر . وعندما قلب كل ارجاء الحمام بحثا عنها اقتنع له ان الفاس ليست الشيء الوحيد الضائع . فالشخص الذي سرقها انتحل اكثر من نصف اوراق التبغ المحلى من الرف ، واخذ عدة الاسكي القديمة من مدخل الحمام . وعند ذلك ادرك العجوز ان اللص قدم من منطقة نائية وانه لن يرى فاسه بعد الآن . فلو كان اللص من ابناء القرية لما سرق خشبتي الاسكي ايضا .

سمعت ناستيونا نبأ السرقة في المساء حالما عادت من العمل . وخلال النهار لم يمر ليخينتس فرار . فاين يجد مثل هذه القاس ورحى الحرب تدور ؟ لن يجد اية قاس بالطبع . ناهيك عن قاسه الخليفة كالمعية والحادة كالسكين . استمعت ناستيونا الى حميها يتشكى ويناوه . فكرت متعبة : لماذا يتولول بسبب حديدة تافهة اذا كانت كل الامور مقلوبة راسا على عقب ؟ وعلى السرير . عندما استقر البدن في هدوء قبيل الكرى . اعتصر هاجس قلب ناستيونا على حين غرة : اى غريب يمكن ان يفكر برفع الخشبة من الارضية ؟ كادت تختنق بهذه الفكرة التي داهمتها عفويا . فطارت جفونها النوم وظلت لامد طويل راقدة في الظلمة بعينين مفتحتين . كانت تخشى التحرك في الفراش كيلا تفضح سر اللغز الفظيع الذي حزرته . فراحت تبعده عنها تارة ، وتقترب من ملامسه الرقيقة المتلظمة تارة اخرى .

في تلك الليلة لم تنم ناستيونا بما فيه الكفاية . وعند الفجر عزمت على الذهاب الى الحمام لتتاكد بنفسها . لم تذهب الى هناك بالدرب المعهد في الثلج امام الحظيرة . بل هبطت الى نهر انغارا من الزقاق الضيق وانعطفت نحو اليمين حيث لاح سقف الحمام من وراء السياج المطل على الضفة العالية . توقفت للحظة في الاسفل . ثم ارتقت الدرجات المتجلدة بحذر وانسلت السياج الى الجانب الثاني كيلا يسمع صرير بوابته ووقفت مترددة قرب الحمام خائفة من دخوله فورا . وبعد ذلك مدت يدها لتفتح بابه الواطئ بهدوء . الا ان الباب كان ملتصقا بفعل الثلج . فاضطرت ناستيونا الى سحبه بكل قواها . كلا . ليس هناك احد . ولا يمكن لاحد ان يكون هناك . فالحمام مظلم . والنافذة الصغيرة المطلة على النهر . في الجهة الغربية . بالكاد ينسرب منها ضوء شاحب مولد . جلست ناستيونا على العتبة قرب النافذة وراحت تتنسم هواء الحمام . كما يفعل الحيوان . بغية العثور على روائح جديدة غير معتادة لمرآها هي من زمان بعيد . ولكنها لم تجد شيئا غير الرائحة المرة الحادة للقطران المتجمدة . ولامت نفسها قائلة : عقيمة . انني افكر في خزعبلات . ونهضت دون ان تعرف على وجه التحديد ما الذي جاء بها الى هنا وما الذي كانت تريد ان تعثر عليه .

كانت ناستيونا في النهار تنقل الثلج من البيدر الى باحة

التماثيل الزراعية . وكلما لهبط من التلة لتطلع الى الحمام كالصورة . فتغضب على نفسها وتزنبها . ولكنها . ولم ذلك . تحدق من جديد في الحمام الذي تحول الى بقعة قاتمة ضالكة . وراحت تنتزع القش من تحت الثلوج بمنزلة حديدية وتكومه على الزحافة . فتعثرت . وهي المرأة الصبور على كل عمل . بارهاق بالغ بعد كل القش للمرة الثالثة . ولعل سهاد البارحة زاد من تعبها . وفي المساء هوت على السرير . كالجثة الهامدة . حالما تناولت طعامها . ولعلها رأت في المنام شيئا ما . او انها ادركته بذهنها الصافي بعد النوم . وعلى اي حال فهي تعرف الآن ماذا ينبغي لها ان تفعل . انتقت اكبر قطعة من الرغيف في الصغير ولفتها بقماش نظيف وحملتها سرا الى الحمام . تركت الرغيف على المصطبة في الركن الامامي . وجلست برهة تتامل وتفكر فيما اذا كانت قد فعلت رشدها ام لا . ثم انصرفت بعد ان اغلقت الباب بتنهدة خفية مستطلة .

في صبيحة اليوم التالي وما بعده تاكدت ناستيونا من ان احدا لم يمس الرغيف . فاستبدلته برغيف آخر طازج . ووضعته هناك في مكان ملحوظ . لم تعد تامل في شيء اطلاقا . ولكن هاجسا غريبا عنيدا استولى على فؤادها وارغمها على البحث عن خاتمة قصة الناس . فليس يوسع شخص غريب ان يحزر بوجود المستودع السري تحت تلك الخشبة بالذات . ها هي الخشبة تستقر في مكانها الى جانب الخشبات الاخرى . ولا تهتز حتى لو رقصت عليها . ثم ان احدا كان يتلصص ؟ الرغيف هو مفتاح اللغز . وعليه ان يكتشف من هوية ذلك الشخص . فمن الصعب على المرء ان يضبط نفسه امام الرغيف في هذه الازمان .

بعد يومين اختفى الرغيف . فرتعبت ناستيونا عندما لم تجده في مكانه . فهاوت على المصطبة خائرة متنهدة وراحت تهز راسها قائلة : كلا . مستحيل . ربما جاءت حماتي او ميخيتش فتناولها الرغيف واخفاه . فليس هناك تفسير آخر . جثت ناستيونا على ركبتيها فرات فتات الخبز على الارضية . كلا . انه شخص آخر . غير حماتها وميخيتش . فقد عثرت ناستيونا على قلب سجارة في رماد المدفأة البارد .

منذ تلك اللحظة انقلب كل شيء في دخيلتها : فما الذي

سيحدث ؟ انها تدير شؤون المنزل وتتردد على العمل في التعاونية وتظهر امام الآخرين وكان شيئا لم يحدث . ولكنها تتلفت طوال الوقت وتنتظر من اي صوت غريب . لم يعد بمقدورها ان تنتظر المجهول . وفي السبت صمت ناستيونا على تسخين الحمام . حاولت سيميونوفنا اقناعها بالعدول عن ذلك ، فالصقيع شديد . الا ان ناستيونا اصرت قائلة بانها ستنقل الماء وتسخن الحمام بنفسها ولا يبقى عليهم الا الاستحمام .

يوسعها ان تسخن الحمام بسرعة ، فالقضية بسيطة . ولكنها لم تستعجل في ذلك عمدا . فقد اعدت الحطب ضعفين ، نصفا من خشب الصنوبر ونصفا من خشب البتولا البطيء الاحتراق ، وسخنت المدفأة في وقت متأخر اكثر من المعتاد . كان الجو باردا . فالصقيع في بداية الاعصار . الا ان السماء صافية ولا رياح هناك . عندما لوثت ناستيونا ضفة انفارا حاملة الماء واحت تتطلع كل مرة دون ارادتها الى الدخان المتصاعد من مدخنة الحمام : فان عموده الاسود بسبب حطب البتولا البطيء الاحتراق يتصاعد مستقيما بدون رياح ويظهر مرئيا من بعيد . سخنت برميلا مليئا اكثر من الحاجة وغسلت الارضية والدكة وضيقت فتحة المدخنة وتوجهت في الشفق لدعوة المجوزين للاستحمام وطلبت منهما ان يحضرا الكيروسين للمصباح .

كانت ، كما في الاحلام ، تتحرك بخفة دون ان تشعر بالتعب والارهاق خلال النهار ، ولكنها فعلت كل شيء بالشكل الذي ارادته . انتظرت حتى استحم المجوزان وعادا ، وجمعت البسطها ، فسألتها سيميونوفنا : مع من ستستحمين ؟ اجابت كالعادة : مع نادكا . اعتادت ناستيونا ان تصطحب احدى الجارات الى الحمام . فالتطلع الى جسدها العاري النحيل يثير الالم والمرارة ، حتى ان عينيها تغرورقان بالدموع . ولكن يتعين عليها اليوم ان تستغني عن صاحبتها . في ظلمة الليل المبكر بلغت ناستيونا الحمام . فعلت النافذة بخرقة من الداخل وخلعت ملابسها كي تستحم على عجل ، لان الساعة التي حزرتها ينبغي ان تحل بعد ذلك في الغالب الظن .

اغتسلت وعادت الى المنزل فصففت شعرها امام المرآة على ضوء المصباح وقالت للمجوزين انها ذاهبة لزيارة نادكا التي ادعت انها استحمت معها . خرجت ناستيونا على نادكا حقا ولكن لامد قصير

وبدون اى قصد ، لمجرد اثبات الوجود . كانت مستعجلة فى العودة الى الحمام . اقتربت من الباب خلسة . كما يفعل اللصوص ، وراحت تنصت عليها لتجد احدا فى الداخل . فهى تخشى من انها تاخرت . ثم دخلت الحمام بحذر . كان لا يزال دافئا . فجلست ناستيونا عـــلى العتبة كى تتخلص من سخونته . واذا كان سيظهر احد فلديها متسع من الوقت للنهوض والانزواء . اما الآن فلم يبق عليها الا الانتظار .

نهادت من القرية آخر الاصوات الخائفة لنباح الكلاب ، ثم خيم السكون . وبين الحين والآخر كان جليد انفارا يتحطم برنين عابر مكتوم ، وكان الحمام يئاوه وهو يبرد رويدا رويدا . جلســـــت ناستيونا فى ظلام دامس فلا تكاد ترى حتى النافذة الصغيـــــرة ، واحـــت ، شاردة البال ، بانها كالوحش الصغير التعيس . فما الذى يفعله الانسان هنا ليلا ؟ حاولت ان تفكر فى شىء او ان تتذكـــر شيئا . ولكنها لم تفلح : فما كان شيئا بسيطا بين الناس لهما امرا مستحيلا هنا .

فيما بعد انتقلت من العتبة الى المصطبة لان الهواء البارد اشتد من جهة الباب .

ويبدو انها غفت قليلا . فلم تسمع الخطوات . انفتح البـــاب فجاة ودخل شىء ما الى الحمام ومر بها ولامسها بخفة وخشـــية . فزعت ناستيونا وصاحت بصوت خنقه الرعب :

— يا الهى ! من هناك ؟

توقفت الكتلة الكبيرة السوداء للحظة عند الباب ثم هرعت الى ناستيونا :

— اسكتى يا ناستيونا ، هذا انا ، اسكتى .

نبحت كلاب القرية ثم سكتت .

٢

انامانولكا واقعة على الضفة اليمنى لنهر انفارا . وليس مـــن اليســـير اعتبارها قرية ، فهى لا تحتوى على اكثر من ثلاثين منزلا . ورغم اسمها الرنان فهى منعزلة اصابها الفقر تدريجيا وعلى نحـــو غير ملحوظ منذ عهد ما قبل الحرب . فهناك خمـــسة منازل — عامـــرة

وليست مهدمة - تلف مهجورة بنوافذها المغلقة والمغلقة . كيدا انفق . بالاخشاب . لا داعي للبحث عن سبب تدهور القرى ابدان الحرب . فالسبب واحد . الا ان الناس بدأوا يهجرون اناماتوفكا قبل ذلك . وخصوصا الشباب الذين لم يتمكنوا من بناء اسرة . كانت تستهويهم مراكز السكن الكبيرة الاكثر صخبا والاوفر وعودا فيما يخص المستقبل . اما اناماتوفكا فلم يكن لها مستقبل . نشأت على الهامش ونسبت الى الغرب قرية في جهتها . وهي قرية كاردا التي يوجد فيها مجلس اداري ريفي . الا ان هذه القرية «القريبة» تبعد عنها باكثر من ٢٠ كيلومترا . صحيح ان قرية ريبنايا الواقعة على الضفة الاخرى من النهر الغرب الى اناماتوفكا . الا ان ريبنايا كانت على الدوام تقيم علاقات اوثق مع جيرانها الاسفل . فهناك مجلس اداري ريفي وحوانيت ومدرسة . وفي ذلك الاتجاه يقع مركز الناحية الذي يراجعونه في كل صغيرة وكبيرة . ولا يتوجه احد بالقوارب الى اناماتوفكا الا في احايين نادرة . كانت الموانئ التي تحمل الانباء تمر بها مر الكرام . وكانت امور واحداث كثيرة تمر بها دون ان تعرج عليها هي البتة الكئيبة القابعة على الضفة . وحتى خبر اندلاع الحرب بلغها متاخرا . في اليوم التالي .

ونقول للحقيقة والواقع ان حصيرها لم يكن مضررا على الدوام كما هو عليه الآن . فقد ورثت اناماتوفكا اسمها عن اسم آخر اكثر رنينا وتخويفا . وهو رازبوينيكوفو . في الازمان الغابرة كان رجالها لا يستنكفون عن ممارسة مهنة عادلة مربحة هي «تفتيش» الباحثين عن الذهب القادمين من مناطق نهر لينا . فموقع القرية من افضل المواقع لهذا الغرض : سلسلة الجبال تقترب هنا من نهر الطارا فلا يمكن تجنب المرور بالقرية . ولا بد لك من الظهور على الطريق شئت ام ابيت . وفي اضيق منطقة قرب الجسور كان ابناء القرية الشجعان يزجرون بابناء لينا المتنقلين بالذهب . وظلت شهرة قطاع الطرق لاصقة بالقرية لعدا طويلا . وانتقل اسم «رازبوينيكوفو» * من الاضابير التذكرية الى الاوراق الرسمية فخيل لاحد الاداريين في الناحية . قبل قيام الحكم السوفييتي . ان هذا

---

* قرية «قطاع الطرق» . المترجم .

الاسم شنيع جدا فاستبدله باسم «اناماتوفكا» * الذي لا يخدش الاسماع ولكنه يحافظ على المعنى نفسه . وبالمناسبة فالسكان المحليون غير موافقين على هذه التسمية لسبب ما . فحتى في ايامنا هذه ، بعد مضي سنين عديدة ، يكرر الشيوخ من كاردا ومن ريبنايا ومن القرى الاخرى قولا واحدا وكانما اتفقوا عليه حرفيا :

ـ كل اهل القرية من قطاع الطرق ، فلماذا يحصرون الجريمة في عصابة ما ؟

حملت الاقدار ناستيونا الى اناماتوفكا من اعالي انغارا . ففي عام ١٩٣٣ ، عام المجاعة ، دفنت الصبية امها في مسقط رأسها باحدى القرى على ضفة من اركوتسك . ولكي تتخلص ناستيونا ، وهي في ربيعها السادس عشر ، من الموت جوعا اخذت اختها الصغرى كاتكا التي كانت في الثامنة من العمر وهبطت معها الى ساحل النهر ، حيث تفيد الاشاعات ان الجوع اقل . ابوها قتل قبل ذلك ، في العام الاول للقلاقل المرتبطة باشاعة التعاونيات الزراعية . ويقال انه قتل بالصدفة ، اذ ان الذي قتله كان يصوب على شخص آخر . ولكنهم لم يعثروا على اثر للقاتل . هكذا تيتمت البنتان . فظلت ناستيونا وكاتكا الصغيرة كلة تتنقلان من قرية الى قرية تكسبان طعام العشاء او تفتاتان على الصدقة التي يتفضل بها البعض عليهما من اجل الصغيرة الجميلة . ولولا كاتكا الصغيرة لهلكت ناستيونا في المغلب الظن . فقد كانت ناستيونا شبحا اكثر مما هي انسان : نحيلة طويلة تتمل يداها ورجلاها ورأسها بشكل اخرق . وقد تجمد الالم على وجهها . لم تكن تتحرك وتعرض خدماتها وتستجدي الا من اجل كاتكا التي لحقت ناستيونا بمثابة الام لها .

قبيل حلول الخريف وصلت الشقيقتان بشق الانفس الى قرية ريبنيا التي تتذكر ناستيونا ان عمتها تعيش فيها . تذمرت العمة بعض الشيء ، ولكنها تقبلت البنتين . وبعد ان اخذت ناستيونا قسطا من الراحة التحقت بالتعاونية الزراعية ، وارسلت كاتكا الى المدرسة . لحقت الامور حتى ذلك الحين لسهل من السابق . فقد انهمرت البساتين وخشع القمح . ليس من الصعب علاج المجاعة اذا

---

* قرية «الصفعات» . المترجم .

توفر ما تحتاج به . فبعد حلول الشتاء بدأت صحة ناستيونا بالتحسن تدريجيا . وفي الموسم التالي كان المحصول وفيرا الى درجة يحلم المرء فيها اذا لم يأكل حتى التخم . وامتحت الفطرون على محيا ناستيونا واكتنز بدنها شيئا فشيئا وتوردت وجناتها واستبسلت نظراتها . وتحولت الفزاعة الى عروس لا اجمل منها . وهناك ، في ريوتينا ، التقاها ، بعد عامين ، اندرى لوسكوف . ذلك الفتى الغريب الذي يتحلى بالكثير من الهمة والبسالة . كان يعمل في نقل الوقود على الاكلاك من صهاريج في مكان قريب من تلك القرية . وسرعان ما انتقلا ، ثم ان ناستيونا قد ملت العيش في خدمة عمتها ، حيث تكد وتكدح من اجل عائلة غريبة عليها . اوصل اندرى براميل الوقود الى محطة البترولات وعاد في الحال على متن الباخرة واصطحب ناستيونا الى قريته اتامانوفكا .

اقنعت ناستيونا على الزواج كما يندفع السباح الى الماء دون تامل او تفكير : فالزواج شيء لا بد منه ، ولا يستغني عنه الا القليلون ، فما الداعي للمماطلة ؟ لم تكن تتصور جيدا ما ينتظرها في العائلة الجديدة والقرية الغريبة . اما الذي حدث فهو انها انتقلت من خدمة الى خدمة مع فارق واحد هو ان الجوش غير الجوش والاستمارة اكبر والعاملة اكثر تشددا . لدى اسرة لوسكوف بقرتان ونعاج وخنازير ودواجن . المنزل كبير يعيشون فيه ثلاثتهم . وجاءت ناستيونا فصارت رابعة . وانهالت على كتفيها كل تلك الاعباء . كانت سيميونوفنا تنتظر منذ زمان كتة تخلف عليها تلك الاعباء ، وعندما تحقق ما انتظرته مرضت فتورمت لعاها وغدا السير عسيرا عليها فصارت تتمايل من جنب لآخر كالوزة . بيد انها ظلت هي ربة البيت . كانت طوال حياتها تدير هذه المجلة ، اما الآن فقد خيل اليها ان اليدين اللتين حلتا محل يديها كولتان تعوزهما المهارة لا لشيء الا لانهما ليستا يديها . وادركت ناستيونا ان طباع حماتها ليست مما ترتاح اليه النفس . فهي تارة تتذمر وتولول فلا تطيق اي اعتراض واي تبرير ، وتارة لتتفجع اوداجها لخطب فلا تنبس ببنت شفة . يتعين على المرء ان يمتلك ، مثل ناستيونا ، صبرا عجيبا كيلا يتشاجر معها . ناستيونا ، عادة ، تلوذ بالصمت . تعلمت ذلك في صيف التشرد عندما جابت

مع كانكا فرى وادى انغارا وكان يوسع اى شخص ان ينهرها دونما صعوبة . ولو كانت هى من السكان المحليين ، من اهل الاماتونكا ، ولو كان لها هنا اقارب يدافعون عنها ويحمونها عند الاقتضاء، لتلقت معاملة اخرى . الا انها فتاة يتيمة منبوذة لا يعلم احد من اين جاءت . ولم تجلب معها من متاع الدنيا الا الفستان الذى ترتديه . ولكى تظهر امام الملأ بمظهر لائق تعين تجهيزها بالثياب فى الحال فكان ذلك امرا عسيرا على سيميونوفنا ، وقد زاد فى الطين بلة فى تلك الازمان العصيبة .

بيد ان سيميونوفنا تعودت على ناستيونا بمر السنين وصارت اقل تذمرا واعترفت بانها رزقت بكنة مطواع جادة فى العمل . ناستيونا تعمل فى التعاونية وتدير لوحدها تقريبا كل شؤون المنزل الكبير . وما على الرجلين الا ان يعدا الحطب ويوفرا العشب الجاف علفا للشتاء . ولو افترضنا ان سقف المنزل هوى لرفعاه ، اما احضار دلو من ماء النهر ، على سبيل المثال ، او تنظيف مربط الماشية فذلك امر يعتبر عيبا للرجل ولغير لائق به . ولم تكن سيميونوفنا بلدميها المريضتين لتستطيع فعل شيء يذكر . ولذا غدت ناستيونا لوليا متحركا لا يمكن الاستغناء عنه . وهذا ما جعل الحياة تتساهل معها رغما عنها . ولكن امرا واحدا ما كانت لتسامح به مع ناستيونا ، وهو عجزها عن انجاب الاطفال . لم تكن سيميونوفنا تلومها ، لانها تعلم ان هذه المسألة بالنسبة لاية امراة اكثر ايلاما من اى شيء آخر . ولكنها اخذت تحيظها ، لاسيما وان اندرى ظل بمثابة الابن البكر لها ولزوجها ميخيتش اذ ان البنتين اللتين ولدتهما قبله لم تبقيا على قيد الحياة .

انعدام الاطفال هو الذى ارغم ناستيونا على تحمل كل شيء . فقد سمعت منذ الطفولة ان المراة العاقر هى نصف امراة . ولكنها لم تكن تتوقع انها تعانى من هذا العيب فاقدمت على الزواج بسهولة عارفة بمصير النساء وفرحة لاكبر تبدل فى حياتها ، مع انها اسفت قليلا فيما بعد ، كما يحدث ذلك عادة ، لان امد الفترة لم يطل بها كثيرا . كان اندرى يحن اليها ولا يلح عليها ، وفى الفترة الاولى لم يفكرا فى انجاب الاطفال . كانا يعيشان معا ويتمتعان بالوصال لا غير . وفيما بعد ظهر بشكل غير ملحوظ قلق لا يعرف

صدره ، ولعل سببه هو الخوف من الاخلال بالنظام الازلي لهموم الحياة العائلية . فالذي كانا يتحاشيانه ويخشيانه بادئ ذي بدء صار الآن موضع ترقب وانتظار وشكوك : هل تحبل ام لا ؟ مرت شهور فلم يتغير شيء . واخذ الترقب يتحول الى جزع ثم الى فزع . وخلال ما لا يزيد عن عام تحول موقف اندري من ناستيونا تحولا تاما . فصار قطا غليظا ينهال عليها بالملامه الشديدة لاتفه الاسباب ، وفيما بعد لجا الى الضرب . وكانت ناستيونا تتحمل . فقد تعودت المراة الروسية الاصيلة ان تبني عشها مرة واحدة وتتحمل كل ما ينجم عنه . زد على ذلك ان ناستيونا تعتبر نفسها مذنبة فيما آلت اليه . ذات مرة فقط عندما قال لها اندري ، وهو يلومها ، شيئا لا يطاق اجابته من شدة الغيظ ان السبب غير معلوم ، فهي لا تدري هل هي السبب ام هو ، فهي لم تجرب رجلا غيره . وعند ذلك ضربها ضربا مبرحا .

صحيح انهما عاشا العام الاخير قبيل الحرب بيسر وكانا بدأ من جديد يتعودان على بعضهما البعض مدركين ماذا ينتظر احدهما من الآخر وملتزمين بالقاعدة القديمة : ما دمنا قد تزوجنا فلا مناص من العيش معا . لم يكن اندري يلاطف ناستيونا الا ما ندر ، ولكنه قلل من التطاول عليها ، فكانت هي مسرورة لذلك . انهما لا يزالان شابين يافعين ، وسوف يكون كل شيء على ما يرام بمرور الزمن . ولعل الامور كانت ستؤدي الى ذلك ، لولا الحرب التي اندلعت وحطمت آمالا اكبر من تلك الآمال .

استدعي اندري الى الجيش منذ الايام الاولى للحرب . فبكت ناستيونا وانتحبت طويلا ثم تحملت بالصبر . فهي ليست وحيدة في المصيبة . والمصيبة اعظم على اللواتي يلدن مع اطفالهن . خيل اليها ان عدم وجود الاطفال قد عذاها وافادها لاول مرة خلال سنوات زواجها . عبثا كانت تحمل غليظا على مصيرها ، فهو مصير حكيم استشف من زمان بعيد تلك الكارثة التي احدقت الآن بالناس ودبر الامور مسبقا على نحو يساعدها في تحمل هذه الكارثة لوحدها . وفيما بعد ستنجب الاطفال عندما يطيب الزمان ، فلا يزال في الوقت متسع . ويا ليت اندري يعود . عاشت على هذا الامل طوال الحرب ،

ماتت عليه في تلك الحقبة المرعبة التي لا يعرف احد فيها ما سيجود به الغد .

عاش النجاح اندري طويلا في القتال . ولكن اخباره ضاعت فجاة في صيف ١٩٤٤ . وبعد شهرين وصلت منه رسالة بعثها من المستشفى في نوفوسيبيرسك وافاد فيها انه اصيب بجرح وانه سيمنح بعد شفائه اجازة لبضعة ايام يقضيها عند الاهل . وكان هذا الوعد هو الذي جعل ناستيونا تمتنع عن السفر لزيارة زوجها في نوفوسيبيرسك بعد ان عزمت عليه في بادئ الامر . فاذا منحوه اجازة من الافضل الالتقاء في المنزل ، وهذا ما عملنا اعلمها عليه . الا ان اندرز كان على خطا . فقد كتب في اواخر الخريف بايجاز وغضب بانه لن يتمكن من المجئ ، الا انه سيرسل الى الجبهة مجددا حال مغادرته المستشفى .

ثم ضاعت اخباره من جديد .

قبيل اعياد الميلاد وصل الى اتامانوفكا كونوفالوف وليس المجلس الاداري في كاردا ومعه بورداك رجل السيليشيا للناحية ذو الوجه المنمش . عندما بلغا نهر انغارا وجها الحصان الذي يجر زحافتهما نحو منزل لموسكوف مباشرة . ولم تكن ناستيونا موجودة آنذاك . فبادر بورداك ميخيتش سائلا بلهجة صارمة كما في التحقيق :

– ما الذي تعرفه عن ابنك ؟

عرضوا على بورداك آخر رسالة وصلت من اندري فقراها وسلمها الى كونوفالوف ليقراها ثم دسها في جيبه .

– الم يخبركم شيئا من نفسه غير ذلك ؟

– كلا – قال ميخيتش مرتبكا وتمالك اعصابه اخيرا فسأل : – ماذا حدث له ؟ اين هو ؟

– هذا ما نريد معرفته . لقد ضاع ابنكم اندري لموسكوف . وحالما تعرفون عنه شيئا خبرونا . مفهوم ؟

– مفهوم .

ثم ياهم ميخيتش شيئا . كما لم يفهم سيميونوفنا وناستيونا شيئا .

وفي صقيع اعياد التصعيد اختفت الناس من الطرقات في اوخية حمام آل لموسكوف .

– اسكتي يا ناستيونا . هذا انا . اسكتي .

احتضنتها يدان قويتان قليلتان من كتفيها وضغطتاها الى الصدر . نفت انة من ناستيونا بسبب الالم والرعب . كان صوته اجش كعنزجة صدئة . ولكنه بقي محافظا على نامة عرفته منها ناستيونا .

– انفري . هذا انت ؟ ! يا الهي ! من اين جئت ؟ !

– من هناك . اسكتي . هل قلت لاحد باني هنا ؟

– ابدا . فانا نفسي ما كنت اعرف .

لم تر وجهه في الظلمة . غير ان شيئا كبيرا اشتمت بدا لعامها ككتلة سوداء عالمة السالم في الضوء الخافت المنبعث من زوايا ستارة النافذة . انفاسه صافية متلاحقة . وصدره يرتفع وينخفض وكانه بعد شوط من ركض سريع . واحست ناستيونا هي الاخرى بضيق الانفاس . فقد انهال عليها هذا اللقاء بصورة مباغتة لم تتوقعها ، وكان واضحا من اللحظات الاولى ومن الكلمات الاولى انه لقاء مسروق فظيع .

امتد يديه اخيرا وتراجع قليلا . وسال بصوت متقطع مرتاب :

– هل بحثوا عني ؟

– جاء رجل البيليشيا مزمرا ومعه كوتوفالوف من كاردا . وتحدثا مع ابيك .

– هل حزر ابي ولمي بشاني ؟

– كلا . ابوك يظن ان شخصا غريبا سرق الماس .

– وانت حزرت . اليس كذلك ؟

لم يمهلها حتى تجيب فسالها من جديد :

– انت احضرت الرغيف ؟

– نعم .

لزم الصمت قليلا ثم قال :

– ها قد التقينا يا ناستيونا . اقول التقينا – كرر بتمهل وكانما ينتظر بفارغ الصبر ما ستقول – لا اصدق باني الف قرب لعرائس العزيزة . ليس من صالحي ان التقي باحد هنا . ولكنني لن اتمكن

من قضاء الشتاء لوحدي . لقد اعريتني بالخبز – مصر كتبها من جديد فاجأت بالالم – هل تفهمين لماذا جئت الى هنا ؟ تفهمين لم لا ؟

– افهم .

– كيف لذلك ؟

– لا ادري – هزت ناستيونا راسها عاجزة . – لا ادري يا اندري . فلا تسالني .

– لا تسالني . . . – تلاحظت انفاسه واضطربت من جديد – لسحى ما اقوله لك يا ناستيونا . يجب ان لا يعرف اي انسان باني هنا . واذا اخبرت احدا فساقتلك . ساقتلك فليس لدي ما افقده . تذكري ذلك . وسوف اعثر عليك اينما تكونين . فليضتي صارت شديدة ولن اخطيء في التصويب .

– يا الهي ! ماذا تقول ؟!

– لا اريد تخويفك . ولكن تذكري ما قلت . ولن اكرر القول . ليس لدي ملجا الآن . وساضطر الى البقاء هنا . حواليك . لقد جئت اليك . اليك وليس الى ابي وامي . ويجب ان لا يعرف احد بوجودي . لا ابي ولا امي . . . لم اكن موجودا ولا اثر لي . ضاعت اخباري . فتلوني على احد الطرق . احرقوني . رموا جثتي . انا الآن بين يديك ومصيري متوقف عليك وحدك . فاذا كنت لا تريدين تلويث يديك بهذه القضية قولي ذلك في الحال .

– لماذا تعذبني ؟ – قالت بانين – فهل انا غريبة عليك ؟ الست زوجتك ؟

كانت ناستيونا في حالة من الارتباك الشديد . فكل ما قالته وراته وسمعته الآن حدث في ذهول عميق مكبوت تتجمد فيه وتتناثر كل المشاعر والاحاسيس ويعيش فيه الانسان حياة غريبة عليه . حياة طارئة فرضت عليه فرضا . وفي مثل هذه الحالات يحل الرعب والالم والدهشة والانتباه والاشراق فيما بعد . وقبل ان يستعيد الانسان رشده ويدرك حول ما حدث يلوم على خدمته وحمايته جهاز متين واع يكاد يخلو من المشاعر . كانت ناستيونا تجيب ولكنها . وهي غائرة اللاوعي ضعيفة الذاكرة في هذه اللحظات . لا تدرك كيف تستطيع الاكتفاء بهذه الكلمات السمجة التي لا تعبر

عن شيء بعد ثلاثة اعوام ونصف من الفراق حيث كان كل يوم يهدد بالموت وبعد هذه المشكلة التي انهالت عليهما الآن فاطمة حبل تلك الطفلة الصغيرة ؟ ولم تكن تفهم لماذا هي جالسة بلا حراك في الوقت الذي يتمين عليها . في الغالب الظن . ان تلوم بشيء ما . كان تعانق لاول مرة زوجها الذي كانت تحلم بلقائه كل ليلة . يتعين عليها ذلك . . . الا انها ظلت جالسة كما في الحلم . حيث يرى المرء نفسه عن كثب ولا يتمكن من السيطرة على تصرفاته ولا يفعل غير ان ينتظر ما سيحدث . ثم ان هذا اللقاء السري اليائس في الحمام في ظلمة الليل . دون ان يرى احدهما وجه الآخر . ولا يستنشق ملامحه . كما يفعل العشاق . الا بهمس مرير لا واع تقريبا وبحذر ورعب — هذا اللقاء العاجز تجاوز حدود الطبيعة والواقع وبدا وكأنه من نسج خيال عذباني كليل سيتبدد حالما يبزغ ضوء نور . وليس من المعقول ان يبقى هذا اللقاء حتى الغد او بعد غد او الى الابد ولا ان يسفر عن لقاءات اخرى بنفس هذا القدر من التعاسة والايلام .

مد شمر ناستيونا يده قليلة مرتعشة . وتلك اول لمسة تشبه الملاطفة . فارتجفت ناستيونا وانكمشت . وظلت جامدة بما يجب ان تفعل او تقول . سحب يده وسألها :

— خبريني على الاقل كيف احوالكم ؟

— كنا في انتظارك .

— لم يطل انتظاركم . لم يطل . ها هو يطل الحرب قد وصل فتلقيه يا زوجة وتباهي به وافتخري وادعي الضيوف .

لم يكن هناك داع لمواصلة هذا الحوار . فالمصائب التي انهالت عليهما . دفعة واحدة . وخليلة الجاميل المتشابكة غير المحلولة التي انتصبت امامهما . حائلة الى درجة تثير الرعب من اية جهة يتناولانها منها . لزما الصمت طويلا . ثم تذكرت ناستيونا فالتفتت عليه :

— الا تريد ان تستحم ؟

— حبذا — وافق على عجل حتى بدا وكأنه سر للاقتراح — لقد سئمت الحمام من اجل . انا اعرف . من اجل . اليس كذلك ؟

— من اجلك .

- لم اعد اتذكر متى استحممت آخر مرة .
ابتعد عنها واتجه الى المدفأة . ثم طبطب على الماء في البرميل . فقالت دون قصد :
- برد الماء ولا بد .
- لا بأس به .
سمعت ناستيونا كيف عنر . بالفاكرة . على الشجب الخشبي قرب الباب فعلق عليه سطله وخلع جزمته الباد قرب العتبة ثم خلع ملابسه . واقترب البدن العلتوى الذى لا يرى الا بالكاد من ناستيونا وقال :
- انهضى يا ناستيونا . فلن اتمكن من الاغتسال لوحدى . ساعدينى فى تدليك ظهرى .
سحبها من المصطبة الى الارضية . وفاحت من لحيته التى غرزها فى وجه ناستيونا رائحة الدخان فاشاحت بوجهها جانبا دون قصد . حدث كل شىء بسرعة كبيرة فلم تنتبه ناستيونا الا ووجدت نفسها منحنية مبهوتة . وقد جلست على المصطبة كالسابق قرب النافذة المرصعة . وعلى المصطبة الاخرى راح هذا الشخص الذى تكاد لا تعرفه والقى لها من جديد يغتسل ويتمخط بحفر . ولم تشعر بشىء . لا بالسلوى ولا بالمرارة . لا شىء سوى دهشة ضعيفة بعيدة الصدى وخجل مبهم لا تدرى الى م تعزوه .
اغتسل واخذ يرتدى ملابسه . فقالت ناستيونا حاملة نفسها على الكلام فى محاولة للتخلص من الشعور بالانحراف :
- كان يجب ان احضر بياضات على الاقل .
فرد هو قائلا :
- فلتذهب البياضات الى الشيطان . ساخبرك الآن ما احتاج اليه قبل غيره . استريحى غدا . وبعد غد احضرى بندليتى طالما لم تتهتكى الوحوش بعد . هل هى سليمة ؟
- سليمة .
- احضريها من كل بد . واحضرى كتابا وملحا وقدوا صغيرا للطبخ . فكرى انت فيما هو ضرورى لى . وخذى بارودا للخراطيش من والدى بحيث لا يلاحظ شيئا .
- وماذا سأقول له بخصوص البندقية ؟

– لا ادري . لولى ما تشاليين . فكري في حيلة ما . . . وتذكري من جديد : يجب ان لا يعرف بامري احد . اطلاقا . لم اكن موجودا ولست موجودا الآن . ولا احد غيرك يعرف بالقضية . . . يتعين عليك ان تطمئني ولو قليلا . عندما تحضرين البندقية ساحصل على اللحم ، ولكن الرغيف لا يمكن صنعه . ساجيء بعد غد في مثل هذا الوقت او بعده بقليل . ولا تحضري قبل الاوان ، خلي حارسك كيلا يرافقك احد . يجب ان تنتبهي من الآن فصاعدا .

تحدث بهدوء وبصوت اكثر ليونا بعد الاستحمام ، ومع ذلك ظل ينم عن الجزع والقلق .

– تبدلت واغتسلت وحالفني الحظ بلقاء امراتي العزيزة . وحان موعد الذهاب .

– الى اين انت ذاهب ؟ – سالته ناستيونا فاجاب متمتما :

– الى اين . . . الى مكان ما . الى اشقائي الاعزاء ، الى ذئاب الغاب . فلا تنسي بعد غد .

– لن انسى .

– انتظريني هنا ، وبعد ذلك سنتفق بخصوص المستقبل . اذن ، فانا ذاهب ، انتظري قليلا ، ولا تخرجي من هنا في الحال .

ارتدى معطفه وصمت ، ثم سالها على حين غرة من الشبة :

– هل انت مسرورة لاني جئت حيا ؟

– مسرورة .

– يعني انك لم تنسي من انا بالنسبة لك ؟

– كلا .

– من ؟

– زوجي .

– هكذا اذن : زوجك – كرر مزمجرا على هذه اللفظة وخرج .

وفي الحال انتبهت على نفسها دون ان تدرك شيئا : هل صحيح انه زوجي ؟ اليس هو الشيطان ؟ وهل يمكن رؤية شيء في الظلام ؟ فالشياطين ، كما يقول الناس ، يمكن ان يتحولوا بشكل لا يميزه البشر حتى في وضح النهار . رسمت على صدرها شارة الصليب كيفما اتفق ، فهي لا تجيد رسم هذه الشارة ، وصمت مبتهلة

بكلمات صلاة منسية تذكرتها من الطفولة . وراودتها فكرة : اليس من الاصل لو كان ذلك هو الشيطان حقا ؟ ونجسد فؤادها لهذه الفكرة التي تفوح منها رائحة الخيانة .

٤

اندري نوسكوف يدرك ان المصير قاده الى طريق مسدود . لا يزال امامه درب قصير جدا . على ما يبدو . وبعده سيرتطم بالجدار . وليس بالامكان العودة . . . فلا امل في ذلك مطلقا . كان اختيار طريق العودة بالنسبة لاندري قد خلصه من التأملات الثاقلة والتفكير العقيم . فهو مضطر الى العيش بشعار : فليكن ما يكون .

في هذه الايام الاولى التي عاشها في البقاع القريبة من مسقط رأسه كان اشد ما يؤلمه هو الذكريات : كيف توجه من هنا الى الجبهة قبل ثلاث سنوات ونصف . تماثلت امام انظاره كل الاحداث طوال حوالي اسبوعين من وصول اول نبأ عن اندلاع الحرب حتى وصوله هو الى اركوتسك حيث جرى تشكيل الفرقة التي خدم فيها . تماثلت تلك الاحداث بشكلها الحي الساطع لدرجة جعلته يكاد يفقد رشده لفرحها وكأنما جرت يوم امس . احتفظت ذاكرته حتى بالمشاعر التي انتابته آنذاك وتكاد تتكرر الآن : فهو اليوم ، يشعر ، كما شعر آنذاك ، بالانعتاق والعجز عن تصور ما سيحدث ، ويتزعزع ما وصل اليه ، وبالغيظ والوحدة والمرارة ، وبنفس ذلك الرعب المتجهم البارد الذي يلاحقه . امور كثيرة ، حتى الحالات النفسية العابرة ، شبيهة بما كان آنذاك ، ولكن بفارق هائل جدا هو ان ذلك كله بدا الآن بالمقلوب ، بباطنه الذي اكتسب الوضع الحالي ايضا . ها هو الآن هناك حيث بدأ مسيرته ، ولكن على الضفة اليسرى من النهر وليس الضفة اليمنى . حينذاك كان الفصل صيفا ، اما الآن فهو في الشتاء القارس . حينذاك توجه الى الجبهة ، اما الآن فهو عائد منها ، حينذاك توجه مع الكثيرين ، اما الآن فقد عاد وحيدا بدوره المنفرد الخاص . لقد اقدم مصيره على خطوة مستحيلة فاعاده الى مكانه القديم ، ولكن الموت يواجهه الآن بقلقه وقلبه كالسابق ، بيد انه جاء اليه هذه المرة من الخلف كيلا يفلت منه

ابدا . صار يعيش الآن على السموم حياة منفلتة مقلوبة راسا على عقب . فلا يعرف باى اتجاه ستتجه كل خطوة من خطاه . ويبدو ان حياته هذه لن تخلف اية ذكريات .

كان رجال اناماتوفكا السبعة الذين جندوا في الوجبة الاولى . وبينهم لوسكوف . قد غادروا القرية على خمس عربات خفيفة . فقد رافقهم عدد من المجندين يعادل عددهم تقريبا . الا ان اندرى ودع اهله في منزلهم . فلا داعي لاطالة سكب الدموع والعويل وليس من الحكمة ان يؤذى نفسه عبثا . اذا دعت الضرورة الى بتر شيء فيجب بتره في الحال . كان يتمنى ان توافيه المنون في الحال ايضا عندما يحين الموعد (وليس ذلك الموعد ببعيد) دون ان يتشبث بقشة الامل . عانق امه واباه وناستيونا عند الباب وقفز الى العربة واستحث الحصان . عندما اسرعت العربة ضبط نفسه ولم يلتفت . وحين تجاوز البراعي حيث لم تعد اناماتوفكا مرئية سحب العنان وانتظر الباقين كي يتوجهوا بقافلة واحدة .

في كاردا انتقلوا الى الباخرة التي وصلوها قبيل ان تقلع فهبطت بهم مع التيار الى مركز الناحية . وبعد يوم واحد سارت الباخرة نفسها في طريق العودة باتجاه اركوتسك وهي تقل القرين الذى تجمع من كل ارجاء الناحية . في الصباح الباكر مروا باناماتوفكا . كانوا ينتظرون المرور بها فلم يغمض لهم جفن . وعلى مسافة ليست قريبة منها راحوا يصيحون ويطلقون اصواتا متنافرة دون ان يفهموا ماذا يصيحون ولماذا يصيحون . الا ان اندرى تطلع الى القرية صامتا . وبنى من الغيظ . فهو الآن مستعد لتحميل القرية . وليس العرب . ذنب اضطراره الى مغادرتها . حلق الرجال صلعهم مع ذلك . فقد هرع اناس الى الضفة وراحوا يصيحون جوابا عليهم ويلوحون بالمناديل والقبعات بيد ان الباخرة بعيدة عن الضفة . وليس بالامكان صرفة احد او سماع ما يقول . خيل لاندرى انه راى بينهم ناستيونا . لم يكن واثقا من ذلك . ولكنه غضب : ما الداعي لهذه المهزلة التي لا نفع فيها ؟ تواعدنا وقلنا لبعضنا البعض كل ما ينبغي ان يقال . وكفى . فالعرب لا مرد لها . بيد انه لو كان يعرف حقا ان الشخص الذى اعتبره بمثابة ناستيونا هو ناستيونا بالفعل لربما هان عليه الامر . غير ان الغضب انتابه

بالملك لانه لم يكن متأكدا من ذلك . كان الشيخ العجوز على كل ما يبدو في المكان الذي انتزعوه منه والذي يتعين عليه القتال من اجله قد ظل ملازما له امدا طويلا . وهو الذي حمله آنذاك على قطع الوعد الذي تذكره طوال تلك السنين وولى به الآن غير متصد . لم يعد هو . بالطبع . وفاء بذلك الوعد . كلا . بيد ان هذا الوعد . بعد ان تحقق الآن . لم يكن يبدو مجرد وعد فارغ منذ البداية . فقد لاحت فيه قوة مغرية حقيقية هبت لنجدة غوسكوف في محنته .

سارت الباخرة بعكس التيار ثلاثة ايام بلياليها . وكان ركابها صامتين انسحبوا كليا وراء السرح الصغير وهم يدركون جيدا ان هذه الايام هي آخر الايام الطليقة بعيدا عن الخطر . ظل اندري منزويا . فهو لم يتعود شرب الفودكا . كان يقف على متن السفينة متجمدا وهو يتطلع طويلا الى الامام . الصيف في عزه والشمس الساطعة تجوب السماء طوال النهار . والنهر ينسحب مخلفا رنينا في الهواء . الباخرة تشق السير جنب الشواطئ والقرى والجزر الصغيرة التي تبتعد رويدا رويدا حتى تختفي . قلب غوسكوف ينكمش ألما وهو يفكر بانه ربما يرى ذلك كله آخر مرة . أليس من الافضل ان يهبط الى الماخل ويلتحق بالآخرين ؟ فليس هو المتألم الوحيد . لعل من الافضل ان يأوي للنوم متوسدا كيس فيغرق في النسيان والضياع الى ان توقظه الاوامر . الا انه لم يبرح مكانه ظل يعذب نفسه بالاسى والكآبة . فينهش فؤاده ويأسف عليه . وظل يتطلع ويفكر ويتعذب . كلما اطال التطلع كلما صار يدرك بوضوح لا يرحم كيف تجري حياته انظارا بهدوء ولامبالية ودون اي اكتراث به . وكيف تنسحب الضفاف التي قضى كل سنوات العمر فيها دون ان تلتفت اليه . انها تنسحب منزلقة الى حياة اخرى والى اناس آخرين . الى الذين سيحلون محله . واحس بالضيق يخنقه : لماذا عاجلتني المصائب بهذه السرعة ؟ ما كاد يشتد الرحال ويتحرك الا وطوى النسيان وصمت القبور كل ما كان عليه وما كان ينوي ان يصير اليه . افلا يعني ذلك ان المدرك هو الموت ؟ فلتنصب للقائه . وما انت بالنسبة لنا الا انسان هالك . هل صحيح اني انسان هالك ؟ رطن هذه الفكرة متلعثما ورعد بصوت مسموع وبعناد شرير قائلا :

– كلا ، سأعيش . لن تدفنوني مبكرا . وستروني بأنفسكم انني سأعيش . ستبقون انتم طبعا ولن يحدث لكم شيء . فسترون .

في الجبهة فارقه هذا الامل . فقد اصيب بجرح في المعركة الاولى . ومن حسن الحظ ان الجرح طفيف . فقد اخترقت الرصاصة عضلة ساقه اليسرى فعاد الى وحدته بعد شهر وهو يعرج قليلا . كانت فكرة الخلاص آنذاك خالية من اي معنى . ولم يكن هو الوحيد الذي اخلى تلك الفكرة في اعماق دخيلته حتى انه لم يعد يعرف هل الدوام ما اذا هي موجودة لديه ام لا ، كي يحميها ولا يعرضها للخطر . ما اكثر حالات الموت التي شهدها حواليه . انها كثيرة لدرجة جعلته يعتقد ان موته هو محتم . فان لم يقع اليوم ، سيقع غدا . وان لم يقع غدا فسيقع بعد غد . عندما يحين دوره . ان حياة السلم هنا ، في الحرب . اذا حالف الحظ شخصا بالتمتع بها . لا بد وان تبدو حياة ابدية . فمن الغريب ان يفكر المرء بانها يمكن ان تستمر عاما بعد عام ، لعقود من السنين كما لدى الاشجار او الصخور : فللزمن هنا ابعاد اخرى ومقاييس اخرى .

حالف الحظ اندرى لوسكوف امدا طويلا . وذات مرة فقط قبل ان يغادر الجبهة اخلق في الصيانة فوقع تحت قصف القنابل واصيب بهزة شديدة . ادت موجة الانفجار الى صممه فظل اسبوعا تقريبا لا يسمع شيئا على الاطلاق ، ثم استعاد سمعه بالتدريج . وخلفت تلك الهزة ذكريات مضحكة مبكية : استولت عليه ، هو الاصم ، في المستوصف ، شهية فظيعة . كان ، كذئب جائع ، يريد طعاما في كل دقيقة . وقد واجه مختلف المتاعب بين الحين والآخر بحثا عن الطعام . فهو لا يسمع نفسه ويعتقد بان الآخرين ايضا لا يسمعونه . ولهذا ذلك سببا في فظيعته عندما راح يتسلل الى المطبخ كي يحصل على ما يؤكل . وعندما يطلب وجبة اضافية كانوا يجيبونه بمختلف الاجوبة التي تضحك سائر المرضى . اما هو فلا يسمع منها شيئا .

في غضون ثلاث سنوات تمكن لوسكوف من القتال في كتيبة التزلج بالاسكي وفي سرية للاستطلاعات وفي بطارية للهوتزر . وتسنى له ان يجتاز كل المحن : هجمات الدبابات واقتحام مراكز الرشاشات الالمانية وحملات الاسكي الليلية وتصيد الاسرى السرعق

الذي يستغرق وقتا طويلا وجهدا كبيرا . لم يتعود لوسكوف مثل الحرب وما كان يرسمه ان يتعود عليها . كان يحسد الذين يتحركون بنفس الاطمئنان والبساطة اللذين تعودوا عليها اثناء الذهاب الى العمل اليومي . ولكنه حاول هو ايضا ، وعلى قدر الامكان ، التكيف للحرب ، فليس لديه مخرج آخر . لم يكن يسبق الآخرين ، ولكنه لم يختف وراء ظهورهم . لهذا فهو لا بد ولن يراه الجندي ولا بد ان يرد عليه في الحال . ثم انه لا مجال للمراوغة والتحايل عموما اثناء «الاستطلاع» حيث تهجم مجموعة من خمسة او ستة اشخاص على خندق الماني ، ففي هذه الحال اما النصر واما الموت ، ولذا تلكأ المرء وحاول ان يحافظ على حياته فانه يهلك نفسه ويهلك جميع رفاقه . كان الاستطلاعيون يعتبرون لوسكوف رفيقا امينا ، فاكثرهم استبسالا ياخذونه معهم كمقاتل اضافي لحماية بعضهم البعض . حارب كالآخرين لا اقل ولا اسوأ منهم . وكان الجنود يقدرون فيه قوته البدنية ، فهو نصير القامة مفتول العضلات قوي البنية . انه يحمل الاسير الحصاب او الجندي على ظهره ويوصله الى الخنادق السوفييتية دون تردد . خدم لوسكوف في ارجاء مختلفة من الجبهة . ففي كتيبة التزلج قاتل في ضواحي موسكو شتاءا ، واثناء الربيع قاتل في السرية الاستطلاعية بمنطقة سمولينسك ، وقاتلت بطاريته في ستالينغراد بعد الهزة التي اصيب بها . وتحسنت الاحوال هنا في المنطقة الجبلية المدى بعد الشروع بالهجوم .

في شتاء ١٩٤٣ لاحت بوادر نهاية الحرب . وكان الامل في البقاء على قيد الحياة يزداد كلما اقتربت الحرب من نهايتها . لم يعد ذلك الامل خفيا خجولا ، بل صار صريحا مقلقا . فما اعظم ما تحمله اولئك الذين قاتلوا وصمدوا منذ الايام الاولى للحرب . يودهم ان يزفوا بلا تسامحا خاصا يجب ان يقرره النصير لهم وبان الموت يجب ان يتراجع عنهم طالما تمكنوا من البقاء شره حتى الآن . وهنا ، في الحرب ، خيل اليهم انه توجد برهة تجريبية للخلاص : ما دمت لم تمت بعد فلعلك لن . وفي بعض الاحيان ، في لحظات اليسر والهدوء تراود لوسكوف قلة سعيدة بانه لن يحدث له مكروه بعد الآن ، وانه سيسير ، كما هو الآن ، ورهبا وريثما دون جهد كبير

حتى يصل بعد المعاناة الى ذلك اليوم الاخير الذى دفع ثمنه عشرات الاضعاف . ذلك اليوم الذى تضع الحرب فيه اوزارها ويتوجهون هم الى ديارهم . بيد ان تلك اللحظات الرضاة المنشودة كانت تتلاشى . وعند ذاك ينسلل الرعب على نحو غير ملحوظ : فالآلاف المؤلفة من الذين يدارون نفسى هذا الامل كانوا يستنهضون عزما مراى منه يوما بعد يوم وهو يدرك بانهم سيظلون يستنهضون حتى آخر ساعة من الحرب . فمن اين يجيئون اذا لم يكن من الاحياء منه ومن غيره ؟ فهل هناك امل يا ترى ؟ انساق نوسكوف للرعب والهلع ولم يعد يرى املا بالنجاة . فراح يفكر بحذر فى امكانيه اصابته بجرح - طفيف طبعا - من اجل ان يكسب الوقت لا غير .

بيد ان نوسكوف اصيب بجرح غير طفيف اطلاقا فى صيف عام ١٩٤٤ عندما ظهرت الدبابات الالمانية مباشرة امام بطاريته المغلقة استعدادا للانتقال الى مكان آخر . ظل مضيا عليه طوال يوم كامل تقريبا . وعندما استعاد وعيه وتاكد من انه سيبقى على قيد الحياة هدأ وعلل النفس بان واجبه الحربى انتهى . فليحارب الآخرون الآن . كفاية . لقد ادى ما عليه واكثر . ولن يشغل فكر القريب العاجل ، وفيما بعد ، عندما سينهض على قدميه لا بد وان يحصل على اجازة . تلك هى الخاتمة ، سواء كانت سيئة او حسنة . لا فرق . المهم انه حى يرزق .

ولقد اندرى نوسكوف فى مستشفى نوفوسيبيرسك زهاء ثلاثة اشهر . لم يلتئم جرح صدره طويلا بعد ان انتشلوا منه الشظايا مرتين . وبعث له اصله طردا ثم آخر لتلوية بدنه . ورجته ناستيونا ان يسمح لها بزيارته ، ولكنه فكر بان لا داعى للسفر وانفاق نقاليله . فهو سيصل بنفسه قريبا . وايده جيرانه ، جنود الردهة ، فى فكرته هذه فعززوا تلك . فالجرحى يمرحون مسبقا من الذى سيتوجه الى البيت نهائيا بعد المستشفى ، ومن الذى سيحصل على اجازة قصيرة ، ومن سيعود الى الجبهة . وافادت حساباتهم بان نوسكوف سيحصل على اجازة لمدة عشرة ايام فى اقل تقدير . فانتظروا . انتظرى يا ناستيونا ! ولم يعد يصدق الآن بانه كان يهيئها لاتفه الاسباب . فلا يوجد فى العالم كله شخص اقل منها . سيعود وسيهيئان اروع عيشة . وسيحل بعد الحرب عالم

اخر للجميع . للجميع . ولهما على الخصوص . لم يكونا يفهمان شيئا قبل الحرب . عاشا دون ان يدريا ويحبا بعضهما البعض . فهل يجوز ذلك ؟ !

بيد انه سمع في تشرين الثاني . عندما اقترب موعد الخروج من المستشفى . ذلك الموعد الذي انتظره بفارغ الصبر وكان يلصق جراحه من اجله . فقد امروه بالالتحاق بالوحدة . بالوحدة وليس بالذهاب الى البيت . كان واثقا من انه سيتوجه الى البيت حتى عجز من فهم الاوامر وتصور بان هناك خطا . فراح يراجع الاطباء ويجادلهم ويتفعل ويصيح . ولم يكن احد يريد الاصغاء اليه . كانوا يقولون بلهجة قاطعة : يوسعك ان تحارب . اخرجوه من المستشفى بعد ان ارتدى ملابسه وسلموه هوية الجيش وبطاقة الارزاق . وكانهم يقولون : هيا ، يا اندرى نوسكوف . إلحق ببطاريتك . فالحرب لم تنته بعد .

واستمرت الحرب .

كان يفتش الذهاب الى الجبهة . ولكن هذا الشوق اقل من الغضب والغيظ على كل ما يجعله يعود الى الجبهة من جديد دون ان يزور اهله . فقد استعد بكليته . بكل جوارحه بكل فكرة من افكاره . للقاء اهله . للقاء ابيه وامه وناستيونا . عاش من اجل ذلك . وشقى وتعافى وتنفس من اجل ذلك . وما كان يعرف شيئا غيره . فليس من الجائز الاستهانة بالعين السرعة . ذلك يودي بالمرء الى التهلكة . وليس بامكان المرء ان يتجاوز نفسه . كيف يجوز له ان يعود من جديد الى الرصاص . الى الموت . في حين انه موجود في الوطن . في سيبيريا ؟ ! فهل في ذلك شيء من الصواب او العدل ؟ انه بحاجة الى يوم واحد لا اكثر كي يزور اهله ويطمئن عليهم . وبعدئذ سيكون مستعدا من جديد لتحمل الاعباء .

ثم انه لم يسمح لناستيونا بزيارته . يا له من احمق ! لو كان يعلم بالنتيجة مسبقا لدعاها بعلم المناسبة . ولرآها فهونت عليه . ولودعته ولكان في وداعها مزيد من الامل . فمصير الانسان يكاد يمتلك عينين تريان عند السفر ما اذا كان هناك شخص ينتظر وتجب العودة اليه ام لا . الا ان كل الامور صارت عكس ما يتمنى .

ولذا استمر الحال على هذا المنوال فلن يطول به جهل البقـــاء . وسوف يردى قتيلا فى اول معركة .

صار يعتقد ان السوفيتيين فى الستينى يمتلكون ارادة فيهيه قاسية لا تتمكن القوى البشرية من السيطرة عليها . كما لا يمكن . مثلا . درء الزوبعة او ايقاف تساقط البرد . فقد قرر احد الالهة . وهو الاله الاكبر . دون تحيص او تمييز . واضطر سائر الآلهة على الموافقة . ولكن اندرى انسان من لحم ودم فلماذا لم يراعوا هذه الحقيقة ؟ صحيح ان احدا لم يعده بشىء . فقد خدع نفسه بنفسه . ولكن اولئك السوفيتيين منحوا جنودا غيره اجازات . فهو يعلم انهم منحوا البعض اجازات وراى ذلك بنفسه . فكيف لا ينخدع ؟ !

هل يتوجب عليه حقا ان يعود الى الجبهة ؟ لعله قريبون من هنا . قريبون جدا . فليتوجه اليهم . وليكن ما يكون . عليه ان ياخذ بنفسه ما انتزع منه . خالف البعض الاوامر ولم يتعرضوا للعقاب . لقد سمع بحالات من هذا النوع . فلماذا يتعرض هو للعقاب ؟ ولذا كان سيعاقب فهذا ما يستحقه . فهل هو انسان حديدى . حارب اكثر من ثلاثة اعوام . فالى متى يمكنه ان يحارب ؟

فى المحطة فوت قطارا . ثم فوت قطارا آخر . . . افكاره مشوشة متشابكة . وهو لا يعرف ما العمل . وانتابه الغيظ لدرجة اكبر لانه لم يتمكن من التصميم على شىء وضيع الوقت سدى . عندما وقف فى الطابور لاستلام الارزاق بالبطاقة تحدث مع جندى دبابات مرح قصير القامة يرتدى خوذة ويستند الى عكازين وساقه اليمنى مقطوعة ومضمدة بلفافات سميكة . كان جندى الدبابات متوجها الى مدينة تشيتا شرقا . فسال من نوسكوف :

— وانت الى اين مسافر ؟

اجاب نوسكوف دون سابق تفكير :

— الى اركوتسك .

فقال جندى الدبابات مسرورا :

— سنسافر معا بالجناح واحد .

ساعد نوسكوف رفيقه فى الصعود الى عربة القطار المتجه الى الشرق وقفز هو الى العربة ايضا فى آخر لحظة . فليكن ما يكون .

ولذا فيصروا عليه سيدعي بانه مسافر الى كراسنويارسك فقط ، ومنها الى اركوتسك حيث ينوى العودة بعد يومين او ثلاثة . وسوف يتخلص من العقاب . فليس في ذلك جريمة لا تغتفر . في بعض الاحيان ، عندما يفكر لوسكوف في تصرفه هذا ، كان يريد لهم ان يقبضوا عليه ويعيدوه . ولكن الحظ يحالف البعض في مثل هذه الحالات ، فلم يوقفه احد . القطارات خاصة بالناس كالسابق والخليهم من العسكريين المتجولين الذين ليس من السهل الاقتراب منهم .

بيد ان لوسكوف عندما وصل الى اركوتسك بعد ثلاثة ايام فرتب حقا . فاذا واصل السير لن يكفيه يوم او يومان . فالوقت يمتاه . اما العودة من منتصف الطريق فهي غير واردة ، والا فلماذا اقدم على ذلك وعذب نفسه وجازف ؟ ولماذا الح واصر ؟ وما الذي اراد ان ينبته ؟ ثم الم يفت اوان العودة ؟ تذكر لوسكوف الاعدام رميا بالرصاص الذي شاهده في ربيع عام ١٩٤٢ حالما التحق بالاستطلاعات . في قرية ولمة كالطل اصطف فوج واخرج منه اثنان ، احدهما رجل في زهاء الاربعين بيد مضمدة ، وقد جرح نفسه بنفسه ، والآخر لا يزال في ريعان الصبا . وكان هذا قد صمم هو ايضا على الهرب الى اهله ، الى قريته التي تبعد ، كما قيل ، زهاء خمسين كيلومترا . خمسون كيلومترا لا غير . اما هو لوسكوف ، فما ابعد المسافة التي قطعها ! كلا ، لن يتسامحوا معه . حتى كتيبة الجزاء لا تكفي . فهو ليس صبيا ، وعليه ان يفهم عاقبة ما اقدم عليه .

تذكر ايضا الحقد والاشمئزاز اللذين نظر بهما الجنود الى ذلك الذي جرح نفسه . كانوا اسفين للغلام ، لما هو فعلا . وكرروا للغلين : صغير ! اراد ان يخدع الجميع .

ولكن ما هي ميزة لوسكوف على الآخرين ؟ هل هو افضل منهم ؟ لماذا يتوجب عليهم ان يقاتلوا في حين يرتحل هو فحسب وابدا ؟ هكذا سيفكرون ، وهذا ما سيجرمونه به . فالانسان في الحرب ليس حرا في التصرف بنفسه . اما هو فقد تصرف . وواضح ان احدا لن يتسامح معه على تصرفه هذا .

في اركوتسك ، عندما كان يجري محطة القطار متحيرا ، صادف امراة ماكرة واسعة العينين وافقت على استضافته فاصطحبته الى

امتد الضواحي بعيدا عن المدينة . وادركت بحدس داخلي ان الجندي لا يدري ابن يولي وجهه فبعثته في الصباح الى امراة غريبة اسمها تانيا . وهي ليست في مقتبل العمر ولكنها نظيفة انيقة . صرف النهار كله عند تانيا في ذهول ورعب . وكان ينوي النهوض والتوجه الى جهة ما . ولكنه صرف عندها يوما آخر . ثم حط الرحيل هناك على الصوم معتقدا بان من الافضل له ان ينتظر حتى تضيع آثاره نهائيا عند اهله وفي الجبهة .

كانت تانيا الغريبة تعيش في منزل صغير على طرف الضاحية . وتعمل كناسة في المستشفى . حيث تتردد عليه مرتين في اليوم – صباحا ومساءا وتحضر قطعا من الرغيف ملفوفة في منشفة . وعصيدة او مرقا في علبة زجاجية . ومن حسن الحظ انها لا تحتاج الى اية تفسيرات . بل ولا الى الكلام عموما . لقد حالفه الحظ في لقاء مريح وموفق الى حد مدهش مع امراة حرمتها الاقدار من موهبة الكلام . فليس لدى اندري ما يقوله حتى لنفسه . في بعض الاحيان يستولي عليه النسيان فلا يفهم السبب من وجوده في هذا المنزل وما الذي جاء به الى هنا . ثم يرى تانيا وينتهي الوضوح كل خطوة خطاها نحو القطار وكل ساعة قضاها فيه فيحز ذلك في نفسه ويحطمها تحطيما . كان لا يزال عاجزا عن التخلص من هول ما حدث . فتارة يظل جالسا بلا حراك امدا طويلا يحدق بنظرة خاوية في نقطة ما . وتارة يفقد سيطرته على اعصابه فيجوب الغرفة في محاولة للتخلص داير الالم الذي داهمه . المنزل الصغير يهتز من خطاه الثقيلة . لما هو فيجوب الغرفة من ركن الى ركن دون ان يقر له قرار . وذات مرة حل من نفسه فجاة وكرهها مدركا جيدا ان المشاكل الناجمة عن الحالة التي وقع فيها لا عد لها ولا حصر .

ظل هذا الشعور . او على الاصح هذا الهاجس . هذا الموقف من نفسه . ملازما له لا يبرحه امدا طويلا .

كانت تانيا امراة رقيقة عطوفا للغاية . وهي لا تعاني من بكمها ولا لكن لميظا على الناس ولا تتحاشاهم . لم يلاحظ غوسكوف طوال مكوثه عندها انها كانت متجهمة يوما او متذمرة . لم يكن المرح يملو محياها . بل الاطمئنان والطيبة . فهي مستعدة للابتسام في اية لحظة . وخيل لغوسكوف ان بكمها تواب لها وليس جزاءا . ومنذ

الاولى لم يتخلص نوسكوف من تصوره بانها تعرف كل شيء تعرف كل شيء وتاسف له . وخيل اليه كذلك انه حل على بس بارادته . بل قادته اليها يد موجهة لمرة . ولكن لاى الاجل مساعدته ام لاجل هلاكه بحذر وبالتدريج ؟

نيا لعود من الغسل فتخرج علبتيها وصرتيها وتجلس قبالة ف تنظر اليه بنهم وبحب استطلاع وترقب بارتياح كيف طعامه . وبعد الطعام يشكرها بان يقبلها بخفة على كتفها كانت رجلا . فتشعر بالسعادة والفرحة لهذه الملاطفة الخشنة يده فتضغطها على وجنتها ثم تومئ له بشيء ولكنه لا يفهم . عت عمه بقبلة الاصابع متحمسة مستعجلة . ولكنه يهز راسه بنظرته عنها . وعند ذاك تسعى الى ارضائه فتترك محاولة بالاصابع وتمد له يديها مفتوحة .

مرور الزمن تمكنت تانيا من جعل نوسكوف يتفهم الكثير من اصابعها . علمته ذلك بنفس القدر من الحب والصبر يجرى بهما تعليم الطفل الكلام . بيد انه لم يشعر بالارتياح ببجدية البكماء ، فصار يتحاشاها على قدر الامكان . لم يكن لبقاء هنا امدا طويلا . وفي الليل عندما تلتصق به تانيا بادا بانه يسمع همسها الخائر المنجع ، يسمع نفس الكلمات مع من حناجر جميع النساء في مثل هذه الحالات . فيلوذ ت والسكون منتظرا متلصصا . ثم يتاكد من انه مخطئ في ه . ولكنه مع ذلك لا يستطيع التخلص من تصور خبيث ه ان تانيا تتظاهر بانها خرساء .

انه هو شخصيا ، لا احد يعلم الآن من هو شخصيا . لقد ل شيء فيه وانقلب وتمزق في الفراغ . ارتحل لامد قصير رحال لامد لا نهاية له . كان يفكر بناستيونا فوجد نفسه سان تانيا . اما ما قبلي فالتفكير فيه مرعب فظيع . فما من رع مرارة عواقبه ، وما من توبة تغني عن العقاب .

شهر لم يعد يطيق البقاء هنا . فهو مستعد لتقبل الموت على بقى هنا . وفي الهزيع الاخير من احدى الامسيات ، عندما انيا لعارس كنس المستشفى ، هرب منها . ولم يكن امامه لعودة . فلا طريق هناك الا صوب الديار .

عندما غادر اركوتسك كان حذرا للغاية . فلم يسمح لنفسه بالظهور في القرى نهارا كيلا يصادف احدا . فهو ينتظر ويصبر النهار في الارياف والاكواخ الشتوية المهجورة ويبادر الاعشاب الجافة . ويتفحص كل شخص من بعيد ويخشاه ويهرب ويختفي بصوت مكتوم . ويتجمد ويلعن نفسه . اما في الليل حيث يعم الهدوء فيطلق العنان لنفسه ويطلق ساقيه للريح . ومن حسن الحظ ان الليل لا يزال طويلا والنهار قصير .

واخيرا ، وصل في احدى ليالي التصيد الى اتامانوفكا ، توقف عند طرفها العلوي والقى بنظرة مرعلة متعبة على سطوح المنازل البيضاء المنتصبة على ضفتين . لم يتحسس اية مشاعر من لقائه بقريته وسقط راسه ، فهو عاجز عن الاحساس بشيء . ظل واقفا برهة قصيرة ، ثم هبط الى نهر انغارا وسار على جليده دون ان يرى القرية الراقدة على ضفته العالية حتى وصل الى حمام منزله وحالما دخل الحمام واغلق الباب هوى على الارضية وظل امدا طويلا راقدا بلا حراك كجثة هامدة .

وعند الفجر كان يجرجر ساقيه الى الشاطئ الثاني من انغارا وعلى كتفه خشبتا الاسكي ومن حزامه تتدلى الفاس .

وجد اندري لوسكوف مخبأ له في كوخ شتوي قديم قريب جدول في مقاطعة اندريفسكويه . نظف الفرن الحجري الذي لم تمسه يد من زمان بعيد واعد شايا في الزمزمية ولدفأ لاول مرة بعد ايام عديدة من الحياة السالبة كحياة الذئاب . بعد نصف ساعة اخذ بدنه يرتعش بشدة فاحس من يديه ورجليه انه يهتز ولا يقر له قرار . فاربعا استوعب بدنه في الحال قدرا كبيرا من الدفء بعد برد طويل ، واربعا بدت آثار التوتر العصبي والانتظار المتواصل لهذه اللحظة التي يتمكن فيها اخيرا من الاولف والاستجمام دون ان تحملق عيناه وتنتصب الاذناه حذرا في كل لحظة .

اختار هذا الكوخ بالذات منذ ان كان في اركوتسك يطيل التفكير في الماوى الذي يلجأ اليه قرب اتامانوفكا . فليس هناك

الفضل منه موقعا . حيث يتواجد في منخفض عميق يلتف وراءه الهضبة فلا يرى منه الدخان مهما احرق من احطاب . زد على ذلك ان الجدول قريب على بعد خطوات منه . فيمكنه ان يصل الى مخبأه على جليد الجدول دون ان يخلف اثرا للتعقيب .

ليس في الامر حيلة . فهو مضطر الآن للتفكير بذلك قبل غيره . المكان مريح . بالطبع . لانه وراء نهر انغارا . فما كان احد في السنوات السابقة يعرج عليه . فكيف يفكر احد بالوصول اليه الآن ؟! وحتى مراقب الحراجات ليس لديه ما يفعله وراء الجزيرة . فالبواخر تسير عادة في الفرع الايمن الواسع .

حقول ومزارع اهل اتاماتوفكا واقعة منذ القدم على ضفتهم . فهي هناك تفيض عن حاجتهم . واماكن القنص وصيد الاسماك وغيرها من الصنائع متوافرة ايضا على مقربة منهم . فهم يعتبرون الاراضي المنبسطة حتى نهر لينا الغنى من غيرها بالوحوش والفوز والسمار . ولذا ما كانوا يعبرون النهر الا قيما ندر . ولكنهم يحسنون اعشاب الجزيرة المقابلة للقرية ويجمعون ثمارها في الوقت ذاته .

الا ان نازحا اسمه اندرى سيلى وصل مع ابنيه الى اتاماتوفكا من اواسط روسيا قبل الحرب اليابانية الروسية . تفحص تلك البقاع وفكر كثيرا . ثم اختار بقعة لاستمارته وراء النهر . مما اثار دهشة الفلاحين المحليين . انشا لنفسه منزلا . كسائر الناس . في القرية نفسها . اما الاراضي البكر لاجل الفلاحة فقد اختارها هنا . ولم يكن بحاجة الى اجتثاث قرم وجذور كثيرة . فالفسحات والمساحات الصالحة للزراعة متوفرة بالقدر الكافي .

بنى كوخين ستويين من جذوع الاشجار احدهما عند الجدول قرب المروج والثاني على مرتفع يبعد زهاء كيلومترين عن الاول . ونظم استمارته الفضل تنظيم .

ومنذ ذلك الحين صارت هذه البقاع تسمى بمنطقة الفوبيفكويه تيمنا باندرى سيلى .

توفى سيلى في بداية عهد اشاعة التعاونيات الزراعية . ولم يعد احد ابنيه من الحرب الاولى مع المانيا . اما الآخر فقد صودرت املاكه في عام ١٩٣٠ مع من صودرت اموالهم من برجوازية الريف

ونفر مع عائلته الى مكان ما . ولذا فلم تتسق اصول النازح اندري سيفي في الاراضي الجديدة .

هجرت التعاونية الزراعية حقوله كما كان متوقعا . فهل من المجدي لرسال الكادحين في الربيع والصيف والخريف الى تلك البقاع الخالية من اجل جمعة حكايات ؟ وهل من المجدي لرسال المبادر والحاصدات لهذا الغرض عبر النهر وتشغيل عبارة ؟ حقا . فهل من المجدي ذلك ؟

وها هو اندري فوسكوف يذكر بكلمة طيبة المرحوم اندري سيفي الذي ترك له ماوى مريحا ومامونا من جميع الوجوه .

واذا طال امد بقائه هنا فان الكوخ السفلي يصلح حتى الصيف فقط . ثم يتعين عليه الانتقال الى الكوخ العلوي او الى مكان آخر اذا عن° لصياد سمك او لاي شخص مغامر ان يعرج عليه .

وعزم في الحال على التوجه غدا الى الكوخ العلوي في جولة تفقدية . الاسكي تحت تصرفه . وعليه ان يتوجه الى الامام عبر جليد الجدول ثم يلوم بدورة على الاسكي ليعبر الكوخ من الطرف الآخر . فاذا كان المرء يريد ان يعيش يتعين عليه ان يدبر اموره بشكل ما ويتفقد ما لديه وما سيبدأ به حياته الجديدة . حيثما لو حصل على بندقية . ولا بد له من الالتقاء بناستيونا ، فليس لديه غيرها . وسوف يروح في داهية ان هو بقي لوحده .

فكر في ذلك كله بفتور وخف ارتعاش بدنه فحس المزيد من الحطب في الفرن ورقد على الفخت وطوى الليل بالنهار في نوم عميق حتى صباح اليوم التالي .

●

في السماء بدأ الاكتتاب على سندات الدولة لدعم المجهود الحربي في وقت مبكر جدا هذا العام . اقتنت ناستيونا سندات بالفي روبل . وذلك مبلغ لم يكتب بمثله احد في القرية سوى ايفانوفيتش . بيد ان ايفانوفيتش . كما يعلم الجميع . يمتلك ثروة لا تعد ولا تحصى . ولذا سماه اهل القرية بابي جيب . اما ناستيونا فلم تكن حتى لتتصور كيف ستدفع هذا

المبلغ الكبير . مرض ميخيتش او ادعى بانـــه مريض فحضرت ناستيونا اجتماع الاكتاب بدلا عنه . في حين ان احدا لم يعلـــن مسبقا عن الغرض من الاجتماع . وها هي الورطة قد حدثت . امتعضها الغموض واستغرب الحاضرون من تصرفها . اما هي فقد ارتعبت من شجاعتها . ولكن سبق السيف العذل . فالكلمة ليست عصفورا ، واذا انفلتت فلن تمسك بها . لم يكن هناك مجال للتراجع . وسمعت ناستيونا من دخيلتها صوتا مثلها هداها وقال لها : حسنا فعلت . وما دامت قد تبرعت فلديها دافع يحثها على ذلك . ولـــم تتصرف اعتباطا . لعلها كانت تريد لدية زوجها بسنغات دم الجهـــود الحربي . يبدو انها لم تفكر به في تلك اللحظة . ولكن الا يستطيع احد غيرها ان يفكر على هذا النحو .

حالما دخلت المنزل وتلوعت بكلمة عن الاكتاب بادرها ميخيتش سائلا :

– بكم ؟

– بالفين .

رفع راسه عن العمل الذي انهمك فيه وهو جالس على المصطبة وسأل دون ان يصدق ما سمع :

– لماذا تمزحين معي يا بنية ؟

– انا لا امزح . . .

– ماذا ؟ هل جننت ؟ ام ان عندك الفين . آ ؟ ربما تخبئينها . آ ؟

– كلا .

– بم كنت تفكرين اذن ؟ من اين تتوين الحصول على تلـــك النقود ؟ ربما تريدين ان تبيعيني او تبيعيها – واوما الى سيميونوفنا الراقدة على دكة الفرن الحجري – لن ياخذنا احد ولو مجانا .

– قالوا هذا آخر الكتاب . من اجل النصر .

– من اجل النصر . . .

تململت سيميونوفنا على دكة الفرن وادارت بعنقها متسائلة :

– ماذا تقول ؟

– تقول اننا صرنا اغنياء فجاة . واننا جمعنا نقودا كثيرة ، كثيرة جدا ولا ندري ماذا نفعل بها .

انزوت ناستيونا في ركنها المعزول بمنارة قطنية والذي كان بمثابة غرفة نوم لها مع اخرى . حيث لا يزال سريرها موجودا كانت تعرف ان ميغيتش يشتاط غضبا ثم يهدأ . اما حياتها فعندما تلهم الشكلة ستتور لامد طويل . لا ان طاقتها في هذا المجال لكثير لشهر او اكثر . فلينصحها الى الشيطان . ستتلج هي تلك النافذة بشكل ما . وستفكر بحل فيما بعد . ثم ان هذا الاجتماع ليس الاخير . . . ولكنها حصلت بالفعل الاكتفاء على حق السفر الى كاردا هذا . وصارت تلك النقود بمثابة ورقة رابحة لها . فيدونها ما كانت لتستطيع . طبعا . ان تحصل على هذه الفرصة .

كانت تقديراتها صائبة . فبعد الاجتماع رات نسطور . وليس التعارنية . راضيا عن الاكتفاء . حيث كانت القرية على مستوى المبلغ المطلوب منها . وتوجهت نحوه بابتسامة سعيدة وقالت بشيء من الاحترام والتزلف :

— يا نسطور ايليتش . من الذي سيوصل الرفيق المفوض غدا ؟

تطلع اليها نسطور بنظرة خبيثة متفهمة وخاطب المفوض قائلا :

— يا رفيق ! فتاتنا الطليعية اعربت عن رغبتها بمرافقتك غدا الى كاردا . فهل لديك مانع ؟

اقترب المفوض . وهو رجل قصير مدعوك اللباس وكانه جهاز مستهلك . وعلى راسه تتف متناثرة من الشعر هنا وهناك . تمتم وهو يتطلع الى عيني ناستيونا :

— اي رجل يمكن ان يكون لديه مانع ؟ واقول صراحة انني لم اكن حتى لاحلم بمثل هذه الرفقة .

طبطب نسطور على كتفه كما لو كان صديقا حميما وقال غامزا بعينه لناستيونا :

— لرجوك اطلق سراحها بعد ذلك لتعود الينا . فالعمل كثير ولا احد عندنا .

غدا ستتوجه الى كاردا . ويتعين عليها ان تخبر ميغيتش بهذا النبأ . ولكن من الافضل تاجيله الى صباح الغد . فاليوم يكفيه

يا الالهين . يا الهي . اية حياة بدات الآن ؟ وماذا سيحدث لهما ؟ ! ماذا سيحدث ؟ !

. . . في الليلة التي اعقبها في الثلاثاء الاول احضرت ناستيونا البندلية لانورى . وعثرت على الغراطيني ايضا . لكن ميغيتش لم يكن يمتلك باروده . وكل ما وجدته لا يكفي لغرطوشتين او ثلاث . وهذا قليل . بالطبع . كما قال انورى . ولكنها خشيت من استعارة البارود من اهل القرية . فهم لا بد وان يخبروا حماها في الحال . وستثور ثائرته . القرية صغيرة والكل يعرفون من الذي طلب ملحا يوم امس من جاره ومن استعار رصاصا قبل ان يخبز خبزه . انتزعت ناستيونا خلية . ودون علم ميغيتش . البندقية المخططة بالالبسة من على جدار الصيد . واذا عرف بذلك فالله وحده يعلم بما سيحدث . انها . الآن . لا تريد حتى مجرد التفكير بذلك .

هذه المرة . في الحمام . كان انورى يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه في المرة الاولى . فلم يحاول تخويفها . ولم ينتفض بسبب اي صوت يسمعه . بل جلس صامتا داخلا منحطا . جلس ولم يتمكن من ان يقول شيئا . شعرت ناستيونا باسف شديد عليه حتى كادت تنتحب . وحينما هم بالانصراف كشف لها عن مكنون صدره :

— عندما تجدين فرصة تعالي الى في اندريبلسكويه . فانا في الكوخ السفلي . — ورجاها بصوت مرتجف : — تعالي . يا ناستيونا . انا انتظرك . ولكن بشرط ان لا يراك احد .

قدموا للسلوفي حصانهم الستاز كاركا الذي يستخدمه عادة لسطور نفسه . شدت ناستيونا زمالة رئيس التعاونية الى الحصان ووضعت فيها شيئا من القش الجاف والتفت كاركا نحو منزل نسطور الذي قضى فيه السلوفي ليلته . كانوا قد جلسوا لتناول الفطور . فتوجهت ناستيونا الى منزلها كي تستعد للسفر في الحال ولا تعود الى المنزل مرة اخرى .

في الصباح . عندما استيقظوا من النوم . بهذا وكان ميغيتش قد فرح لتمكن ناستيونا من السفر . فقد نفد الكيروسين في المنزل والحطب ميغيتش خلسة مرتين قليلا منه في قنينة من اسطبل الخيل

الذي يعمل فيه ، وذهبت ناستيونا مرة الى لاوكا حاملة الصباح من اجل ملئه بالكيروسين . ثم ان من اللازم اقتناء الثلاب والملح . وهناك امل بالحصول على الصابون ، ولكنه امل ضعيف . فالناس لم يروا الصابون من زمان بعيد . وصاروا يغسلون بماء الرماد . فى اتامانوفكا لا يتمكن المرء من شراء شيء منذ عام ١٩٢٠ عندما فلت فاسيليفيتش ، وهو احد الاغنياء ، بالبالغة سيما صاحبة الحانوت فى حفرة فى جليد النهر واغرقها . فصار الناس يتوجهون الى كاردا حتى لشراء اتفه الحاجيات .

وما افرح ناستيونا على الخصوص ان ميخيتش قال :

— اذهبى ، يا بنتى ، الى حانوت العيد فربما تجدين باروفا ورصاص رش . فانا لم استخدم بندقيتى من زمان ، ولا بد من الحصول على احتياطى . فقد تخرج غزالة على بستاننا فى الربيع .

احضر من المستودع علبة معدنية للكيروسين وقدم لناستيونا سطله العتيق من فرو الكلاب الشمالية وسألها :

— هل ستعودين اليوم ام لا ؟

— لا ادرى . حالما افرغ من شراء الحاجيات ساعود .

— لا فرق ، اليوم او غدا . — ثم تذكر ياسى :— لو سافرت من صباح امس لما ابتليتنى بهذين الاثنين . هل تتصورين المشكلة ؟ ؟ ؟ لماذا انت صامتة ؟ كان الافضل لو صمت امس ، او تكلمت بنصف لسانك ، لما اليوم فكان يمكنك الكلام . لا ياسى ، اذهبى ، الله معك . وعرجى هناك على المجلس الادارى واستفسرى عن اندرى ، واذهبى ايضا الى البريد . فربما وصلت رسالة او تذكرة .

دمدمت سيميونوفنا مرة اخرى ، والله يعلم اى مرة هى ، من مضجعها على دكة الفرن :

— هل يجوز للمرأة ان تسافر لوحدها مع رجل غريب ، وخشونا فى الوقت الحاضر ؟ — كانت سيميونوفنا تلفظ السين والصاد شينا — يا الهى ، انهن مشتعلات لمعانقة اى كان . فهو لن يركض وراء العربة طوال الطريق ، وشوف يجلس معها فى العربة

فاعترض ميخيتش قائلا :

– كفاية يا عجوز . لا داعي للهذر . ما دمت نالت فابقي نالت . ولا تلتفتي كل ما يخطر ببالك . على من تخاطبين ؟ على ناستيونا ؟

ما اطيب ميخيتش ! لولاه لعانت ناستيونا الامرين في هذه السنين . فان سيميونوفنا مستعدة حتى لربطها كالبهيمة دون ان تسمح لها بترك العمل وشؤون المنزل اطلاقا . ثم هل هناك من تستطيع المرأة ان تتطلع اليه يا ترى اذا كان في القرية كلها رجل واحد لا غير هو نسطور الحداد بالصرع والذي اعفي من الخدمة في الجيش بسبب مرضه ؟ زد على ذلك ان امرأته تلاحقه ليل نهار ساهرة على سلامته» . كان ميخيتش بنفسه ينصح ناستيونا بزيارة الصديقات قائلا : اذهبي ، يا بنتي ، الى النساء وتحدثي معهن واضحكي . فانت شابة ولا داعي لقضاء الوقت بحزن معنا ، مع العجائز .

ما اطيب ميخيتش ! ولكن كل الدلائل تشير الى ان الخلاف سينشب بينها وبينه ايضا . فحالما يبحث عن البندقية ولا يجدها ، وحالما يبحث عن غيرها من الضالعات لن تجد هي ما تجيبه به . ولا يمكن اتهام اللصوص ، فذلك يثير ضجة ويبدأ التحقيق والبحث وتراود البعض تساؤلات : لماذا يسرقون من آل لوسكوف فقط ؟ الا يختبئ اينهم في مكان ما ليسرقه حاجياته لانه يعرف موانعها ؟ لقد منعها انفرى من اي تلميح اليه امام ابيه . فما اشد وطأتها . احست سيميونوفنا قبل ايام بالفضان الرغيف الذي حملته ناستيونا الى انفرى في اللقاء الثاني . فادعت ناستيونا بان نادكا لمستعارته منها . فما الذي سيحدث فيما بعد ؟

ولما كانت ناستيونا باشد الحاجة للسفر الى كاردا . اخذت معها ، في صرة منفصلة ، بلوزا صوفيا منزلي الصنع من اجمل مبادلته بالدقيق . كما اخذت الشال الرصاصي الجميل الثمين الذي اشتراه لها انفرى في العام الاول لزواجهما ، اخذته تحوطا لما اذا كانت ستخفق في الحصول على الدقيق لقاء البلوز . كانت قد حملت لانفرى دلوا من البطاطس ، ولكنها خشيت ان تاخذ له دقيقا ، لان ما بقي منه في الصندوق يكاد لا يكفي للعجين مرتين . وجود الدقيق يسهل على زوجها السيئة حيث سيخبز لنفسه رقائق وبلتات عليها . وستدعي بانها تبادل الالبسة بالدقيق من اجل

ماروسيا التي نزحت اليهم . كانوا قرية كبيرة يمكن للمرء ان يعثر آثاره فيها . ثم ان ناستيونا حصلت على البلوز من ماروسيا حقا على سبيل المبادلة في الشتاء المنصرم . ولما يصعب التفريق بين الحقيقة والكذب . وتعلم قرية كانوا كلها ان ماروسيا لتلف اطفالها طوال الحرب بمبادلة الالبسة لا غير .

غادروا اناماتوفكا في وقت متأخر . حيث ارتفعت الشمس الشفافة عالية . خف الصقيع من زمان بعد اشتداده الى زوابع الثلج . وكان الصباح باردا . ولكن الجو الصحو يميل الى الدفء . وتشير كل الدلائل الى انه سيكون دافئا بالفعل اثناء النهار . انطلق كانوكا من القرية خببا وحافظ على وتيرة عدوه السريع . وراحت العربة الزحافة تنزلق على الدرب الممهد كما على صفحة الجليد . وكان صرير مرح ينبعث من ضلعي قاعدتها المنزلقة . تعالى ضباب ازرق من الحقول الملغمة بالثلوج . ولاحت في الهواء عند الافق خطوط قاتمة مائلة الى البياض . وعلى اشجار البتولا العارية جثمت غربان صامتة وراحت تنظف اجنحتها عادة اياها جانبا كما يفعل الدجاج . كان كل شيء قد تدفأ قليلا وراح يستنشق الهواء بطلاقة ونهم . الربيع جميل جدا . ولكن بوادره بعث واعدة تبعث الامل .

الفت ناستيونا معطف الفرو عند قدمي المخوض وجثت على ركبتيها في مقدمة العربة ووجهها الى الامام . الثلج يتطاير من تحت السنابك على وجهها فامحضت جفونها بعض الشيء دون ان تشيح بوجهها . وكان هذا العدو السريع في مواجهة الريح . وهذا النهار المضمخ بانفاس الربيع والذي بدا غريبا في مثل ذلك الوقت من السنة وكانما اشرق من اجل ناستيونا خصيصا قد اثارا لديها الانفعال وتفاد الصبر والرغبة في القيام بشيء ما خلافا للجميع وحتى لنفسها . فقد آن اوان التغير . ويخيل اليها انها رجعت طوال هذه المدة كدجاجة في قفص . لا تخافي يا ناستيونا . الى الامام يا ناستيونا ! فلرحلتك يجب ان تكون الآن فرحة متميزة . وكآبتك يجب ان تكون بعيدة عن الجميع . لا تجبني . وتلمس وادفن الحصان الى الامام ولا تلتفت .

اخذ المخوض يثقل عليها بكلامه . فراحت تجيبه على مضض . هناك الخلاص كانما لديهم كل ما لدى الرجال . ولكنهم مجرد كتابة من الرجولة . وهذا واحد منهم . انه لا يجيد غير استكناب النساء

على سنغمات الحكومة . وهو عندما يتكلم يلهث ويشرق بكلامه . اما وجهه فكالشرشف المغسول . كلما غسله ازداد ازرقا فيه ورق حتى كادت الثقوب تتراءى فيه من كثرة ما غسله خلال حياته .

انتهت الطقوس واجتازوا الجدول وبدأت على جانبي الطريق غابات الصنوبر العريقة . الهدوء المطبق يخيم على هذا القطاع من الطريق . فلا ريح ولا صوت لغير وقع سنابك الحصان . وفي احيان نادرة يتساقط الثلج من الغصون مثيرا ضبابا كالدخان . وتهتز فجأة فنن الاشجار المدببة المطلة على الطريق . كل شيء هنا ، لا لغير ، تأمات الحياة في هذه الارجاء .

وهنا بالذات ظهرت ، على حين غرة ، بوادر الشجاعة عند ملوفنا . كان جالسا يهدهد طوال الوقت ، وها هو ، فجأة ، يحتضن ناستيونا من ساقيها من الخلف ويدليها على ظهره ويشخر كالخنزير . وفي الحال تسلقت ناستيونا منه بسرعة لم تتوقعها والتقته من الزحافة على الثلج . ارتعب الحصان فانطلق كالريح . ولم تعد ناستيونا الى التخفيف من عدوه ، فليتريض الرفيق الملوض قليلا وليسخن دمه سيرا على الاقدام . ظلت تعاني من الوحدة ثلاثة اعوام ونصف كخشبة يابسة ، ولكنها لن تقبل بمثل هذا «الرجل» ابدا . فلديها الآن زوج لا مجال للمقارنة بينه وبين هذا . وسوف يطلق ساقيها على اي حال .

ركض الملوض لاهثا دون ان يدرك شيئا ، ولحق بالزحافة . كان يتصور ان وظيفة ناستيونا نوع من المزاح فتعرش بها من جديد . وتعين عليها ان تطعمه في مكانه . رمشت عيونه ولزم الصمت . وبعد زهاء نصف ساعة تحول تحولا فجائيا وراح يتباهى بزوجته ويتحدث عن اطفاله . هذا روع ناستيونا — حبذا لو تصرف على هذا النحو منذ البداية — واستحث الحصان .

وصلوا الى كاردا قبل الطبيب ، ومن حسن الحظ ان الحانوت كان لا يزال مفتح الابواب ، وحالف الحظ ناستيونا هنا ايضا ، فقد وجدت فيه الكيروسين والبارود ، وهما الشيء الرئيسي الذي يمكنها ان تتحبج به لعام ميخيتش ولبرر تأخرها . فستقول لحميها : ان الكيروسين لم يكن موجودا في اليوم الاول فانتظرت حتى جلبوه . وليس بالامكان الاعتراض على هذا السبب . لم تحصل ناستيونا ،

بالطبع . على الصابون . ولكنها اشترت كتابا وملحا . وتطلعت الى موجودات الحانوت فرات شموعا واشترت خمسا منها . لا احد يدرى من اين جاءت هذه الشموع ؟ من اية كنيسة ؟ فلم تكن ناستيونا تتذكر مطلقا ان حانوت القرية عرض للبيع شموعا فى يوم ما . وها هى الشموع تنتظر حزينة عتيقة ملتوية وسوداء . تنتظر وكانما عرضت بناء على طلب ناستيونا . ستترك ثلاثا فى البيت . وستحمل شمعتين الى اندرى . وسيكون لديه ما ينير عنه الانتظار . وسيفرحه ذلك على اى حال .

صدق من قال : داول الليت تطر ثم ينهمر . فقد حالف الحظ ناستيونا فى مبادلة البلوز بسهولة فى الساء بثمانية كيلوغرامات من الدقيق . ولم تستدع الحاجة حتى عرض الشال . سرت ناستيونا لذلك حتى نوت العودة والليل على الابواب . غير انها عدلت عن السفر والحمد لله . ظلت ليلتها متململة وهى تسمع من وراء الجدار كيف يتضم كاركا العشب الجاف وكيف ينتفض ويراوح بذوائبه تخلصا من الصقيع . ونامت بعض الوقت دون ان يراودها النوم ثم نهضت بهدوء . وشدت الحصان الى الزحافة خلية عن صاحبة البيت . وهى زوجة جندى تعرفها وتوافقت عندها للمبيت . ووضعت فى الزحافة عشبا للحصان يكفيه ليوم كامل . وغادرت المكان فلم ينبح فى اثرها كلب ولم يصدر صوت عن القرية الساكنة الغاطة فى النوم .

فيما وراء المنازل الاخيرة استدارت ناستيونا بالحصان الى اليمين . نحو انغارا . توقف كاركا فى حيرة . فالطريق باتجاه المنزل يستمر الى امام . فطمأنت ناستيونا وضربت ظهره بالعنان . وكما هو حالها بالامس استولى عليها نفاد الصبر فصارت ترتعش كمن اتاته حمى شديدة . وكادت تقفز من الزحافة لتسبق الحصان فى عدوه . اسرع . اسرع ! ناستيونا تعرف بانه لا يجوز استعجال الحصان غير النهر . ليمكن ان يكبو فى شارع الجليد فتتحمل فاتورة له . ومع ذلك استعجلته . انها تريد اجتياز قرية ريبنايا قبل انبلاج الفجر كيلا يراها احد . وكان قلبها يتقافز بين الضلوع فراحت هى تقافز ايضا استجابة له وتلفت وتدور على قرون الكلاب الشيلة المغروسة عند مدخلها . وهى تلوح بالعنان وتصرخ بكلمات

سليمة غير ملهومة . اسرع ، اسرع . . . فليسرع كل شيء ، ما هو موجود وما هو آت !

ولم تخلف من عدو الحصان وترخى العنان الا بعد ان اجتازت رينايا . ولم يبق الا القليل . فتلاشت الحمى دفعة واحدة ، واحتوى فؤادها الفراغ . شعرت بطعم المرارة في اعماق الصدر وكانما استنشقت دخانا . ولم تكن ناستيونا تعرف السبب .

ادركت من شحوب الليل ان الفجر سيبزغ قريبا .

الزحافة تسير وناستيونا تفكر : ها قد تعلمت ، يا ناستيونا ، الكذب . . . والسرقة . وما ذلك الا البداية . فماذا سيحدث لك ، يا ناستيونا ، فيما بعد ؟ بيد انها ، رغم ذلك ، لم تشعر بالذنب ، ولم تعترف به ، وكلما ارادته هو ان تتطلع قليلا الى الامام كي ترى ما سينتهي اليه ذلك كله .

كان الفجر قد انبلج عندما اوقفت الحصان والتادته بالرسن على الجليد الى المنخفض المكشوف من جهة الشاطئ .

٦

– مرحبا . لقد جئت – قالت ناستيونا واطرقت تفرها عن ابتسامة حلوة .

فاجأته على حين غرة . اذ انه لم يسمع كيف وصلت وكيف ربطت الحصان بسرعة الى عريش الزحافة وتركته عند الجدول واقتربت من الكوخ بهدوء . كان نائما وقد غطى راسه بمطرف الفرو القصير . وعندما شرعت ناستيونا بفتح الباب انطلع من التخت الواطئ الذي كان نائما عليه وكان موجة انفجار قد قذفته ، ووقف على قدميه بالكاد . ها هو الآن يقف امام ناستيونا منتفخ الشعر كالمتوه . غير مصدق بانها هي بالذات . واستولى عليه شعور بالياس مؤسف لانه اوتعب الى هذه الدرجة لمقدمها .

تطلعت فيه ناستيونا بطلة اخيرا : نفس تلك القامة العريضة والمائلة بعض الشيء الى اليسين . ونفس الوجه الواسع المتطلع كوجوه الاسيويين وقد غطته لحية كثة سوداء مجعدة . كانت عيناه

الصبيتان تنظران اليها بتحد وتشبث . وعلى الرقبة راح تتوهج حنجرته البارز يتحرك متململا كالسكوك . اصابه الهزال الشديد فبدا فارع القامة . ولكنه غير منسجق . اذ انه لا يزال محافظا على قسوة ومتانته . وكانه ناهض مشدود يكاد ينفجر لاية لمسة . انه شخص عزيز على ناستيونا تعرفه جيدا وتوده . ولكنه مع ذلك انسان غريب ،مجهول . ليس ذلك الذي كانت تعرف ما تقوله له وتسأله عنه وتودعه قبل ثلاثة اعوام ونصف . بادرته قائلة من جديد وقد علت وجهها ابتسامة الاعتذار :

– جئت لارى كيف تعيش هنا . لا تفكر بسوء . فلم يرني احد . وصلت اليوم من كاردا عندما كنت نائما . احضرت لك بعض الاشياء ربما تحتاجها في اليوم الاسود .

– كل ايامي سوداء الآن – كانت تلك هي الكلمات الاولى التي نطق بها .

كان يرتدي بنطالا قطنيا مضربا وجوارب صوفية . لاحظت ناستيونا الآن فقط آثار التجمد على احدى وجنتيه ، فمسحتها بقبضة قائمة . استعاد وضعه الطبيعي بالتدريج . ارتدى جزمة اللباد وشرع يتمخين الفرن . همت ناستيونا بالتوجه نحو الباب ولكنه اوقفها :

– الى اين انت ؟

– يجب ان احمل حاجياتي الى هنا . فما الداعي لبقائها في الصقيع ؟

– انتظري ، سنذهب معا .

تركا على الزحافة علبة الكيروسين فقط وتقلا كل ما تبقى الى الكوخ الدافئ . ثم اقتادا الحصان الى اعالي الجبل وراء المنعطف . وخلعا عدته وسمحا له بتناول العشب اليابس . فعلا كل ذلك صامتين كالغرباء ، مكتفيين بالكلمات الاكثر لزوما من قبيل هذه وهاتي المنشفة . لم تكن ناستيونا تعرف بعد من اي باب تدخل عالمه وماذا تقول له . اما هو فكان غاضبا لانه لا يزال عاجزا عن تذليل ارتباكه او ربما لم يكن يتجرأ في الحال على نبذ الاواصر التي كانت تربط بينهما ، وليس مسموحا على بالي لها اثر الم لا خلال هذه السنين .

اثناء الوقت الذى صرفاه فى تدبير امور الحصان تدفا الكوخ فتعين على ناستيونا ان تخلع البستها الدافئة . جلست لحظة على التخت المفروش بالقش الثوب . ثم نهضت فى الحال . فلا بد من القيام بشىء . ولا بد من تهدئة نفسها وتهدئته . والبحث حتى عن اتفه الاسباب لاستعادة الوشائج التى تربط بينهما . اقتربت من الباب حيث كومة حاجياتها واخرجت من الخرجة كيس الدقيق الابيض وقالت متباهية :

– اشتريت طحينا لك من كاردا . وسوف تخبز لنفسك خبزا .

اجاب بايماءة سريعة من راسه . فقالت ناستيونا بغيظ :

– لماذا تستقبلنى بهذا البرود ولا تتحدث معى ؟ فى حين جئتك باسرع ما استطيع فى الليل وكنت اعتقد بانك ستفرح لمجيئى . وربما من الافضل ان اعود .

– لن اسمح لك .

ادركت ناستيونا من لهجته الصارمة وصراحته الفاضبة انه لن يسمح لها بالانصراف اطلاقا . اقتربت منه ولمست راسه بيدها الخائرة المدودة المتحسسة كايدى الصبيان .

التفت اليها بوجهه الشاحب وقال :

– هل تعتقدين بانى لست مسرورا لمجيئك ؟ اننى مسرور جدا ، يا ناستيونا . ولكن اى سرور هو سرورى ؟ فانا لا اعرف اذا كان لازما لك ام لا ، ولا اعرف ما اذا كان ينبغى اظهاره ام لا .

غرزت ناستيونا راسها فى صدره :

– يا الهى ! ماذا تقول ؟ اننى لست غريبة عليك . عشنا معا اربعة اعوام . ام انك تعتقد بان ذلك قليل ؟

امسك بيديها لحظة ثم افلتهما دون ان يجيب . غير انها احست بان الغضب يفارقه وانه يضاع لها . ها هو راسه المتعب يميل جانبا فيستقر على الكتف . وتلك امارة صادقة لا يعرفها احد غيرهما ، وهى الدليل على ذوبان الجليد . كانت ناستيونا فى السابق تعرف مزاجه من تلك الامارة . فاذا مال راسه على الكتف برسمك ان تتحدثى ما تشائين وان تضحكى وتمرحى . فهو يتسامح فى كل شىء فيؤيدك ويستمر فى المرح طويلا ولا يستثار الا على مضض .

اجل . لقد بلى فيه شيء من اندرى الذى تعرفه سابقا . لولست على شفتيها ابتسامة مترسمة مبتورة لتنظر الاستاذ والعاملة بالمنزل وقالت :

– اراك للمرة الاولى اليوم فقط . فما اغربك بهذه اللحية .

– لماذا ؟

– انك تشبه . . . – ضحكت وبترت ضحكتها كما بترت ابتسامتها قبل قليل – تشبه شيطان الماء . فلى الحمام لم افهم هل انت الذى كنت معى ام الشيطان . وفكرت باني صنعت نفسى وشرفى من اجل زوجى ، وها انا ارتبط بالشيطان الرجيم .

– وكيف وجدت الشيطان الرجيم ؟

– لا باس به . لكن زوجى افضل .

– انت داهية . لم تغيظنى احدا . احضرى لى فى المرة القادمة موسى وساحلق هذه اللحية الشمطاء .

– لماذا ؟

– كيلا اشبه شيطان الماء – قال ذلك واستدرك فى الحال : – كلا . لن احلق لحيتى . فلتظل صلة كيلا اشبه نفسى . فالافضل ان اكون شبيها بالشيطان .

اتجهت ناستيونا الى نفسها فقالت مرتبكة :

– يا الهى ! كيف نسيت ان اطعم زوجى ؟ فهل جننت من اجل الترترة ؟ – لقد نسيت فى ارتباكها ذلك انهما لم يكلما بعضهما البعض فى الواقع – ما الغريب المراة ! ذلك ما يعنيه انه لم يضربنى احد من زمان .

تطلع اليها باهتمام وسال ساخرا :

– تقولين انه لم يضربك احد ؟

– نعم .

– هل تحنين الى الضرب ؟

– كلا . ولكن لم يكن هناك من يصغى دماغى . طيب . اجلس . انتظر لحظة .

– يجب غسل الشاى على الاقل – تذكر اخيرا .

– اغسل ، لماذا تقف جامدا ؟ الا يوجد عندك ماء ؟

اعجبها ان تحس ولو لاحد تصير بالها وربة بيت وانها تستطيع

ان تامر وتنهى . فذلك شىء لم يحدث سابقا الا فيما ندر . وليس معروفا اذا كان سيحدث فى المستقبل ام لا . حملته على القاء المزيد من الحطب فى النار وعلى الذهاب الى الجدول لاحضار الماء . ثم فتحت صرتها على مرأى منه واخرجت رغيفا من الجودار وقطعة كبيرة من الشحم . احتفظت سيميونوفنا بهذا الشحم منذ التعريف لاجله هو . لاجل اندرى ، عندما كانوا ينتظرونه فى الاجازة . الاجازة اخلفت ، ولكنهم ، بسبب من التقاليد والوساوس القديمة ، لم يبدوا الاطعمة التى اعدت لذلك اللقاء . لان الناس بها قد يفسد اللقاء الذى ظل مرتقبا . وقبل زهاء شهر عثرت ناستيونا بالصدفة على الشحم مدفونا بقطعة لباس فى الركن الابعد على رف المستودع . وبالامس اخذت نصف ذلك الشحم . فهو يذهب الذى اختزنوه من اجله . وربما تنتصب فى ركن ما من المستودع قنينة من العرق المنزلى غطاها الغبار . انها تنتظر عودة اندرى الى دار ابيه . تنتظر الساعة التى يرفعون فيها نخب صحته .

قبل الحرب شاهدت ناستيونا ذات مرة فلما سينمائيا (ذات تلك الاعجوبة ثلاث مرات لا غير) . وفى الفلم امرأة من سكان المدن لا تعرف كيف ترضى زوجها الذى تهيم فى غرامه . فراحت تطعمه بيدها كطفل صغير . تذكرت ناستيونا ذلك الآن فحسب فجأة . وبدافع غريب عليها . ان تطعم اندرى الشحم بيدها . ولكنه لم يسع لها بذلك . شعرت بالحرج وبالفرح فى آن واحد . وكانتا تجاوزت حاجز الخفر والحياء وصار يوسعها ان تواصل السير . تعين عليها اختيار الشاى من اناء واحد هو غطاء الزمزمية الذى يسلمه احدهما للآخر . وشعرت ناستيونا بالانفعال ايضا لانها تناولت غطاء الزمزمية من يد اندرى وسلمته له من جديد .

قبل . كل شىء هنا يثير انفعال ناستيونا ويخيفها فى الوقت ذاته : الكوخ المهجور الخالى من انفاس الحياة . والاغتراب غير المتجورة والمرصولة كيفما اتفق بمتانة ارضية . والفضاء الفسيح الذى انحنى تحت ثقل السقف . والجدران المتفحمة البنية من جذوع متشققة غير مستوية والمحطاة بجيوب الضاكب . والفضاء الناصع الضاج فى ضوء الشمس والذى انبسط دون ان تمسه قدم ولاح من وراء النافذة كما هائل ينحدر من الهضبة . واندرى الذى

تعرفت على ملامحه في ضوء النهار ولكنه لم يعد أكثر وضوحا والل ابهاما بنتيجة ذلك . وهي ، ناستيونا ، التي لا تدري كيف ولماذا وجدت نفسها في هذا الركن المهجور النائي . كانت تغوص في دخيلتها للحظة فتنعش كل النعشة لرؤية اندري لعامها . وعند ذلك تهمل جهدا كبيرا كي تتذكر السبب في وجوده هنا بالليل . وبعد ان تتذكر السبب يعود كل شيء الى نصابه . الى ما هو عليه ، ولكن باهتزاز وترجرج ، الامر الذي يستدعي دوما دعم ذلك الوضـــع كيلا يهوي ويتداعى ، كيلا يضيع ويتلاشى من جديد . فلقد بدا كل شيء من نسج الخيال ، بعيدا عن الحقيقة ، او مما يرى في المنام .

ناستيونا تنتقل من موقف الى آخر ، وكأنها تلعب مع نفسها . معصوبة العينين ، لعبة : هاين انت ؟ انا هنا . في البداية كانت واثقة من ان كل شيء سيكون على ما يرام بمر الزمن ، ولا يحتاج ذلك الا الى الصبر والانتظار . اما الآن فهي تتصور ما حدث وقد تحول الى هوة سحيقة لا قرار لها ، حتى ان الرعب اخذ يخنقها . بيد انها لم تكشف عن رعبها ، بل تظاهرت بالمرح . ما يخيفـــه الغد ليس مجهولا ، اما اليوم فهو يومها ويوسعها ان تأخذ حصتها مقابل كل تلك السنين ، وتطلق العنان لكل ما في دخيلتها وتمنح نفسها فرصة للراحة .

لم تأكل الا القليل ، كيلا ينقلص ما جلبته لاندري ، واسترخى بدنها بسبب الدفء فتثاءبت ، ثم قالت بصوت مناسبة :

– والداك يعتقدان بأني في كاردا ، بينما انا عندك . فما اعظم دهشتهما لو عرفا !

لم يجبها اندري بشيء .

فرشت الفروة على التخت وخلعت جزمتها اللباد ورقدت ناشرة ذراعيها . تطلع اليها اندري عبر المائدة ، فاغلقت عينيها تحرشا به وسكتت كما لو راودها النعاس . وحالما بدا يقترب منها قفزت بسرعة وجثت على ركبتيها واشرأبت بعنقها وقالت متمتمة على عجل كما تفعل البنات :

– ابتعد ، لا تزعجني ، انا لا اعرفك .

– ماذا تقولين ؟

– ابتعد ، لا تزعجني ، انا لا اعرفك .

- يا للعجب !

دخل اللعبة . فالتفت اليها . ولكنها تملصت منه . وتشبثت بمداعبة كانتي حدثت منذ زمان بعيد . في العام الاول لحياتهما الزوجية . وما كان اسعده ما فعلاه . فقد اثارا آنذاك عاصفة حقيقية من الغبار . ولم تكن ناستيونا من المستضعفات ولم تستسلم بسهولة . وفي بعض الاحيان كان يتعذب عرقا قبل ان يتمكن من حملها على اعلان التوبة . ولكنها الآن لم تكن راغبة في اختبار قوته . فخطفت يديها . وفهم هو تلك الاشارة على طريقته الخاصة فاضطرب وانفعل واستعجل كصبي صغير . وعند ذاك قالت له بحذر كيلا تثير غيظه :

- على مهلك يا اندري . لا داعي للعجلة . فان حبي . كالحصان الهزيل . عاش امدا طويلا بلا علف . فلا تثقل عليه . ولا ترهقه .

اطاعها لاول مرة في حياته وعاملها برقة وحنان كما لم يعاملها ابدا طوال الفترة التي عرفته فيها . وراح يتكيف لاحوالها ويستشف كل رغبة من رغباتها .

هدأت ناستيونا واسترخت فراودها شعور غريب غير مريح اذ تصورت نفسها ليس مع زوجها بل مع رجل غريب ليس لها حق فيه . بيد ان هذا الشعور سرعان ما تلاشى . وداعب النعاس جفونها فغفا خيل اليها للحظة انها تمكنت باعجوبة من ان تتطلع الى نفسها في المستقبل البعيد عن ذاك النهار . فرات اوضاعا تختلف عما هي فيه الآن . ولكنها هناك ايضا ليست وحيدة . مع ان ذاكرتها لم تحتفظ بصورته لسبب ما . وهي لا تدري ما اذا كان ذلك الشخص هو اندري ام لا . وربما كان اندري . فهي لا تفكر باحد غيره .

ارادت ان تقول له شيئا . اي شيء طيب صادر عنها هي . ولكنها لم تجد ما تهدأ به . فسألته :

- ارني جرحك . . .

فتح ازرار قميصه وعرض عليها آثار جرح مائلة الى الحمرة على صدره . فلمستها ناستيونا بحذر وقالت برقة :

- آه يا صغيري . . . ارادوا ان يقتلوك . . . هل التأم الجرح نهائيا ؟ الا يؤلمك ؟

- حاليا اقل . غير انه يؤلمني قليلا . وخصوصا في

الطلس السيء . فكان شيئا يزعجني طوال الوقت ويثقل صدري . انني لم اتعود عليه بعد .

قبل ساعة لا اكثر ما كان بوسعها ان تفهم كيف ولماذا وجدت نفسها هنا . اما الآن فهي تتصور بانها لا تعرف اي شيء غير هذه الجدران وانها كانت موجودة بينها على الدوام . وكل ما تستطيع تذكره من حياة اخرى غير حياتها هنا لاح لها بخطوط من بعيد عن شكل ملتطقات مشوشة من احلام حائرة . فهل صحيح انه يوجد هناك ، في مكان ما ، اناس آخرون وحرب وموت ونكبات ؟ فمتى حدث ذلك ؟ وهل حدث حقا في زمان ما ؟ اما هواء الكوخ حار الخانق ، وراح السكون الطبق الخفي يهدهدها ويحميها من كل الهموم والمشاغل ، ويسكرها بكيانه الحر وبوحدته الطليقة . استقر البدن الهادئ في حلاوة السكون ورقد صامتا ساهيا دون ان تبدر منه اية رغبة تشير الى وجوده . وسألته بصوت خفيف رخيم :

— الن تزعل علي اذا غفوت قليلا ؟

— نامي ، نامي .

رفع رأسه واسنده الى كوعه كي يراها جيدا ، اما هي فقد غطت في نوم عميق . ارتفى محياها المستدير المتورد من لفح الزمهرير وانارته ابتسامة طفيفة في المنام . وقد اختفى قليلا خلال هذه السنوات ، وانتفت منه نهائيا . وقد بدأت تختفي قبل ان يلتحق بالجبهة ، امارات التطلع القوائل ودهشة البنات التي كانت تلازم محياها دوما : اوى ، ما افتح ذلك ! وماذا حدث بعد ؟ ! وسرعان ما انتهت الحكاية المدهشة وكشفت كل الاسرار . واذا ظل هناك شيء ما مدهش لها ، فما هو الا بقية بدت وكأنها تلتصق بالركب من الماضي ، من ذلك الذي نسي في الطريق بسبب الاستعجال .

وضعت تاستيونا يديها على صدرها عند ازرار البلوز المفتوحة . وراحت اليدان ترتفعان وتنخفضان مع الصدر ، وتكاد الاصابع تتحرك . لاحظ اندري ان يديها تخشوشنتا وتقلتا ايضا بسبب العمل . وكان ينبعث من تنفسها العميق الهادئ عطر طازج دافئ ولذيذ .

الترب من ناستيونا والتصق بها لحاتها بحذر . وسمع دقات قلبها . كان يقل عن كثب ويستنشق الوضوح . وكل دقة من نبضه تحمل لاندرى قلقا غامضا مبهما . ويزداد هذا القلق باطراد . ويزداد اضطرابه لانه لا يعرف سبب هذا القلق ولا عواقبه . لم يعد قادرا على مواصلة الرقاد فنهض وتراك الثلج يهدوء وتطلع خلسة ، من وراء الظهر ، الى ناستيونا النائمة . وهمس لسبب غير معلوم : «نامي ، نامي» . ولكن كل ما كان يريده هو ان تصحو من النوم . فلم يعد يطيق البقاء الى جانبها دون ان يتمكن من سماع صوتها وينصت الى كل ما يمكنها ان تقول وتفعل . فقد تجد لزاده وخلا بسرعة ، وانكمش وصار يتململ الى الحركة والقلق .

خرج الى العراء وكاد يغمض عينيه . فالضوء الساطع لطخهما بشدة غير متوقعة . وخيل اليه ان الشمس الطلة على الجبل آنذاك انزلقت منه الى هنا . وانتفض الثلج وتطاير شررا ، وامتلأت الظلال القليلة بزرقة رقيقة . كان الثلج مفعما برائحة الربيع . ومن طرف سطح الكوخ تدلى اصبع جليدى نحيف راح يمتلئ رويدا رويدا . وفى الاماكن المكشوفة القليلة الثلج اخترأيت اعناق الشجيرات النسالية .

تنشق اندرى الهواء بملء رئتيه وكانه يبتلعه بنهم وتوجه لارواء الحصان . ثم هبط الى نهر انغارا كى يرى ما اذا كان هناك غريب . ولكن القلق ظل ملازما له . وخيل اليه انه الآن ، فى هذه اللحظات ، يضيع بسبب من حماقته شيئا هاما للغاية وضروريا له اشد الضرورة ، شيئا لن يعثر عليه ابدا بعد .

عاد الى الكوخ ، وكانت ناستيونا لا تزال نائمة . فلم يعرف ماذا يفعل ، والتجأ اليها من جديد ولامس صدرها براسه حتى كاد يختنق من الترابه الشديد منها فابتعد قليلا . تلمست ناستيونا الناعسة راسه وسمعت شعره فاحس بالارتياح للمستها تلك . اطلق عينيه متحسسا يد الانقاذ ، يد ناستيونا ، على كتفه . وتصور كيف راح يدور ببطء فى فراغ رقيق رحب — وتصوره هنا يساعده دوما على النوم — وسرعان ما غط فى النوم غطا .

استيقظا فى وقت واحد . فتحت ناستيونا عينيها ونظرت اليه . فانتبه هو منتفضا . وابتسمت ناستيونا له .

انتقلت حزمة الاشعة الشمسية من النافذة الى جهة الباب بعيدا . لقد مال النهار نحو الغروب . وقالت ناستيونا :

– نمت نوما لذيذا . ولا اتذكر متى نمت هكذا في وضح النهار . كل ذلك لانك معي . اتطلع اليك واشعر بصدقة بانك انت هنا . اما في النوم فقد صدقت . كما ترى ، وذهبت حتى آخر قطرة . كان كل شيء عاديا ، عاديا جدا . . .

خيل اليهما بعد النوم ، وكانهما يلتقيان من جديد ، فراحا يتطلعان الى بعضهما البعض بدهشة وتوقع . وهمت ناستيونا بالنهوض ، لكنه امسك بها ، فضحكت مسرورة لذلك .

كان يزعجان الدخول في صلب الموضوع مع انهما يدركان بانه لا مهرب لهما من الخوض فيه .

٧

– لو تمكنت من العودة الى هناك ليلتين دون رجعة . هذا شيء لا جدال فيه . فكم تحملت ، وكم قاتلت دون ان اختبئ او اتحايل . ولكن شيئا حدث لي فقلب كل ما في داخلي وبلبل ذهني . ذلك لا يجري عبثا ولا صدفة . ولكن ما فائدة الكلام الآن . حدث ما حدث . وفات الاوان .

اضطجع بعينين مغمضتين . فتلك وضعية يسهل الكلام فيها . وتكلم بغضب متغير هائج كما يتغير الانسان الذي لا يجد من يسلط عليه غضبه . فقالت ناستيونا بصوت ملهم بالالم :

– كيف تجرات على ذلك ؟ ليس هذا شيئا بسيطا ، فكيف عزمت عليه ؟

– لا ادري – اجابها بعد لحظة ، واصمت ناستيونا بانه لا يتظاهر ولا يكذب – لم اعد احتمل ، واختنقت انفاسي . اردت ان اراكم مهما كلف الامر . ولو كنت في الجبهة لما هربت طبعا . اما في المستشفى فقد خيل الي ان المسافة ليست بعيدة . ولكنها بعيدة ، صار القطار طويلا . . . ولو توجهت الى الوحدة لكانت المسافة اقرب . فانا لم اكن اخشى العرب . ولكني فكرت بعد ذلك

الى اين يجب ان اعود ؟ الى الموت ؟ الافضل ان اموت هنا . مـا فائدة الكلام الآن ! الغزير لا بد وان يعثر على الوحل . كما يقال .

– ستنتهي الحرب . وربما سيسامحونك – قالت ناستيونا غير واثقة .

– كلا . هذا شيء لا يسامح الانسان عليه . فهو ، لو ان ذلك بالامكان ، يستحق الاعدام رميا بالرصاص ، ثم يجبر على النهوض من جديد ، ويعدم رميا بالرصاص ثلاث مرات اخرى ، حتى يكون عبرة لمن يعتبر . مصيري معروف . ولا داعي لبذل الجهود من اجل تغييره . عندما توجهت نحوكم كنت افكر بانني ساتي اليكم ، وساتطلع الى ناستيونا واطلب العفو منها لاني حطمت حياتها وآلمتها واهنتها دون مبرر ، في حين كان يجب ان اعيش كما يرام . حقا ، لماذا لم نعش كما يرام ؟ شاب وشابة قرويان يلائمان بعضهما البعض في كل شيء . ولا يعوزهما الا فرحة الحياة . فما الذي منعهما من التمتع بتلك الفرحة ؟ انه الغطرسة ورغبة التسلط . فيا للحماقة ! كنت ادرك ان ذلك حماقة ، فلست غبيا كل الغباء ، ولدي قليل من الوعي ، ولكني لم استطع ان اتمالك نفسي . كنا نظن بان الحياة طويلة والوقت يكفي لنعيش ونحب بعضنا البعض فيما بعد . وها هي النتيجة . كنت افكر بان اجيء واقف امام ناستيونا واعتذر منها كيلا اظل وحشا كاسرا في ذاكرتها والقي نظرة على ابي وامي من بعيد ، ثم ادفن نفسي في الثلج . والباقي تقوم به الوحوش فتنظف الثلج من بقاياي . وانا لم آمل اطلاقا ولم اتجرأ على ان اكون ممتنا على هذا النحو . فما الذي جعلني استحق ذلك ؟ يجب علي ان اعيدك لقاء ذلك وحتم لو طالت حياتي .

– لا داعي لهذا الكلام – قالت ناستيونا ، ولكنه قاطعها :

– تمهل . ما دمت قد بدأت فلاكمل كلامي ، وربما لن اتمكن فيما بعد . لست الآن بحاجة الى ان احتفظ بذلك ، فهو لن ينفعني . فانا الآن اقول ما عندي . نعم ، وصلت لمدة قصيرة . هكذا كانت الصور . وصلت من اجل ان تسامحيني وتردعيني لا اكثر . اما الآن فانا اريد البقاء حتى الصيف . اريد ان ارى اي صيف سيكون . لذلك رغبة شديدة لا استطيع التخلص منها اطلاقا . ثم انك انت

منحتيني الحلم . فما اعظم فرحتي – وشرق بالما ريقه فلزم الصمت قليلا – انني لا اريد منك الكثير يا ناستيونا . فقد فعلت لي الكثير . فاصبري شهورا اخرى . والتزمي بالحذر . وساختفي حالما يحين الوقت . فاصبري . تحملت مني الكثير فتحمل هذا ايضا .

فكرت ناستيونا بان من اللازم ان تفتاظ وتزعل . ولكنها لم تكن واثقة في الكلام . والكلمات لم تنفصل من الصبر المشترك الذي نال عليها وعنها من العراك . فلزمت الصمت . وانتظر هو قليلا ثم واصل كلامه :

– لن تتمكن بعد الآن من العيش امام الناس . ولا ليوم واحد . فتعالي الي عندما تريدين وعندما تشعرين بالضيق علي . فما انا فسابتعد من اجل ان تاتي الي . لا يجوز ان يراني الآخرون حتى في ساعة موتي . وذلك ما ساحتفظه من كل بد . فانا لا اريد ان اجلب العار عليك وعلى ابي واسي فيما بعد . ولا اريد للناس ان يحزروا كيف اختفيت ولا ان ينشروا آثاري . لا اريد لهم ان يبتدعوا الاساطير ويشيعوا الاقاويل عني . لا اريد . – نهض قليلا . ثم جلس على التخت . وشحب وجهه وامتد عنقه وقال : – وانت . هل تسمعين يا ناستيونا ؟ وانت لن تفشي سري لاحد ولن تقولي باني جئت الى هنا ابدا لا الآن ولا فيما بعد ولا في اي وقت ابدا . والا فسالوم من بين الامرات والطع لسانك .

– ماذا بك يا انوري ؟ ماذا ؟ ! – ارتعبت ناستيونا ونهضت هي الاخرى وجلست قربه حتى تلامس كوعاهما وسمعت انفاسه الثقيلة المتعوبة كما في الفراغ .

– انني لا اخونك . فهل يحق لي ان اخونك يا ناستيونا ؟ انت تافذني على العالم . ولكن تذكري . تذكري دوما . حيا ساكون ام ميتا . ما الذي يسيئني وما الذي لا يسيئني . وفيما بعد . عندما ينتهي كل شيء . ستدوبين حيالك . وستحتقينها . فلديك وقت كاف . وربما ستكون لحوالك جيدة الى درجة ترغبين فيها . من اجل سعادتك . لن تخطئي مرة حتى النهاية وتقولي كل ما في فؤادك . فلا تتعرضي للوضوح . انت الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقة

ادرى . اما الباقون فليفكروا كما يحلـــو لهم . ولن نساعدهم في معرفة الحقيقة .

– ما الذى جعلنى ، يا ادرى ، استحق ان تتكلم معى على هذه الصورة ؟ – سألته ناستيونا . لقد تحيرت ولا ادرى ماذا اقول . اما هذا الـــزال النـــورى الصرف الذى ينطوى على الرجاء اكثر مما على الحيطة فقد انطلق من صدرها طويلا ورنت فيه نامة التشكى . بيد ان ادرى ، على ما يبدو ، ارتاح له ليهدئ نفســه نهائيا فى ظـل السكتة التى نبعت من الـــزال .

– لست مذنبة فى شىء . لا تزعل ، لا داعى لذلك . فانا اعرف انك ستتهمين ، ستتهمين كل شىء كما هو . ولو كنت فى حالـــة اخرى لما قلت مثل هذا الكلام ، ولكننى مضطر الآن . فانا نفسى لا ادرك ماذا افعل ولماذا افعل . ويخيل الى اننى لســت انا التى اعيش ، بل ان شخصا غريبا تقمص بدنى وراح يوجهنى . فاذا اردت التوجه الى اليمين فادنى الى الشمال ! ولكن لا بأس ، لم يبق للنهاية الا القليل .

– انك تتحدث طوال الوقت بلهجة مخيفة . . .

– لا تخافى . اننى لا اخيفك ، بل اخيف نفسى . والحقيقة انه لا داعى لاخافة نفسى . فلن يحصل الفظ مما حصل . لقد كشفـــت لعينك عن بعض الضعف ، ولكننى قلت كل ما يجب ان اقول ، وحذرتك من كل ما يجب تحذيرك منه . واصبحت الامور اهون على . فبامكانك ان تتكلمى الآن .

– عم اتكلم ؟ . .

– كيف حال لمى ؟ هل تتمكن من السير ؟

– فى السنة الاخيرة لازمت سريرها على دكة الفرن . ولا تنزل منه الا لتناول الطعام . ولا تســمح لى باعداد العجين . فهى تعـده بنفسها . ولن اتعلم ابدا . على ما يبدو ، خبز الرغيف .

– الا يزال والدى يعمل فى الاسطبل ؟

– بلى . ولولاه لهلكت جميع الخيول من زمان . فهو الوحيد الذى يسهر عليها . ولقد اصابه الضعف هو ايضا . يتعب بسرعة ويلهث كثيرا . ثم انى ازعجته جدا امس الاول .

– كيف ؟

– جرى الاكتتاب على السندات . فسجلت دون تفكير : الفين . وهبت الاميرة ما لا تملك . اما هو فقد صمته الخبر ، وفرح بالطبع ، وامتدحني !

نفت عن ناستيونا لهلهة مبتورة ، فتطلعت الى اندرى بنظرة امتنان .

– لا تتركي المجوزين الآن – قال واحلولك وجهه من جديد وغرق في تأملاته . ثم اضاف : – ربما لن تعيشي والدتي طويلا . اليس كذلك ؟ ينبغي ان انتهز الفرصة لرؤيتها .

– ولكن ماذا بعد ، يا اندرى ؟ – سألت ناستيونا بتهيب ، وقد تجمد لؤلؤها لسؤالها – فهما ينتظران وياملان اليوم قبل غد بان تكتب لهما وتخبرهما : اين انت . ولذا انتهت الحرب فيم سيفكران ؟ كل املهما هو انت .

– املهما ، املهما . . . – قال وراح يجوب الكوخ جيئة وذهابا – لا امل لهما . اطلاقا . لقد حدثتك عن ذلك الآن . اما بخصوص مكان وجودي فاقول لك ما يلي : تم ضمنا في الستشمي ضابط برتبة كابتن . وبعد انتهاء العلاج سلموه الوثائق اللازمة وبعثوه ، مثلي ، الى الوحدة . وفي اليوم التالي عثر على تلك الوثائق في صندوق البريد . ولا اثر للضابط . اين هو ؟ الله يعلم . فاما انه قتل طمعا في بزته وتذكرته ولوازمه . واما انه محا آثاره بنفسه . كان يا ما كان . فمن السؤول ؟ ليس ذلك الضابط الا شخص من آلاف لا يمكن العثور على اثر لهم . بعضهم في الجو وبعضهم على الارض . وبعضهم يسير في ارجاء الدنيا . وبعضهم مختبىء او لا يتذكر اين هو واين كان – كل شيء اختلط وتشابك ولا احد يجد راسي الخيلة . وانا ايضا : بين الوجود والعدم . موجود وغير موجود . فكري كيفما تريدين . لم يبق لوالدي المجوزين الكثير في هذه الدنيا . وسنلتقي هناك ، وسنتحدث . فربما لا توجد حرب هناك . اما هنا فللضعيف وللقوي امل واحد : ان يبقى هو ولا احد غيره .

لم تجرأ ناستيونا على الاعتراض . فلزم اندرى الصمت قليلا . ثم تكلم بلهجة اكثر هدوءا :

– ليس معروفا ما هو الافضل : ان تعرف المرأة ان ابنها او

زوجها قتيل لم لا تعرف شيئا عن الاطلاق . بالنسبة للزوجة ربما ينبغي لها ان تعرف ، كي تدبر حالها وحيالها . فالقضية هنا واضحة : اذا كنت قد مت فلا تحرم زوجتك من الحياة . ولا تقف حجر عثرة في طريقها . اما بالنسبة للامهات فكم عدد اللواتي يواظبن على الحياة بمصابهن على العينين ، في جهل بمصير ابنائهن ؟ الام تستلم اشعار الوفاة ولا تصدق بان ابنها مات . ويبدلونها عن ملفه . ويكتب لها رفيق ابنها الذي دفنه بيده ، وهي لا تصدق . فليبق لوالدي المجوزين ايضا بصيص ما ، ولو كان بصيصا عليا ميتا . طالما اني لا استطيع ان امرض عليهما شيئا افضل من ذلك — استدار نحو ناستيونا وقال بلهجة فاطمة : — كفاية . انهضي ، سنشرب الشاي . وستلعبين قريبا . هل ستنهضين ام تبقين ؟

— كيف ابقى ؟

— هل ستجيئين مرة اخرى ؟

— بالتاكيد ، يا انوري ، بالتاكيد ، فانا اعرف الطريق الآن .

— لا تاتي اذا كنت لا تريدين المجيء . فلا داعي للاكراه . اما انا فسأتحمل ، وسيكفيني لقاء اليوم لامد طويل .

وتذكرت ناستيونا فهتفت قائلة :

— اوي ، احضرت لك بارودا . وكدت انسى . قم الى البيت — قفزت من التخت برشاقة وانتشلت من الكومة في الركن كيسين من القماش فيهما البارود ورصاص الرش . — خذ نصف الكمية والباقي سأسلمه لابيك ، فقد طلب مني ان اشتري له .

— النصف يكفيني وزيادة — قال فرحا وانشغل بفتح الكيسين . — ساعيش الان . ولن اخشى الآن حتى من الشيطان . لقد وهبتيني كل شيء ، يا ناستيونا ، يا زوجتي الرائعة ! — احتضنها ورفعها قليلا ، فصرخت متملصة ، ولكنه وضعها بحذر في الحال ، وقال مخاطبا نفسه بكآبة قاسية : — يجب العيش مع هذه المرأة لعام الملا وليس الاختفاء في جحور الارض .

— ارعبتني جدا — قالت ناستيونا مضطربة دون ان تسمع ما همس به لنفسه — هبط قلبي في صدري . لم اعد اتذكر ان احدا احتضنني بهذا الشكل .

— تعالي مرة اخرى وساعوضك .

- يودي ان اجيء كل يوم .
- فما المانع اذن ؟

آن اوان لملمة اطراف هذا اللقاء المختلس الذي استطال ليوم كامل . هبط الغسق وفاحت من ارجاء الكوخ رائحة العفن وتسلل صلصال الشتاء الغشيم الشحنى وبدا اكثر قربا واشد خطرا . وهدا كل شيء لزجا مثلثا بعيدا من الامان . وبردت حدة الحوار .

احتسيا الشاى على عجل . وحمل اندرى ناستيونا على ان تاكل . فراحت تخمش الخبز مع الشحم دون التفات . كانت قد ارتدت ملابسها عندما مد اليها صامتا يده واليها شيء مستدير لماع عليه فلاش برافة كالعيون الصغيرة . فهتفت ناستيونا بدهشة خافتة :

- اوى ، ما هذه الاعجوبة ؟
- خذى ، يا ناستيونا ، هذه الساعة . لقد انتزعتها بنفسى من ضابط الماني ، حي وليس قتيلا . وهي لم تعد تلزمني بعد الآن . اما انت فستنفعك . عندما تبيعينها اطلبي ثمنا عاليا ، فهي ساعة جيدة مصنوعة في سويسرا . ولا تقلي بالك من الفين .
- يا الهي ، لمسها باليد مخيف .
- خذى ، فليس عندى ما اعطيه لك غيرها .

رافقها حتى الطريق الرئيسي عبر النهر وعانقها في الزحافة . ثم هدا لدقيقة ، وساط الحصان ، وقفز على الثلج . ظل واقفا دون حراك لامد طويل حتى اختفت البقعة القاتمة المتحركة . ظل متجمدا بوجه متحجر وتفكير مبتور توقف عند : هكذا اذن . . .

. . . بكت ناستيونا طوال الطريق . استولى عليها الحزن واعتصر قلبها ، ولم تفهم على الفور لماذا استولى عليها بهذه الشدة . فالالم لم يختمر لديها ولم ينضج فلا يدلها على ما ينبغي ان تفعله له . اذ ان كل شيء في دخيلتها مشروب بقلق حاد يعتصر الفؤاد وتضيق انفاسها وتتلد من الداخل كانما تجرعت قدحا من الشاى ذوب فيه قدر متناه من السكر والملح . فللسكر مفعول وللملح مفعول آخر ، وحالما تشعر بطعم الحلاوة تختنق بالملوحة الشديدة وتنساب المرارة في البدن كله حتى العظام .

طوال السنوات التي ارتبطت فيها ناستيونا بالقرية والمنزل

والمسل كانت تعرف مقامها وتصون نفسها لانها هي ايضا عروة يستند اليها كيان ما ويترابط بفضلها في كل متكامل . وعل حين غرة ضعفت الحبال والقرى دفعة واحدة . لم تتقطع . بل ضعفت وتراخت . افضل ما تتسالين بحرية وبكل ما لديك من مقالة والذهبي حينما تريدين . ولكن الى اين تذهب ؟ وماذا تفعل ؟ لقد تعودت على حبلها وهو لا يؤلم رقبتها . ولكنها لا تستطيع ان تذهب بعيدا حتى اذا صممت على ذلك . فليس هناك جهة تذهب اليها . فكيف لا تتحير ولا ترتبك ؟ كلا . يبدو انها لن تتخلص من تلك الحبال . وينبغي سحبها وانتظار ما سيحدث . فلن تستطيع الهرب من مصيرها . ويتعين عليها الآن ان تدور في نفس الحلقة . ولكن عن كثب وعل انفراد . يتعين عليها ان ترى كيف يعيش الآخرون . وتعيش عل انفراد . سرا . عليها ان تتلفت وتلتزم الحذر وتتحدث همسا . بنصف لسانها . عليها ان تعمل نصف ما عملت وتنام نصف ما نامت . عليها ان تتحايل وتتملص وتكذب وتعرف مسبقا ما تؤول اليه الامور .

والسبب في ذلك هو ان زوجها حافظ عل حياته وعاد قبل الميعاد .

الانسان غير محصوم من الخطايا . والا فهو ليس بانسان . ولكن ليست الخطايا كلها . لن يحتمل اندرى هذا الذنب . واضح انه لن يحتمله . ولن يتجاوزه مهما طالت الايام . فالذنب اقوى منه . وهل يجوز الآن تركه وحيدا في مواجهة المصيبة ؟ لربما كانت هي ايضا مذنبة في وجوده هنا . مذنبة دون ذنب . اليست هي . قبل غيرها . السبب في مجيئه ؟ اليست هي التي كان يخشى الموت دون ان يراها ويقول لها كلمته الاخيرة ؟ لم يكشف سره لابيه وامه . بل كتمه لها . وربما ابعد اجل الموت قليلا من اجل ان يكون معها ليس الا . فكيف لها ان تتخل عنه الآن ؟ لا يستطيع ذلك الا من لا قلب له ومن يستبدل فؤاده بميزان حديدي يزن ما هو نافع وما هو ضار . في مثل هذه الاحوال لا يتخل الانسان عن القريب حتى وان كان غارقا في الذنوب . فكيف به اذا كان قريبا حبيبا ؟ . . ولو لم يوحدهما الله لوحدتهما الحياة كي يشد بعضهما لازر بعض مهما حدث ، ومهما وقع من مصائب ونكبات .

الاحياء يقاتلون هناك . وهو هنا . يا الهي . علمني ماذا اعمل .

خيمت كآبة حالكة على فؤاد ناستينكا الواسع الخاوي كمنزل الفرع من اثاثه . ويؤسفها الآن ان تتصرف على هذا النحو او على غير هذا النحو . انها ترتعش من برودة هذا الفراء الذي يغويها ويستهويها بعد ان عرى كل الزوايا والاركان . حيث ترجع كل فكرة صدى مثالا مدويا .

٨

في النهار يحاول اندري نوسكوف الا يبقى في الكوخ . من المستبعد ان يجيء احد الى هنا . ومع ذلك فهو يتوخى منتهى الحيطة . فيمس حاجياته البسيطة تحت الثلج ويجمع الاغصان بكومة واحدة في ركن على الفرن . ويسحو آثاره بدقة كل مرة . ويعمل بتدليله على حثه . ويتوجه الى اعالي الجبل بالاسكي على الجليد . وهو عادة لا يجوب الجهة اليمنى القريبة من ريبنايا . بل يستدير الى الشمال حيث لا توجد بلدة مأهولة على مسافة تتجاوز ثلاثين كيلومترا .

المجال ضيق داخل الغابة . والثلج هش . اما في الفسحات الواسعة بين الاشجار فكان نوسكوف ينزلج على الطبقة العليا من الثلج كما على الجليد . فرحا لحركته السريعة الطليقة المحلقة التي تنطوي على خداع مرح لذيذ : الى الامام . الى وحشي الحرية . الى الاماكن البعيدة . حيث لا دامي للخوف والاختباء . وحيث يعيش كل كائن بما جبل عليه وبما منحته الحياة .

غابات التايغا مفلسة بالتلوج – الثلوج المكدسة اكواما والراجفة والموزعة باشكال الابر والاشواك والساقطة من الغصون . لم تستيقظ التايغا بعد فهي لا تزال مثقلة بافكارها البهيمة ، بيد ان اشجار الصنوبر قومت اعصانها وواصلتها الى اعلى . وغدت البتولا العارية الياسة رقيقة تستجيب لنظرات العيون . ولاحت رواسب اللحاء الداخلية الصمغية الذهبية . وادى الثلج الجيد طوال اسبوع الى توسيع الهوة بين الصفحتين المركزيتين البيضاء والسوداء اللتين

يكادان تكونان الصيغتين الوحيدتين في الشتاء حيث بدت اشجار الجنوب والحور الرجراج سوداء بلون واحد على خلفية بيضاء ناصعة . وارتسمت بمزيد من الوضوح والجلاء ملامح كل جذع وغصن . ولم تهب الرياح . اذا هبت . تثير سحبا ثلجية لا في المناطق المرتفعة ولا في المناطق المنخفضة . فالثلج راقد على الارض والتصق بها حيثما ينعين عليه ان يذوب فيما بعد . وسيتساقط ثلج آخر من الجو طبعا . سيتساقط مرارا . ولكن من اجل التبجح ليس الا . وسيلتصق الثلج الجديد بالثلج القديم على الفور . ومن جوانب الجذوع المسجاة المكتسوة بذرات الرطوبة تنز .

سار لوسكوف طويلا على المنحدر المكسو بالاشجار حتى وصل الى المنخفض التالي الذي انزلق عليه الى نهر انغارا . النهر يستدير هنا الى اليمين . ويتسع الشاطئ بسبب الترسب المتواصل عاما بعد عام . هذا الشاطئ غني بالثمار والاعشاب والطحلب . ويقال ان قرية تنزوية نشأت هنا في غابر الزمان . لكن احدا لا يعرف لماذا غمد التتر الرحال من المكان الذي اعجبهم على نهر الغير ، واحرقوا المباني وارتحلوا . ولا يعرف احد ما اذا كان الامر على هذا النحو ام لا . ولكن من الواضح ان يد الانسان عملت هنا في قديم الزمان . فقد قطعت الاشجار واعدت الحقول للزراعة والمروج لحش الاعشاب .

سار لوسكوف من جديد على الشاطئ . كان يتزلج ، ولا يسير ، على فترة الثلج المتصلبة صاعدا الى اعالي النهر .

هنا يتعين عليه الاختفاء ايضا عن انظار الآخرين . ولكن الخوف قل . فهنه الاراضي لا صاحب لها . عندها تنتهي حدود ناحية ولا تبدأ حدود ناحية ثانية . والناس الملمون ادبيا لا يعرفون الكثير عن بعضهم البعض . واذا سمعوا من جهتين مختلفتين اطلاق رصاص يعزونه الى جهتين مختلفتين : الذين في الاعالي يتصورون ان الرصاص صادرا من الذين في الاسفل ، وهؤلاء يتصورونه صادرا من اولئك . وهنا ، هنا فقط ، يشعر لوسكوف لنفسه بالطمأنينة .

في نحو يومين كان يراقب الحمر البرية من الشاطئ ، ورأى كيف اجتازت النهر عبر الجزيرة الصخرية . وفي المرة التالية

انتقل الى الجزيرة وغصب كيانا على الراس السفلى القليل الانحدار الذى لمر به العز ويرى منه كلا شاطئى النهر بمنتهى الوضوح . الشاطئ الايسر الغربى والشاطئ الايمن ابعد . المكان من هذه الناحية مناسب وواقع ضمن مجال الرؤية . ولكنه مكشوف جدا للريح الجنوبية التى لا ترحم . ولتفاديها من الريح توجه فوسكوف الى الصخور المكدسة وسط الجزيرة كشواهد قبور هائلة . فراى فجاة . وراء شق فى الصخور . فجوة ضيقة تشبه مغارة مائلة الى جانب . وفيها آثار موقد قديم . تفقدها فوسكوف وتنحنح مغتبطا ثم ضحك بصوت مسموع : فلم يكن حتى ليحلم بمثل هذه الليلة . وصار يعتقد بان هذا الماوى سيحميه . دون ان يعلم لاى غرض وكيف .

اشعل نارا وتدفا . وفى تلك الاثناء صمم على عدم العودة الى الكوخ اذا لم يحالفه التوفيق اليوم . وسوف يبيت ليلته هنا . فما العلمى لاطلاق السالفين بين طرفيهن غير متفاربين ! لديه الآن ماوى . واى ماوى . فى الجزيرة ايضا . الجو بارد فى الليل طبعا . ولكن النار موجودة . فلا باس . ولعل احدا اختبا هنا فى زمن ما . عن انظار الناس او لسوء الطالع . وفى الغالب الظن عن انظار الناس . فما الذى يدفع المرء للمجىء الى هذا المكان ؟ ما اكثر الرماد الاسود المتحجر فى هذا الموقد ! فهو ليس بنتاج ليلة واحدة . لا بد ان ذلك الشخص اختبا هنا منذ زمان . ولعل سوء الطالع . سوء الاحوال . سوء الطالع قد لازمه طويلا .

كيف لم يفكر اندرى سابقا فى الوصول الى الجزيرة الصخرية ؟ انها قريبة . ومع ذلك لم يفكر فيها . كم مرة اجتاز المنطقة بالزورق وتطلع الى الصخرة . ولكنه لم يتسن له ان ينزل عليها . انها جزيرة غريبة غير مريحة . شواطئها شديدة الانحدار . وليس فيها غير الصخور واشجار التربين . ولعله لا تبدو للآخرين بالطبع ما بدت له .

بات اندرى ليلته فى الجزيرة شاعرا بارتياح المتشرد لانه نام فى المغارة وكانما فى قلب الصخرة . حيث لا يمكن بلوغه من اية جهة من جهاتها . عند المساء اعد حطبا جافا وسخن لنفسه جلدها مسطحا انخفض سريرا ونام بدفء واطمئنان دون ان يشعر بالارتياب

العناد والتوتر الشديد المتواصل الذي لا يفارقه الآن حتى في المنام .

خرج الى راس الجزيرة في الصباح متاخرا . فقد اعد خاياه وشربه من اعطاء الزمزمية التي احرق شفتيه . وحمل نفسه على النهوض والخروج الى البرد . . . لفحت الريح الجنوبية . ولكن هواءا رطبا باردا هب من الشمال يهدوء واعتدال . كان الصباح كالحا معتما يبعث على الحذر والحيطة لدى الانسان والحيوان على السواء . ومن المستبعد ان تصمم العز . في مثل هذا الطقس المتقلب العريب . على قطع شوط كبير . اليس من الافضل له ان يعود دون استعجال بمحاذاة الجبل ؟ فقد يصادف في مكان ما سنجابا على الاقل .

كان مشغولا بالتفكير فيما ينبغي فعله عندما التفت الى الشاطيء الايسر الذي ينوي الذهاب اليه فراى فجاة كيف هبطت ثلاث عنزات من الشاطيء العالي وقد لوت قوائمها الامامية . هذه هي العنزات المنشودة . تراجع واختبا وراء شريبة واعد بندقيته . اتجهت العنزات نحوه مباشرة . عبر الجدول وهي تجرجر قوائمها بالعنزات قليلة خرقاء على الثلج المتصلب . فما الذي اجتذبها الى هذه البقعة يا ترى ؟ ربما هي الرغبة في الاختباء بين الاشجار ولو للحظة واحدة بغية تهدئة النفس وتجاوز الرعب قبل الخروج مجددا الى الخلاء المكشوف من جميع الجهات والمحفوف بالمخاطر .

اقتربت العنزات منه في قافلة الواحدة تلو الاخرى . وصار يسمع انفاسها التي تشبه فوقاة البط . وعلى مسافة مائة متر لا اكثر من راس الجزيرة اثار شيء ما انتباه العنزات فاستدارت العنز الامامية التي تقود القافلة عن الجزيرة واتجهت فجاة الى اسفل . وشيعها اندري باطلاقة من كلتا البارودتين . فاصاب العنز الاخيرة التي قفزت قفزة عالية يائسة في الهواء . الى الجانب وليس الى الامام . وهوت على الارض .

عندما وصل اليها لم يكن واكدا كانت لا تزال حية . نخرت وطرقت الارض بقوائمها وهي تزبح الثلج تحتها . واختلطت دماءها ومال راسها وخر . لم يجهز عليها اندري . كما هو المعتاد . بل وقف يتطلع اليها كيلا يفوت اية حركة من حركاتها وكي يرى كيف يتصلب الحيوان المحتضر وكيف يلفظ النفس

ويظهر من جديد . وكيف يتلوى الراسي على الثلج . وقبل الخاتمة رفع راسها قليلا وتطلع في عينيها مباشرة . فانسحنا رفا عليه . ورأى في اصابعهـــا الطائرة برؤين شيطانيين انسحبن فظيعين يشبهانه هو .

كان ينتظر النتيجة الاخيرة كي يرى كيف تنعكس في عينيها . ولكنه فوتها . وخيل اليه ان عيني الماعز في تلك اللحظة متجهتان صوب نفسها وداخليتها .

في بعض الاحيـــان يلتجئ انفري الى الكوخ العلوي . فهو افضل واوسع من الكوخ الســفلي . وهو مبني من جذوع الشريين وقائم على مرتفع امامي فيبدو متينا جدا . الحقول حوله مهجورة من زمان . فثمة فيها كل ما يمكن ان ينمو . بيد ان هناك فســحة طالعة صراحا وراء صف غير كثيف من اشجار الحور الرجراج على ملربة من الكوخ . ذلك مرة لمرق لوسكوف في تاملاته وراودته لجاة رغبة في ان يدفنوه هنا . عند طرف الفسحة البعيدة باشجار الحور . فالمكان جاف مشمس . ومن الاشجار ستتساقط الاوراق على قبره . وستجئ الطيور المغردة يستهويها عطر الزهور . في حين سينفر مبنى الكوخ الوحوش من الاقتراب منه .

ليس في الكوخ فرن (فقد اخذه شخص ما ولم يتهاون حتى في نقله الى الجنوب) . ولعل ذلك افضل . فلربما ينفد صبر انفري ويشعل نارا . وعند ذاك يتعالى الدخان من الهضبة على مرأى من اناماتوفكا كلها . لن يكون بحاجة الى الفرن عندما ينتقل الى هنا حين يتدفأ الجو . اما الآن فهو يجئ في النهار فقط . وحالمـــا يشعر بالبرد يتحرك ويتدفأ دون نار . ثم ان الجو في بعض الايام دافئ حتى تقل مصلف الفراء الكثير على صاحبه .

ستذوب الثلوج قريبا وسيتحطم الجليد . اما هو فليس لديه جزمة جلدية ولا صديري .

لاحظ انفري انه يدوخ هنا لسبب ما . ويشعر بان حالته اسوا مما في الاسفل . فهناك الاطمئنان اكثر . وقد تعود على حياة رتيبة معينة . يعيش ويفكر ويشق طريقه حسب جدول بسيط عادا سيعمل غدا . والى اين سيذهب . وكيف سيحصل على كبت وكيت . وكيف يسد رمقه ؟ لم يكن يتطلع الى المستقبل البعيد

ولا يحاول التعمق في الذكريات . فلا يستعيد في ذهنه الا ما بدا من هذه الارجاء . وهو راض عن حياته الحالية . تلك الحياة المبتورة التي ليس فيها غير سدة تهشم ورقة تتنفس . اما هنا . في الكوخ العلوي . فقد تهشم كيانه وتحلل . وداهمته الكآبة نافلة ليس بوسعه ان يطويها ويلبسها مهما بذل من جهد . واثقل عليه شعور خفي بتوبة متأخرة خرقاء . توبة محظورة ومطلقة بحسرة الفعال .

فما جدوى التفكير والتأمل ؟ لا تسلت نياط الفؤاد الواحد تلو الآخر . فلات ساعة مندم .

يقول المثل الروسي ، تعبيرا عن الندم ، انك لن تستطيع ان تعض كوعك وانت قريب من فمك . ذات مرة تذكر اندري هذا المثل وامسك كوعه بيده الاخرى وجره بكل قواه الى فمه . فقد يوفق في عضه . ولكنه اخفق وتالمت رقبته الما شديدا فضحك راضيا: المثل صحيح . وقد جربه آخرون قبله فلم يفلحوا .

انه هنا يكره نفسه ويخشاها . فهي ثقيلة عليه . وهو لا يعرف ماذا يفعل كي يزيد من الهه وكي يكون بائسا مما هو فيه . فيروح يهدد نفسه امعانا في ايذائها : تمهل قليلا . سيجيء الوقت . وستحل الساعة . وبعد ذلك ينتفض فزعا : حقا سيجيء الوقت . وستحل الساعة ! وستكون ساعة عظيمة رهيبة ! لن تنهض بعدها . ولن تقوم لك قائمة .

لم يكن يعرف السبب في تفكيراته الحمقاء تلك . هل هو الكوخ المبني لاجل حياة طويلة ؟ ام هو المكان الفني المسرح بواليه . حيث تلوح من وراء الانجدار رحاب النهر المتجلد ، وترى من بعيد على الشاطئ الآخر طرف اتامانوفكا ؟ ام هو شيء آخر مجهول ؟ ولكن التفكيرات تلاحقه وتاخذ في خناقه فلا يستطيع منها فكاكا .

بيد ان ذلك بالذات هو ما جاء به الى هنا كمذاق الخطيئة طعم البعير المثال .

بعد اسبوع من اصطياد الماعز الاول اصطاد ماعزا اخرى في الجزيرة الصخرية وسحبها على الاسكي وسلخها وقطع

اوصالها في العتمة قرب الكوخ السفلي . وخبا اللحم في الجاليون حتى الصباح .

في الصباح الباكر فتح الباب ليخرج من الكوخ فتجمد مندهشا . راى كلبا رماديا كبيرا قفز بشرط هائل مبتعدا عن الباب ، وناصب مكشرا عن انيابه . لم يدرك لوسكوف في الحال ان هذا ذئب . فهو نحيل طويل يكسوه شعر اشعث ومتدل كما هي العادة دوما اثناء تغير الوان الوحوش . كان ينظر الى لوسكوف بحقد شديد جعله يلتقط البندقية في الحال . ولكن اندري انتبه على نفسه ولم يطلق النار . واتضح ان الذئب عجوز محنك . فقد هرب من لوحة البندقية المصوبة نحوه الى الجبل . ثم توقف من جديد لانه لم يسمع اطلاق الرصاص ، وراح يعوي .

ومنذ ذلك الحين تعود الذئب على التردد على الكوخ في الليل . وعلم لوسكوف العواء .

كان الذئب يرجع خلف الكوخ وينشد اغنيته الفظيعة الحادة بنفس طويل واحد . كل شيء في الوجود يغدو باهتا كالحا بالمقارنة معها . فهذا الصوت يخز في حنجرة اندري كموسى حاد رقيق يلمع في الظلمة . ذات مرة اشتد الم اندري لانه لا يستطيع طرد الذئب باية وسيلة . ففتح الباب قليلا في سورة من الغضب والتحرش ، ورد على الذئب بعواء مثل عوائه . رد عليه وهتف اشد الدهشة : فقد كان صوته شبيها بصوت الذئب . ذلك دليل آخر على صواب المثل القائل : من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم . وفكر اندري بشيء من الشماتة والتباهي المنتقم سينتقم ذلك في نخويف الناس» .

كان ينصت الى عواء الذئب وينتظر بفارغ الصبر والفرح والحماس دوره هو في العواء . وكان الوحش ، عند الضرورة ، يصحح نواقص عواء اندري . وبالتدريج ، ليلة بعد ليلة ، ادرك لوسكوف بان عليه ان يضغط على مكان ما في الحنجرة ويميل براسه الى الوراء ويزيل من صوته البحة الناقلة . فتعلم التحكم بصوته واطلاقه صافيا رفيعا كحلزون مضغوط الى السماء .

وفي الاخير فقد صبر الذئب فترك الكوخ وشانه . الا ان اندري لم يعد بحاجة الى الذئب . فعندما تضيق النفس الى حد

الضباب يفتح الباب ليطلق . في سورة من التسلية الخبولة . عراما مستكينا لجوجا يكتنف غابات التايغا الموحشة . وكان يتسع كيف يرتعب ويتجمد من هذا العراء الوحشي كل شيء على مسافات بعيدة حواليه .

٩

في اواسط آذار عاد الى اناماتوفكا اول جندي من الجبهة هو مكسيم فولوخجين . واذا تريثنا قليلا فهو ليس الاول ، اذ عاد بيوتر لوكوفنيكوف الى اهله في العام الثاني من الحرب . ولكن من اجل ان يقضي نحبه . تعذب شهرين في بحران وحمى ولازم الفراش دون ان يخرج الى الشارع تقريبا . وفي اواخر الخريف ، بعد جني الغلال في الحقول والبساتين توفي بهدوء . واعتبر ذلك من حسن الطالع . فالقبر في الديار وليس في ارض غريبة .

اما مكسيم الجريح فقد جاء ليعيش ، وجاء بصورة نهائية . اهتزت اناماتوفكا لوصوله . فطالما سمحوا للجرحى بالعودة الى الاهل فنهاية الحرب قريبة حقا . وذلك يعني انه سيصل بعده آخرون قريبا . المهم هنا ان يترك المرء اثرا ، وبعد ذلك يجري تقفي الاثر . صحيح ان الذين سيجيئون نفر قليل . فان ايتوكيتش ايفانوفيتش الذي يحسب الحساب لكل شيء قد بين بالارقام كم عدد الذين قتلوا من رجال اناماتوفكا : اثنان قتلا في الحرب الفنلندية ، وثمانية عشر توجهوا الى الجبهة خلال سنوات الحرب الحالية . وفي الحال الحاضر لدينا رجل واحد حي بالتاكيد (مكسيم فولوخجين) ورجل واحد (بيوتر لوكوفنيكوف) ميت بالتاكيد في مقبرة القرية ، وعشرة اشعارات بالوفاة لدى النسوة . اما الباقون فيحاربون . تلك عملية حسابية بسيطة . فالقرية صغيرة ، ويمكن العد على اصابع اليد .

في ذلك اليوم كانت ناستيونا ونادكا وليزا فولوخجينا يعملن في تنظيف شعير البذار في مهب الريح قرب المستودعات . وبعد الغداء وصل نسطور على ظهر كاركا مسرعا . اوقف الحصان وجلس على مؤخرته وصاح بليزا :

– اصعدي على حصاني بسرعة . هيا . هل تسمعين يا ليزا . وصل مكسيم .

انتصبت عنه ليزا مترنحة وبهت لونها وانتحبت ثم ركضت باكية بكاءا مريرا الى القرية . كانت الاماتوفكا في هرج ومرج اثناءه . ومن الهضبة التي تلمع عليها المستودعات يرى كيف تراكض الاطفال والكلاب نحو منزل فولوفيجين في الطرف العلوي للقرية . وكيف توجه الى هناك ايضا الشيوخ والعجائز وهم يتحدثون بانفعال . واسرع نسطور على صهوة جواده من جديد وهو يطلق النار في الهواء مشيرا الى هرج القرية ومرجها المزيد . ابتعد الناس مفسحين المجال له . وراح الحصان يتقافز وينفر بسبب اطلاق الرصاص . ولكن لا احد بوسعه ان يوقف نسطور وهو يطلق الرصاص ويجوب القرية رماحة من طرف الى طرف . وقالت نادكا حانقة :

– فليحارب هذا الجنرال ولو بهذه الطريقة على الاقل .

جلست على كيس الشعير وتلفظت بنفس الحقد الذي احتفظت به الى حد التفوط الكئيب القائل :

– لم يستطع رجل المشؤوم ان يبقى حيا . . . لماذا تنظرين الي هكذا ؟ الست محقة ؟ – انهالت على ناستيونا التي تطلعت اليها بدهشة – خلف اطفالا ثم . . . سقط شهيدا . لماذا العمل بشهادته ؟ هل اطعم الاطفال بها ؟ – اومات نادكا الى المنزل الذي ظل فيه اطفالها الثلاثة وبكت وهي تمسح الدموع من وجهها المترب . – من الذي سيتزوجني وهي هذا الطاعون ؟ انني في السابعة والعشرين فقط . سبعة وعشرون عاما لا غير . وحملت الخاتمة . فليذهب كل شيء الى الشيطان .

انتهى العمل في ذلك اليوم . جمعت ناستيونا ونادكا كمية الشعير المعروضة للربح واصرفتا الى منزليهما بعد ان عرجتا على مديرة المستودع واخبرتاها بان لفائق العنابر .

في البيت حتى سيبوخوفنا تركت مضجعها على دكة الفرن الحجري وراحت تجرب رجليها المتورمتين وهي تئن وتكاوء وتجلس بعد كل خطوة لتطرحها . وكان ميخيتش يجوب الغرفة فرحا منفعلا متحيرا . وعندما دخلت ناستيونا سألها فرحا .

- هل سمعت ؟ مكسيم فولوفيتش وصل .
- سمعت .
- الم تذهبي اليهم ؟
- كلا .
- يجب ان تذهبي . . . ربما يعرف شيئا عن اندري .
- لماذا لا تذهب بنفسك يا شيخ ؟ - قالت سيميونوفنا مناوعة - ذلك افضل . فهي لا تستطيع ان تقاله كما يجب .
- ما الداعي للسؤال ؟ اذا كان لديه ما سيقوله سيقوله .
- اوى . افعلوا ما تريدون .

لاحظت ناستيونا ان ميخيتش صار يتحاشى الناس ويغتاظ في الآونة الاخيرة منذ ان ضاعت آثار اندري . في الاسطبل الذي يعمل فيه لا مناص من ملاقاة الناس بالطبع . ولكنه عندما يعود الى المنزل يظل فيه . وله الحق من تردده على الشيوخ لاجل التدخين وتجاذب اطراف الحديث . وحتى عندما يزورونه يلزم الصمت في اغلب الاحيان . وظهرت لديه عادة هز الراس اثناء الحوار وكأنه موافق على ما يقال له . والاصح انها تلازمه كي يقلل من الكلام . عندما يغرق في تاملاته يصادف ان يهز راسه وهو لوحده . حيث يحدق فيما امامه بعينين جامدتين خاليتين من اي اثر للحيوية . ومن المستبعد انه يعرف ما يشغل باله في تلك اللحظات وما يقلع به نفسه على انفراد . ولكنه متاكد من شيء مبهم دائم لا يبعث على الفرح . وهو ينتظر شيئا ما بكل تاكيد .

في ذلك العام كان في منتصف العقد السابع من حياته . شاربا متدليان الآن بلون الصدأ الباهت بعد ان كانا قبيل الحرب ممتزجين الى اقصى كشوارب الشباب . ثم ان مظهره كله متثاقل بالارهاق وخيبة الامل بحيث لا ينعشه لا النوم ولا الاستجمام . انه يسير بقامة معتدلة وراس مائل الى الوراء . وفي السنة الاخيرة صار يجرجر رجله بصورة اشد بعد ان اصيبت في الحرب العالمية الاولى . ولكنه حالما يجلس يطاطئ راسه ويغلق عينيه بطيء الشيء ويغوص في سعال عميق مدو ينطلق من داخل بدنه الضخم المتهدل بدخان التبغ . وينفد صبر سيميونوفنا فتصيح عليه من دكتها فوق الفرن كي يكف عن السعال . ولكنه يواصل

سعاله دون ان يلتفت اليها ، ثم يخرج الى العوش . وهو يسعل . فيشغل نفسه بعمل ما . وبينما سعاله في اثناء ذلك على نحو غير ملحوظ . ولكنه يظل امدا طويلا يتنفس بصفير مسموع . وفي الغالب الاحيان يكبت سعاله بنفس ذلك التبغ وكانه في دوامه ابدية من النشوة : وداوني بالتي كانت هي الداء . وكلما استمر في ذلك كلما ازداد سعاره وفقد صبره . فما صوته مخنوقا ابح ، وعيناه شبه مغمضتين وكانما اناخ على جفونهما عبء ثقيل . وصار وجهه النحيل اكثر نحولا . لقد تدهورت صحة ميخيتش خلال عام واحد الى درجة جعلت ناستيونا ، وهي تفكر في ذلك . تشفق من العاقبة . قال لناستيونا طالبا منها الذهاب الى منزل مكسيم :

– اذهبي ، يا بنتي . فعلي ان امر بالاسطبل .

خرجت ناستيونا على نادكا كيلا تغضب لوحدها الى منزل فولوخجين . وكانت تلك ، كعادتها ، تتشاجر مع اطفالها . فقد جلست ابنتها الصغرى ليدكا ، التي ولدت بعد التحاق ابيها بالجبهة ، على الارضية وراحت تبكي باعلى صوتها لانها قد ضربت توا على ما يبدو . وكان بيتكا ينتحب قرب السرير ، فما الابن الاكبر رودكا فقد انزوى ووجهه الى النافذة . وكانت نادكا تصف الصحون بضجيج في ركن المطبخ الضيق وتنهر الاطفال باعلى صوتها بين الحين والآخر كي يكفوا عن البكاء . ثم اخذت تتشكر لناستيونا :

– اردت ان اقتصد في رغيف الخبز كي يكفيهم ليومين . واذا بهم يتسلقونه في الحال . اليسوا ثعابين لا تشبع ، قولي لي . اليسوا ثعابين لا تشبع ؟ ملاعين . لقد اخفيته عنهم . فعثروا عليه . ابتلعوه دون ان يغصوا به . ستتلفون جزاء – فعلتم . ستبقون ثلاثة ايام دون طعام . هل ستسكتين ام لا ؟ – صاحت من جديد على ليدكا . – سوف تجنينني ، وساعلمك . ما اوقحها . ملأت بطنها ، وتبكي وكانما انا المذنبة . يا الهي . متى تخلصني منهم ؟ بم ساطعمهم ؟ لم يبق عندي طحين الا لرغيف واحد لا غير . وبعد ذلك ماذا افعل ؟ هل اضعهم جميعا وانا معهم في كيس واحد والقي بهم في النهر كالقطط ؟ طلبت الطحين

مرتين وبكيت من القهر والالم . لمن يعطيني طحينا يعد الآن ؟ اما هم فلا يريدون ان يفهموا شيئا . وعلما . الارمن الطويل . لم يعد صغيرا - اومات نادكا ببصرها الى جهة رودكا - اليس من الواجب ان يفهم شيئا ؟ كلا . لا يريد غير ان يبتلع الطعام الآن ويخدع امه . فهل اخفيت الرغيف من اجل نفسي ؟ اخفيته من اجلكم يا ملاعين . يا شياطين . اخفيته حتى تاكلوا لقما . وحتى لا تفطسوا من الجوع . اما الآن فافطسوا . ولن آسف عليكم ما دامت هذه اعمالكم .

- سيغوب جليد انغارا قريبا فاصيد السمك - دعدم رودكا من النافذة .

- الحق يوزك انت . فنحن نعرف صيدك . في العام الماضي الفتنا بالسمك . وستتخمنا به العام الحالي ايضا . ولا ادري ماذا سنعمل بعظام السمك . قف هناك واكرمنا بسكوتك . والا . . . لا داعي للثرثرة . انت صياد في المستودع وليس في انغارا .

لم تستطع ناستيونا ان تقاطعها الا بصعوبة كبيرة :

- فلننصب . يا نادكا . لنرى مكسيم . نرى كيف صار الرجال الآن ونعود في الحال .

- ما الفائدة من رؤيته ؟ نعذب انفسنا لا اكثر . فلا فائدة من النظر الى سعادة الغير .

- الا تريدين ان تذهبي ؟

- انتظري قليلا . ساذهب معك . ولكن فلارتب الامور حتى يمكن تركهم لوحدهم . لماذا تقف هناك كالصنم - صاحت بابنتها رودكا - احضر حطبا وسخن الفرن . واحذرك من الهرب . انظروا كيف زعل وكيف يفكر بالهرب . ستبقى في البيت الساعة كلها . هل فهمت ؟ ولن يخرج احد من باب المنزل .

فهمت ليدكا ان امها تنوي اللعاب فقالت متباكية :

- خذيني معك . خذيني .

لوحت لها امها بسلبغي المفلاة من ركن المطبخ فلاذت ليدكا بالصمت متفهمة . وقالت الام :

- هكذا . اجلسي في مكانك بهدوء . تريد ان تذهب معي !

لم انشاجر معهم حتى الآن لعام الناس . كل الاطفال ابناء اوادم اما هؤلاء فهم شياطين . انهم لعنة من الله نزلت علي . فما الذي سيحدث لهم ؟ من يدري ما الذي سيحدث لهم ؟

رفعت ناستيونا ليدكا من الارضية وحملتها الى السرير دون ان تشعر بثقلها تقريبا . وعلى السرير انكمشت الطفلة فورا كشليلة كروية وراحت تتنحب وترتعش بكل بدنها الصغير والملفت عينيها معركة تماما انها لن تتلقى اليوم اية فرجة من احد وان افضل ما تفعله هو ان تظفر ولا تستيقظ حتى الغد . صمتت ناستيونا شعرها ولكن ليدكا ارتجفت من ثقل الملاطفة بصورة اشد . مما جعل ناستيونا تتركها وشانها .

بديهي ان نادكا لا تستحق المديح . ولكن من الصعب لومها على لعلعتها . لقد كانت قبل الحرب ايضا امراة مصياحا . وليس من قبيل الصدفة انها لم تتمكن من العيش بوئام مع حماتها التي كرهت نادكا بسبب شراستها . وسرعان ما اضطرت نادكا وزوجها فيتيا الى العيش في عائلة منفصلة . اقارب نادكا يسكنون في مكان ما قرب نهر لينا . اما في اناماتوفكا فكانوا يعتبرونها نازحة لحربية . ولقد حالفها الحظ في الزواج من فيتيا . فهو كدود هادئ طيب القلب . ومهما تمادت نادكا في صياحها ولعلعتها فهو يسمع خصلته الشقراء التي تتدلى على جبهته ويبتسم . وعندما يمل من ذلك يحتضنها مازحا ويضرب ردفها براحته الواسعة كاسحول فتهدا نادكا . والحقيقة انها ليست متماكسة . فهي مصياح لا اكثر . وحيثما توجد نادكا يتعالى من كل بد لغط وصر وقهقهة ونوادر تعاني هي من عواقبها اكثر من الآخريات . ولكن ذلك لا يتعالى بدونها . ولولا الحرب لرق فؤادها ولاصبحت اكثر لينا قرب اطفالها وقرب فيتيا . كانت الامور في الآونة الاخيرة قد سارت في هذا الاتجاه . لولا الحرب ولولا مقتل فيتيا في اول شتاء منها . حيث صعق نادكا وجعل قلبها جاسئا . فراحت تبكي وتنوح لوفاة فيتيا حتى ان الدم تجمد في العروق من صراخها . كانت نادكا قد وضعت لتوها . وكان الآخرون يحملونها على الذهاب الى البيت لارضاع طفلتها . بينما نظر هي تارة الى الغابة وتارة الى الشاطئ . وكان اهل اناماتوفكا يخشون جدها من انها

قد تنتحر . الا انهم اخطاوا الظن . فلقد تالمت نادكا وحزنت ، ولكنها ذهبت الى العمل لتكد وتكدح من اجل اطعام اطفالها . فلا احد يمكنها ان تعول عليه . فان حياتها التي كرهتها اشد الكراهية لم تتقبل احداقها . ومهما بذلت نادكا من جهود فان الفاقة اخذت بخناقها . والقبح الاضافي الشخصي لعوائل الشهداء استلمته منذ الشتاء ، وفيما بعد راحت تكد وتكدح يوما بعد يوم ولم يكلفها ما تكسبه لا لقمة الرمق ولا لشراء الالبسة . الاطفال كلهم يتسببون فيئيا : شقاء ، ميالون للقصف . ثم ان الحرب وطباع نادكا المهزوزة جعلتهم عادلين خجولين خائفين ، حتى بدا وكانهم انفسهم لا يصدقون بانهم سيظلون على قيد الحياة . يخرجون تلاثتهم من بوابة السياج ويتطلعون الى الشارع في انتظار امهم . ومظهر هؤلاء اليتامى الساكين يثير الشفقة لدى الانسان الطيب حتى يعتصر قلبه الما فينادي ذلك الشخص رودكا ويتمشى معه ويمسي في يده شيئا . ويرفض رودكا ، تصوروا انه يرفض . ناستيونا تعطف على اطفال نادكا على قدر الستطاع ، وخصوصا الصغيرة ليدكا . ولكنها في الاسابيع الاخيرة نسيتهم تقريبا بسبب حبيبتها . والآن احست ناستيونا بذنبها لزاء هؤلاء الاطفال وهي ترفع ليدكا المنتحبة من الارضية الى السرير .

حل الغسق اثناء الوقت الذي صرفته ناستيونا في انتظار نادكا . وتجمد الثلج ، بعد ان لعبا هنا في دفء النهار ، وراح يصر تحت الاقدام صريرا مريحا . بدا الطرق السفلي من القرية خاليا مواتا ، فلا صوت ولا نامة ، سوى ضوء خافت ينبعث من نوافذ المجالز في بعض المنازل . وحتى الكلاب هرعت الى منزل فولوشين ، وتهادى من هناك نباحها الفرح المختلط . كما تهادى من هناك لغط الاطفال وصياحهم . سارت ناستيونا ونادكا صامتتين بمشية مهيبة دون تكلف ، وقد احتواهما جو الفرحة العارمة التي اجتاحت الجميع . فللاول مرة وصل من الجبهة ، من المعارك الطاحنة ، شخص حي ليظل معهن . وصل كرسول وبشير من جميع الرجال : قريبا ، يا نساء ، قريبا جدا . قريبا سينتهي كل شيء بصورة نهائية . فمن قدر لها ان تنوح وتندب آخر امل

لها . للتنح وتنتحب . ومن قدر لها ان تفرح للتفرح . ولكن على الجميع ان يبدأوا حياة جديدة .

كان منزل فولوفيجين صاخبا فاعما بالناس . ومن سقف مغرفة الاستقبال الواسعة تتدلى مصباحان كبيران ينيران المائدة . وعلى راس المائدة جلس هو ، مكسيم . بها نحيلا اسمر الوجه بشعر قصير حليق كشعر السجناء وعينين واسعتين تفرحهما السعادة والفرحة والحيرة . يده اليمنى مضمدة لتتدلى من رباط شاش اتكل رأسه . وعلى جانبه الايسر جلست ابنته فيركا . وهي ابنته الصغرى في ربيعها السادس . جلست على ركبتيه وراحت تداعب المداليات على قصعة ابيها . اقتربت نادكا اولا وصافحت مكسيم تحية :

- اهنئك بالعودة !

وكررت ناستيونا على اثرها :

- اهنئك بالعودة .

جلس الشيوخ والنساء على مصاطب حول طاولتين صفتا معا فتشكلت منهما المائدة . والى يمين مكسيم جلس نسطور المنتشي بالخمر بعد ان دس بدنه النقيل بينه وبين والده . الشيخ يليم . وكأنه صديقه الحميم . والى يسار مكسيم خصص مكان لليزا . ولكنها ما كانت لتستطيع اكثر من التراكض فيما بين المطبخ وغرفة الاستقبال . ليزا تشع نورا ينبعث من وجهها الشاحب الكئيب عادة ، ومن عينيها اللتين تغصان بالفرحة ، ومن صدرها المكور تحت القميص الازرق . النور ينبعث بكل طاقته من كل شيء فيها . اجلست ناستيونا ونادكا ولم تضبط اعصابها فعانقتها وعصرتها وصاحت قائلة :

- في الصباح لم اكن اعرف شيئا . كنا ننظف الشعير سوية . الشعير . . . - بلعت ريقها وضحكت واضرقت مسرعة .

ابتسم مكسيم وتطلع اليهما . الى ناستيونا ونادكا . جلستا قبالته عند الجانب الآخر ، البعيد ، من المائدة . لفتت ناستيونا الطرف وسمعت مكسيم يسألها :

- وانت ، يا ناستيونا ، متى ستستقبلين زوجك ؟

انكمشت ناستيونا واحنت وجهها فاجابت باكثر ما تستطيع من الهدوء ودون ان ترفع راسها فورا :

– لم اعد اصدق باننا سنتلاقى . لقد ضاع رجل فى مكان ما . . .

– من ؟ اندرى ضاع ؟

– رقد فى المستشفى . . . كان جريحا ايضا . وبعد ذلك بعثوه من جديد الى الجبهة – تكلمت ناستيونا وهى تحس اكثر من اى شىء آخر بنظرة اينوكينتى ايفانوفيتش المتلهفة المسلطة عليها – ومنذ ذلك الحين لا خبر جاء ولا وحى نزل . لا ادرى . . . لا اعرف شيئا .

– لا بأس ، سيجدونه .

– الحقيقة . . . لقد ضاع فعلا – شرع اينوكينتى يوضح القضية متطلعا الى ناستيونا بين الحين والآخر – فطالما جاءوا الينا من اجل التحقيق فى الامر وسألونا ، فذلك يعنى انه غير موجود ، حسب الوثائق ، فى اى مكان .

– ربما اخطوه فى الطريق الى وحدة اخرى . فذلك يحدث كثيرا . اما الرسائل فلا تصل كلها الآن – قال مكسيم واثقا ، فشعرت ناستيونا بالارتياح لهذه الثقة وكأنها لا تعرف عن اندرى شيئا بالفعل .

من اين لليزا بكل هذا الطعام ؟ فهى لم تكن تنتظر ولم تكن تعرف شيئا ، ولكن المائدة جاهزة . واضح انهم ذبحوا الدجاج اليوم . غير ان البنى السلح اعد فى الصيف واحتفظوا به ، على ما يبدو ، لهذه المناسبة . وكذلك العرق المنزلى الذى عتق فى هذه الغابية اعواما . كذلك هو الحال عند الاخريات اللواتى ينتظرن من ظلوا على قيد الحياة : يجوعن انفسهن ولا يطعمن الاطفال بالقدر الكافى لكى يحتفظن بشىء من الطعام لهذا اللقاء . وما اكثر الدموع التى ذرفنها بعضهن من اجل هذا الاحتياطى ! فى الخريف الماضى تسللت الهافيا سرموفا اشعارا بمقتل ابنها . لبكت وولولت فى الايام الاولى ثم جمعت النسوة واخرجت الكحول الذى طواه النسيان ايام الحرب واعدت مختلف الاكلات بالاضافة الى الزلابية والمهلبية ، وشربوا الكحول فى مأتم التابين . لم يكن

ذلك حال الغائبا وحدها . فان عددهن كثير . ولا يعرف بعد من التي اعد لها المصير مثل هذه النهايـــة . ولعد الآن ليزا هي الوحيدة التي لم تخطئ بهذا الخصوص .

صبت ليزا المزيد من العرق في الاقداح ثم الصقت العالدة . وهم نسطور بالانشاد . ولكن احدا لم ينشد من لزوه . بل ان احدا لم ينتبه اليه عموما . وترك بعض الشيوخ العالدة وجلســـوا الفرفساء قرب الجدار وراحوا يدخنون . وفي مكانهم هذا استلموا الاقداح من ليزا دون ان ينهضوا وطرقوا اقداحهم بعضها ببعض اشارة الى مواصلة الشرب . ونهض اينوكينتي ايفانوفيتش وجلس قرب مكسيم وبدا يتحدث معه في جد عن اميركا — كيف تحارب ؟ ومتى يمكن توقع اندلاع الثورة هناك ؟ كان مكسيم يجيب على مضض ، اذ كان واضحـــا ان اينوكينتي ايفانوفيتش يعرف عن ذلك اكثر ، وخصوصا عن الثورة . راود الناس فيركا في حضن ابيها . وارادت ليزا ان تحملها الى السرير ، ولكن فيركا تشبثت بابيها وصرخت ، فتركتها لهما وشانها . وسال احدهم ، وراح مكسيم يجيب ، ولعله يجيب ليس للمرة الاولى كما يبدو ، كيف ارادوا ان يبتروا يده في المستشفى ، ولكنه رفض رفضا باتا . لانـــها وانها اليد الرئيســـية ، اليمنى وليـــس اليـــسرى ، وبدونهـــا يغدو المرء عاجزا كليا . الا انه يتعين عليه الآن الاهتمام بها طوال الوقت . وبعد ان تجرعت نادكا قدحـــا من العرق سالت باهتمام :

— هل يمكن . . . هل يمكن ازاحتها الى جانب ؟

— الى اي جانب ؟ لماذا ؟

— في الليل الن تعيقك ؟

ضحك مكسيم واجاب :

— اذا كانت ستعيقني فان ليزا تبترها .

فاعلن نسطور مغمورا :

— سأطردك من التعاونية ، يا نادكا ، بسبب هذا الحديث .

— انحنا بسكونك يا طراد . فربما يطردونك انت — احتاجت نادكا ، ولكن بدون حقد ، من اجل النكتة فقط — سياتي الرجال

وسيلفنوتك درسا . كفاك تامرا وتسلطا على النساء . ولذهب الى حيث اللات رحلها . . .

– هل تسلطت عليكن يا نساء ؟ هل تسلطت ؟ – تشكى نسطور بزعل .

ولزمت النساء الصمت .

– لا تنصت الى ما تقول – هبت فاسيليسا وروحوا للدفاع عن نسطور . وهى امراة بدينة قليلة الحركة لم يصبها الهزال اطلاقا اثناء الحرب . ولها صوت جهورى كالبين ايضا . ولقد اعتاد اهل القرية على لقبها باسم فاسيليسا الحكيمة * .

– كيف لا ينصت ؟ اليس ذلك صحيحا ؟

– لا ينبغى ان تقول لعلم الناس ، يا نادكا . كل ما ياتى على طرف لسانك – نصحتها فاسيليسا الحكيمة بلهجة مهيبة – ما كاد يصل الجندى من الجبهة ويجتاز عتبة داره حتى بدات تلحين له .

– اى تلحين ؟ ان اول ما يفعله بالطبع هو ان يجلس طول الليل يستمع الى الحكايات التى تقصها عليه وينسى ليزا . يدهن فقط جريحة ، على ما يبدو ، اما كل ما تبقى فهو على ما يرام .

ضحك مكسيم من جديد ، وقهقه الشيوخ على اثره قهقهة مغلوطة بالسعال . واستمرت نادكا فى الهجوم :

– انا اعرف ، يا فاسيليسا ، انك تخافين منى . وانت على حق . فعندما يصل فاغريلا ساتعلق فى رقبته بسرعة . فانا اصغر منك سنا ، ولن تستطيعين ان تنافسينى .

– انتى واثقة من فاغريلا – اجابت فاسيليسا ساخرة .

– ما الذى يجعلك واثقة ؟ فهل هو لديكن ؟

– ليس لدينا ، ولكنه لن يلتفت اليك . ما الذى يجعله يستبدل طير الجنة بطائر ابلق ؟ انت طائر لا تعرفين غير الثرثرة .

– انظروا الى هذه النسابيه ! – ضحكت نادكا مسرورة على عجل – انا طائر ، ربما . ولكن من اين جاء طير الجنة هذا ؟ اليس هو ذلك الطائر الاسود الذى لا يعرف غير النميق ؟

* حكاية احدى الحكايات الروسية . المترجم .

– كلا ، يا نادكا ، – تدخل ايفوكينتي ايفانوفيتش في الحوار وسالت على لحيته الشقراء ابتسامة مخادعة – لن تتمكن من نبش التربة تحت فاسيليسا فاساسها عميق متين . وفاسيليسا بعيدة طروده من الجبهة ليس اليك . كم طردا بعت هذا العام ، خمسة ؟ – التفت الى فاسيليسا – او اكثر ؟

ارتبكت فاسيليسا وقالت :

– لم اعدها .

فعلقت نادكا بسخرية :

– انها لم تفتحها . فهي تستخدمها بدلا من الحصالب .

– ليس من اختصاصك كيف استخدمها .

غير ان نادكا اطلقت العنان للسانها ولم يعد من اليسير ايقافها . وسالت من ليزا :

– كم طردا استلمت من جنديك ؟

– لم استلم ولا طردا واحدا .

– لو كنت بدلك لما سمحت له بان يجتاز عتبة الدار . فلماذا تبقين حمقاء كالطير المنتوف ؟ ولماذا انت فرحانة ؟

– لست بحاجة الى اية طرود – ضحكت ليزا سعيدة – قلت اليوم : فلننحر البقرة . وابي شاهد . قلت : فلننحر البقرة حتى نحتفل بالشكل اللائق . ولكنهم نهروني . فقلت : اذبحوا . اذن ، كل الدجاجات كيلا اراها بعد الآن . ارادوا ان يطعموا حتى الدجاج . سنستعيد ذلك كله ان شاء الله ما دمنا معا . فانا لوحدي كدت اهلك واموت من الحزن . وكدت انتحر .

– كدت تهلكين ؟ – سالت نادكا مصطنعة كلامها ، ومستهزئة اياها لمواصلة الكلام :

– كدت اهلك ، اهلك .

– وكدت تنتحرين ؟

– نعم .

– لماذا تمثلين وتتظاهرين ، يا ليزا ؟ – واصلت نادكا كلامها بحذر ، ثم لقد صبرها وارتعش صوتها غيظا وارتفع : – فهل يعني ذلك ان علي انا وكالبرينا وفيرا وكاييتولينا ان ننتحر جميعا ؟ وهل تعتقدين بانك كنت تحبين زوجك اكثر من الاخريات ،

وانك انتظرتيه اكثر مما انتظرن ؟ وهل تظنين باننا نحن ضيعناهم ؟ قالت . يا ليزا . لا تعرفين جيدا ماذا حل بنا . ولذا فلا تقولي شيئا . الانتحار ليس بالشيء الصعب . ولكن الاطفال . ماذا افعل بهم ؟ لم يخلف في هذه الدنيا غير الاطفال فهل يجوز ان يهلكوا ؟ انت لا تعرفين كيف احترق كل شيء في الفؤاد وتفحم فلم يعد يؤلم . ولكن الفحم ينساب ويغطي كل المسامات . . . زالت ستعيشين لمرأة وزوجة . وستعانقين وتقبلين . اما انا فلا . انني مجرد يد عاملة . وسيلة لسد الفقرات . مجرد بقرة حلوب . اما حياتي الخاصة فقد انتهت . ولو كنت اعلم بهذه النتيجة لتمتعت بالحياة في السابق لكي يبقى في الذاكرة ما يستحق ان اتذكره . فقد كنت اؤجل كل شيء الى ما بعد . حتى تأخرت في التمتع بالحياة الرغيدة . اما الآن فكل ما اتذكره هو الهرب . ولا شيء يمكن ان يمحوها من الذاكرة . كل ما عداها تبخر وجف فهو غير موجود .

شعرت ليزا ببعض الذنب فقالت :

— اوى . معذورة يا عزيزاني . قربما قلت ما لا يليق .

— من الذي يلومك ؟ عيني بدلا عنا جميعا ما دمت محظوظة . ولكن احذري : اذا تصرفت بسوء فلن نرحمك . اؤكد لك : لن نرحمك . وانا اول من يحطم لك بترا . فلسنا مذنبات في ان ازواجنا سلطوا عنانك . الست محظة . يا عزيزي مكسيم ؟ لسنا مذنبات . اليس كذلك ؟

— بلى .

— نعم . لنا كل الحق في الحقد على مصيرنا . وسنحقد عليه حتى الموت . اما انت . يا ليزا . فليس لديك سبب لذلك . ينبغي لكما الآن ان تعيشا وتفرحا بالحياة . وكل شيء يتوقف عليكما وحدكما . واذا اخفقتما فسوف تقولين لنا . قبل غيرنا . ان مثل ذلك يمكن ان يحدث معي او مع هذه او مع تلك لو ان القدر راق بنا . فاعلمي انه يجب علينا ان نسمع ذلك . ونحن لا نريد ان نسمع به اطلاقا . هل انت فاهمة ؟

فتح الباب بصخب وهرع الاطفال الى المنزل . صاحت ليزا بطردهم . ولكنهم صاحوا بصوت واحد :

- هذا الولد لم يستلم .
- الآن جاء .
- يا عم مكسيم . هذا الولد لم يستلم .

ودفع الصبية رودكا الى السائقة . اختارت نادكا صالحة عندما رأته :

- كيف جئت ؟ بماذا امرتك ؟ ماذا قلت لك ؟ اذهب من هنا . حالا .

لم يتحرك رودكا من مكانه وظل يحملق بمكسيم باهتمام ممزوج بتعطش . تلاقت نظرة مكسيم مع نظرة رودكا عندئذ فوضع ابنته على الارضية بهدوء ونهض . وسأل بصوت مكبوت ابح بعض الشيء :

- انت رودكا ؟

هز رودكا رأسه بالايجاب على عجل . فاقترب منه مكسيم ومد له يده السليمة :

- مرحبا اذن . انظروا كيف نما بسرعة . انه رجل لا يعوزه شيء . لماذا تأخرت ؟ - تناول من الرف كعكة مستديرة مزخرفة . كالكعكات التي اعدها لجميع الاطفال وسلمها لرودكا الذي اخذها منه - تلك هي الهدية وليس عندي اكثر . كلها يا عزيزي . فهي لذيذة . وغدا تعال الي اذا كان لديك وقت وستتحدث . اما اليوم فليس هناك مجال كما ترى . هل ستاتي غدا ؟

هز رودكا رأسه من جديد وتراجع الى العتبة . فالتف الاطفال حوله وخرجوا صاخبين .

عاد مكسيم الى مقعده وهو يكرر بدهشة كئيبة :

- كيف نما بسرعة ؟

- انهم ينمون . - اكد نسطور بحماس . وهو كعادته متعطش للمبادرة الى الكلام - انهم ينمون بالرغم من الحرب .

- هل ستنتهي الحرب قريبا ؟ - سألت ليزا - انت يا عزيزي مكسيم عالم من هناك . قل لنا هل سيطول الانتظار ؟

- بالنسبة لك الحرب انتهت - قالت نادكا بصوت خافت . ولكن ليزا سمعتها رغم ذلك وزعقت :

– لماذا تعتقدين بانها انتهت بالنسبة لى ؟ هل تتصورين انه لا يعنينى شىء طالما هو هنا ؟ انك تثيرين دهشتى . فانا لست قاسية القلب الفرح لسعادتى ولم تعاسة الجميع . ولا اعيش فى ضيعة منعزلة فلا ارى ابعد من طرف انفى . اننى اعيش مع الناس .

– قريبا ، يا نساء ، قريبا – اجاب مكسيم – انتم تعرفون ان لوانتا وصلت الى الغايا نفسها . وسوف تسحقهم نهائيا .

– افلا يعودون ؟ الالمان وصلوا الى ضواحى موسكو وطردناهم .

– كيف يعودون ؟ – ضيق مكسيم جفونه واعتدل منتصبا الى الامام وكانه يحدق فى الفق لا يعرفه لخيره . ولد اعوج وجهه بعض الشىء – كلا ، لن يعودوا ، يا ليزا . سأذهب الى الجبهة مجددا بيد واحدة ، وسيتوجه اليها ميتورو الارجل والمشوهون ، ولن نسمح للالمان بالعودة . كفاية . لا يمكن ان يعودوا ، لن نسمح لهم بالعودة . فلسنا من الذين يسمحون للمعتدى بالعودة .

وهزت فاسيليسا الحكيمة راسها :

– لربما لعوامل ، اليست كافية ؟ ثم اننا نحن هنا تضررنا ايضا .

لم تفوت نادكا لها هذا الكلام :

– لا يبدو من مظهرك انك تضررت .

– آه ، يا نادكا . . . من اين اجد الذى يقص لسانك ؟ الحديث جدى ، اما هى فتتدخل فيه بتغزلاتها .

– تضررنا نحن ايضا – علقت ليزا – اليس صحيحا يا نساء ؟ ان مجرد تذكر ذلك يثير اشد الالام . العمل فى التعاونية شىء طبيعى . ولكن حالما ننتهى من جمع الغلة يتساقط الثلج ونعمل فى اعماد الاخشاب . لن انسى تلك الاخشاب مدى الحياة . الطرق مسدودة ، والثيران مرهقة عاجزة عن السحب . ولا يمكن رفض العمل : فان جبهة العمل عون لرجالنا . تركنا اطفالنا الصغار فى السنوات الاولى . . . ومن ليس لديه اطفال او ان اطفاله اكبر سنا فقد عمل ليل نهار . هذه تاستيرنا لم تفوت ولا شتاءا واحدا . وحتى انا عملت شتائين .

تركت الاطفال على والدى . وصلت . نكمش الاخشاب . تلك الامتار السكبة . على الزحافات ونسك بالرمح . لبدون الرمح لا نخطو خطوة واحدة . اذ ان الزحافة تارة تميل نحو اكوام الثلج . وتارة تميل الى منخفض . ولا من معين . يا نساء وجهن الزحافة بالرمح . هيا . هيا خلصن الزحافة بكل ما عندكن من قوة ونخلص الزحافة مرة . ولا نخلصها مرة اخرى . ها هى للستيونا شاهدة . فى شتاء العام الاسبق كانت فرسى عابطة من التلة بسرعة ولم تستطع ان تستدير بالشكل اللازم عند المنعطف . فانقلبت الزحافة على جنبها وغاصت فى الثلج وكادت تكسر قوائم الفرس . بذلت كل جهدى لتخليص الزحافة فلم اتمكن . خلعت فراى فجلست على الدرب ابكى وانتحب . وبعد ذلك وصلت ناستيونا . ورات دموعى تجرى على خدى . — المرورقت عينا ليزا بالدموع — فساعدتنى . وتوجهنا معا . ولكننى لم استطع ان اكف عن البكاء . — راحت ليزا تنتحب متأثرة بالذكريات — كنت ابكى وابكى ولا اتمكن ان افعل شيئا .

— ليزا . يا ليزا ! — ناداها مكسيم لتكف عن البكاء .

— حسنا . يا عزيزى مكسيم . لن ابكى . بكيت بسبب لبانى . تحدثوا انتم ولن اقاطعكم — ذهبت الى المطبخ وعادت فى الحال ووقفت فى نفس المكان عند طرف المائدة . خطرية متأثرة وعاجزة عن السكوت . فقالت : — والسنفات . هل تتذكرون السنفات ؟ اخذنا آخر بقايا البطاطس فى الربيع لنبيعها فى كاردا على العاملين فى تخزين الاخشاب لكى نسعد ما علينا من اثمان السنفات حتى نساعد المحاربين فى الجبهة . ونحن نعتقد بان مساعدتنا ستسهل عليهم الامور هناك ولو قليلا . اما نحن هنا فسنعيش على اى حال . لا احد يطلق الرصاص علينا ولا احد يقتلنا . استعطف الله لان لا يرى القاتلون الالمان الملاعين الهدوء فى الآخرة ايضا . فليلتعنوا جزاعهم على كل شىء . على كل مصائبنا .

التفتت نادكا الى ليزا متسائلة :

— لا ادرى من التى وصل زوجها اليوم . انا ام انت ؟

— انا . يا نادكا . انا . لن ابكى بعد الآن .

- كل شيء عندكم بالمقلوب . - دعدم لسطور الحضور مفتاحا - ما الم بكم من بشر ! ودعتم الرجال الى الجبهة وانتم تغنون ، ونستقبل العائد كما في مأتم . سمحنا نادكا بما فيه الكفاية . فلننشد الآن .

تسللت نادكا ، ولكن الوقت لم يتسع لها كي ترد عليه . فقد بدأت ليزا ، من وراء ظهر ناستيونا ، تنشد اغنية «كاتيوشا» بصوت جهوري يرتعش قليلا من التأثر والدموع . ورددد الآخرون مطلع الاغنية ، وكان في مقدمتهم اينوكينتي ايفانوفيتش . غير ان الشيوخ المزورين عند الجدار ظلوا يتمتمون فيما بينهم بهدوء . وانشدت فاسيليسا الحكيمة ، وانشد مكسيم ، وراح لسطور يلوح بيديه مرجعا النغم . اشتركت نادكا في الانشاد بعد ان تمللت قليلا ، ثم لم تتمالك نفسها فالقت برأسها على السائدة وراحت ترتعش في نحيب شديد . عانقتها ليزا من كتفيها من الخلف ورفعت «كاتيوشا» الى اعلى فلم تتمكن الاغنية حتى عندما لعلعت نادكا في النحيب فيرا اورلوفا التي راحت تبكي بصوت اشد . رفعت لنادكا رأسها ، واخذت تدح ناستيونا الملء بالعرق وتجرعته دفعة واحدة ، وانشدت من جديد دون ان تمسح دموعها .

لزمت ناستيونا الصمت منطوية على نفسها . لم تستطع لا ان تتحمل ولا ان تبكي ولا ان تشرب مع الآخرين . فقد ادركت اكثر مما في السابق انه لا يجوز لها القيام باي شيء من ذلك . فليس لها حق فيه . وكل ما تفعله سيكون خداعا وتضليلا . لم يبق لها الا ان تستمع وتتطلع بحذر الى ما يقوله الآخرون وما يفعلونه ، دون ان تفضح سرها ودون ان تثير الانتباه . لقد اسفت لمجيئها الى هنا ، ولكن ليس من اللائق الانصراف . الكل هنا متفتح امام الانظار : ليزا السعيدة الفرحة ومكسيم المندهش لوجوده بين جدران منزله وسط اهله وذويه ، وتسطور المرتبك المتحير الذي انقلبت احواله في غضون يوم واحد ، ومحاسب النمارنية اينوكينتي ايفانوفيتش المتظاهر بالذكاء وسعة الاطلاع والذي يحاول ان يعرف كل شيء قبل الآخرين ، وفاسيليسا الحكيمة الواثقة من نفسها والتي تخطو في حياتها برزانة واطمئنان ، ونادكا السادجة المتماكسة - كلهم مكتوفون صريحون منتهى

الصراحة . واذا كانوا يغفرون شيئا – والانسان لا بد وان يغفر شيئا – فان ذلك هو القليل الذى يسير حياتهم الشخصية ويشترون عليه بمقتضى الحاجة . اما ناستيونا فقد اخفت شيئا يسير الجميع لسبب ما . وهو موجه ضد الجميع مهما كان النصيب الذى جاءوا به الى حفلة اليوم . انه موجه ضد نادكا . وضد فاسيليسا الحكيمة . وحتى ضد ليزا . فهذا السر وحد بينهن وفصل ناستيونا عنهن . وهن يعتبرنها واحدة منهن بقوة الاستمرارية وبالعادة . فى حين انها صارت غريبة عليهن ولا يحق لها ان تستجيب لدموعهن ولافراحهن ولا تتجرأ على الدخول معهن فى حديث او فى انشاد الخنية .

نادكا تراوغ عندما تقول بانها ليست هى التى ضيعت فيتيا . وانه سقط برصاصة العدو بشيئته . انها تتحدث عن ذلك وتتساءل عنه لانها بالذات تشعر بذنبها . ربما لا تعرف على وجه الدقة فيم يكمن ذنبها . ولا تفهم كيف كان بالامكان مساعدة فيتيا . ولكنها تشعر بذنبها وتتألم . ولربما كانت ابتهالاتها اقل من اللازم . ولربما تألمت له وفكرت فيه اقل من اللازم . فلماذا تكلل انتظار ليزا . واخفق انتظارها هى ؟ لماذا لا يتبادر الى فاسيليسا الحكيمة شك فى ان زوجها فاقريلا سيعود سالما معافى رغم ان الحرب لم تضع اوزارها بعد ؟ وسيعود فعلا . فان اناسا من طراز فاسيليسا الحكيمة وفاقريلا لن يحدث لهم شىء . سينقرض الجميع ويهلكون . اما هما فسيظلان معا يواصلان حياتهما المطمئنة . فلماذا تسير الامور على هذه الشاكلة ؟ لا بد من وجود سبب يتوقف على المرأة ايضا . لقد جهدت المرأة منذ القدم . على ما يبدو . لحل هذا اللغز وحاولت كشف هذا السر بنفسها دون التحويل على الصدفة والحظ فقط . وضاعت كل جهودها هباءا . فمن عصر لآخر كانت كل امرأة تستعين بحدسها وبتعويذتها الجامحة الصباء الشهية . واذا لم يكن ذلك كافيا او متوفرا لديها فانها تتعذب وتتألى من الشعور بالذنب .

تعتقد ناستيونا هى الاخرى بان لها ضلعا فى مصير اندرى منذ ان غادر المنزل . فهى تتصور خائفة بانها عاشت . على ما يبدو . من اجل نفسها وكانت تنتظره من اجلها وحدها . وها هى النتيجة :

خلق . يا ناستيونا . ولكن لا تريه لاحد . انها وحيدة . وحيدة تماما بين الناس : فلا ينبغي ان تتحدث او تبكي مع احد . يجب ان تحتفظ بكل شيء في دخيلتها . ولكن ما العمل ايها بعد ؟ كيف يمكن انقاذه من هذه البلية ؟ كيف ستعيش لتساعده دون ان تغطي ودون ان تضل سواء السبيل ؟ انها الآن مسؤولة عن كل ما يحدث له .

انسحبت من المائدة خلسة وخرجت الى الشارع . كان الوقت متأخرا . اوى الاطفال الى منازلهم ولاذت الكلاب باهلها . وعم الظلام والصمت الطرف السفلي من القرية . ولفت ناستيونا برعة قرب نوافذ منزل فولوخجين الحمراء التي انبعثت منها انغام الاغنية . ثم استدارت نحو الزقاق المؤدي الى النهر . وشعرت بالارتياح لخلو الزقاق من الناس . وهزت راسها لائمة : الى اين وصلت ؟ في الماضي كنت تنشدين العزاء عند الناس . اما الآن فانت . على العكس . تهربين منهم . خفت الالم في داخلها . ولكن احساسها ظلت تتصاعد بانين ينم عن المرارة والشكوى . لطمت ناستيونا نفسها عميقا بيد الصدر فاخمدت هذا الانين المنبعث تلقائيا . واوسعت خطاها على الجليد متعثرة على طول الشاطئ ومتحاشية الشقوق والحفر في الجليد . كانت تسير وتتطلع طوال الوقت الى الشاطئ المقابل . الى ذلك الركن الموات الذي لا يكاد يلاحظ من وراء الجزيرة . والذي يضم اندرى واثقة ومتشككة . متأكدة وغير متأكدة من انه موجود هنا ليس بعيدا عنها . وفي لحظة لاواعية متفائلة من سيطرتها تصورت انها ابتدعت وتخيلت كل شيء قبل دقيقة . فان عودة مكسيم خيال وهرب اندرى خيال . تصورت ذلك مجرد تصور وصدقت تصوراتها تلك . واذا توجهت الى اندريفسكويه الآن لن تجد احدا . بيد ان تلك الفكرة الثقيلة تلاشت فورا ولم تخلف الا الاسى والكرب . واغرقت الطبقة القاسية التي لا ترحم : فهي لم تبتدع ولم تتخيل شيئا . ذلك هو الواقع .

وعلى الشاطئ المقابل لمنزلها صعدت الى الضفة العالية والتفتت للمرة الاخيرة باتجاه اندريفسكويه وتوجهت بخطى متثاقلة الى المنزل . فقد كان عليها ان تخبر ميخيتش بان مكسيم

لا يعرف شيئا عن الذرى . ولا يعرف احد عنه شيئا . ما عدا هى . ذلك ما يجب ان لا تذكره فى اى حال من الاحوال .

١٠

فى الضحى ما كانت ناستيونا لتوى اللحاب الى ايما مكان . ولكن عاصفة ثلجية هبت عند الظهر . فتذكرت ناستيونا ان الما فى البرميل للبيل ، وطالما ان الطقس لم يهدأ حتى النهاية فلقد اسرعت الى النهر . كانت الريح القارسة تهب بشدة على الفلوا . وكان الثلج اللزج الرطب يتطاير الى اعلى بتيار عكر شديد ، كما يتطاير الى اسفل بريح الشمال . تطلعت ناستيونا ، كعادتها ، الى الشاطئ الآخر الغارق فى الضوضاء الثلجية . وفكرت بانها لو ذهبت الى هناك الآن بسرعة فلن يراها احد . فكرت للحظة ودون قصد معين ، بيد ان قلبها تشبث بهذه الفكرة العابرة وانتظر : ماذا لو ذهبت حقا ؟ ماذا لو ذهبت ولم كل شيء ؟ فمتى ستحين مثل هذه الفرصة الثانيـــة ؟ عادت بالماء على عجل ، وصـــت على اللحاب من كل بد منصاعة لنجاتها الشديدة . واثار لديها هذا التصميم الفاجئ فرحة مستبدة عارمة . وخيل اليها انه لو حاول اى كان ان يعيقها عن اللحاب لخدعته وذهبت من كل بد .

غير ان احدا لم يحاول ان يعيقها . ميخيتش فى الاسطبل . وسيميونوفنا ، كالعادة ، راقدة على دكة الفرن . اخرجت ناستيونا من الســرداب فى الحال دلوا من البطاطس ووضعت قسما منها فى قدر كيلا يلتصق المجوزان اذا ارادا سلق البطاطس فى المساء . اما الباقى فوضعته فى حقيبة مشمعة ، واسرعت الى العنبـــر واحضرت كيس الحمص الذى خباته مسبقا . والتطمت من رغيف الخبز نصفه . الخبز اصفر مخلوط بالحمص . فقد عم القرية كلها عهد الحمص والحياة الحمصية . لقد كفتق سخاء التعاونية مؤخرا فخصصت للعاملين فيها حوالى طن من الحمص . فصاروا يتناولون حساء الحمص مـــع الخبز المخلوط بدقيقـــه ويأكلون الحمص المسلوق .

استعدت ناستيونا بسرعة حيث استبدلت العلاء الذى ارتدته في الصباح بجزمة اللبـــاد . واستبدلت الصديرى بسترة من الفليفة . وتطلعت في المرآة لحظة باستحياء . ولعل اجتيـــاز النهر بالصديرى الفضل . ولكنها ارادت ان تبدو اكثر اناقة امام زوجها . وهو ربما لن يلاحظ شيئا . فلا يوجد هناك من يقارنها به . غير انها في فستان يوم العطلة تشعر بالانسجام وحســـن الهندام . فعندما تخلع بدلة العمل تخلع معها ثقلا مرهقا وتبعية ثقيلة كعدة الخيل هي تبعية العمل حيث لا تدرى هل هي امرأة ام لا . ولا تتذكر في اى سن هي وماذا في فؤادها . انها لا تتذكر آنذاك شيئا غير الكد والكدح والعمل الثقيل . ولذلك اعتـــادت ناستيونا في المســاء . بعد انتهاء الانشغال . ان ترتدى ولو لامد قصير ملابس نظيفة . وعند ذاك يعاودها . عفويا . الاحســـاس بالفترة والجمال . تلك الثروة المنقلبـــة الاطوار التى تتلاشى بسرعة كلما اخلتها المرآة ونسيتها . وعندما ترتدى ناستيونا ملابسها تلك تتهادى بحذر وكأنها تخشى الاضرار بشيء في دخيلتها وتبتسم برقة وخفر وكأنها تحافظ من جديد على سر خاص بها وحدها ولم يحن بعد موعد افشائه . وفي تلك اللحظات ما كانت تتهادن مع الحرب والقاقة والوحدة . ولكنها تحافظ على نفســـها وتصدها من اجل الحياة السعيدة المرتقبة . فناستيونا تعرف ان الانســان يشيخ بمرور الزمن . ولكن اكثر ما تخشاه هو ان تبرد الروح قبل الاوان . فما اكثر الناس . الاصحاء الاقوياء . الذين لا يقرأون بين مشاعرهم الخاصـــة التى وهبهم الله اياها وبين المشاعر العامة . مشاعر الشـــارع . هؤلاء الناس يأوون الى مضاجعهم بنفس الارتياح المنفتح على كل شيء والذى يجلســون به الى موائد الطعام : من اجل الشبع لا لغير . واذا ما بكوا او ضحكوا يتطلعون الى ما حواليهم كى يتأكدوا : هل يرى الآخرون سرورهم او هل يشعرون بكآبتهم ؟ والا فمن المؤسف ان يذرفوا الدموع جزافا . لقد مات كل شيء فيهم . واذا لمست اى وتر فيهم لن يلهبوا ولن يستجيبوا . ولن يرن ذلك الوتر استجابـــة لارتعاشة النير . فقـــد فات الاوان . وتحجرت الاوتار . وهم انفسهم لا يشعرون وترا لدى الآخرين . والسبب في ذلك انهم لم

يستطيعوا في حينه او لم يريدوا ان يبادروا على انفراد مع انفسهم ، نسوا انفسهم وضيعوها . ولم يعد هنـــاك مجال للتذكر . فلن يتذكروا انفسهم ولن يجدوها .

لم تصرف ناستيونا في التهيؤ اكثر من عشر دقائق بعث لها ساعة كاملة . فلقد كانت توالة جدا للذهاب . اخذت الحقيبـــه اخيرا وانطلقت الى الشارع وتوقفت لحظة وتطلعت الى الجوانب على عجل واستعدت لمواجهة الريح . المزيد من الحذر ليس بالشيء الضار ، ولما التجهت عبر مربط الماشية . فلقد رآها احد صدفة سيتصور بانها ذاهبة لقضاء حاجـــة ما في الحمام وان في تلك الزوبعة الثلجية الشديدة . وهنا ، قرب الحمام ، كانت الزوبعة كثيفة لدرجة لا تكاد ترى فيها حتى المنازل القريبة . فانزلقت ناستيونا على الجليد دون خوف او وجل واستدارت نحو اليسين الى حيث يتجه الطريق نحو النهر . وهنا تذكرت ان الطريق يمكن ان يضيع تحت الثلوج . وعند ذاك يتعين عليها ان تشق دربها عشوائيا . وهذا ينطوي على مخاطر الآن . فمن السهل في مثل هذا الجو ان تتيـــه وتفقد الشاطئ وتنجرف مع الريح الى ما لا يعلمه الا الله . فالريح تدفعها وتكاد تطيح بها دون ان تمكنها من المحافظة على الاتجاه المطلوب . بيد ان الطريق ، من حسن الحظ ، لا يزال محتفظا بمعالمه . لقد ضاعت بعض آثاره لعام وكلم الجليد ، غير ان الريح ، بالاساس ، كانت تحمـــل الثلج بعيدا عنه .

تعين عليها ان تسير محنية الظهر بشدة مخبئة وجهها كيلا تشرق بالسيل الكثيف من المزيج الرطب . الريح شديدة متواصلة تنهال دون توقف كمجرى صخور . وكان صفيرها حادا مستديما ، كدوي شديد في انبوب واسع . ومن خلال هذا الصفير يسمـــع بوضوح ، على صعيد آخر ، صفير الثلج المتطاير . وانصدمت الرؤية على بعد خطوات مع ان الجو بدا منيرا . ولكن ذلك كان نورا ضبابيا ابيض لساعا منطفأ ولا يرى عبره شيء . كانت جلاميد الجليد الناتئة العارية تئز وتنئن ، والثلج يرتطم بهـــا ويتطاير رذاذا في كل الجوانب ، وهناك تتلقفه الريح وتحمله بعيدا .

من اين انطلقت هذه الزوبعة الثلجية ؟ لا تتذكر ناستيونـــا

مرة ان زوبعة قد ثارت في هذه الفترة . فاين هي بوادر الربيع ولحن في اواخر آذار .

بدا الدرب يضيع فنعثر عليه بين الفينة والاخرى من جهة اليسار . ومهما ابعدت ناستيونا من مقاومة ومهما صحت من مسارها فان الريح تدفعها وتحملها الى اسفل . يمكن للمرء ان يتصور الوجهة التي تتجه اليها لو انها خاضت هذا اليم الابيض بدون طريق . ان تمييز الآثار القديمة للزحافات على الطريق يزداد صعوبة . وان رؤوس الكثبان الثلجية عليه تتصادم وتتلاشى . راحت ناستيونا تبحث عن بقايا الاعشاب المتجمدة الملتصقة بجانبي الطريق ورؤوس روث الخيول الذي نرجرج وهذا كالمطر بعد ان تبقى من عهد قلل الاعشاب الجافة من السروج . ظلت تسير اعتمادا على هذه الشواهد الواهية حتى تعبت . ففي البداية ارتكبت حماقة حيث خفت السير . وسرعان ما انهكت قواها ، وتكاثفت الحلبة عليها واعاقت الريح تنفسها وغاصت اقدامها في الثلج الذي التصق بجزمتها . وتبلل منديلها وسترتها . صحيح ان الريح لم تكن باردة ، فهي ريح جنوبية . ولكنها كانت سببا في الرطوبة وذوبان الثلوج . واذا لم تكن الريح باردة فذلك لا يعني انها هي الافضل .

كانت ناستيونا تتطلع باهتمام الى اليسار بحثا عن الجزيرة . يا ليت قواها تمكنها من الوصول اليها . فالامور هناك اسهل ووادي النهر اضيق ويمكن السير فيه باستقامة . لم تكن ناستيونا تخشى ان لا تصل الى المكان . فستصل اليه ولن تضيع . ولكنها تريد الوصول الى الغرب مرتفع من منخفض النهر ، حيث لا تجوب المنطقة عشوائيا ولا تبحث عن الشاطىء وهي قريبة منه . ولم تأسف اطلاقا لانها خرجت في الزوبعة . فقد ارادت الذهاب وربما ثارت الزوبعة اليوم خصيصا لسترها عن عيون الغير . ولكنها لم تصدق بشيء واحد هو ان هناك دفئا وجفافا في مكان ما وانه ستحل لحظة تخلع فيها الجزمة وتمد رجليها المتصلبتين وتتدفق عينيها بالرياح . فقد بدا لها ذلك بعيدا جدا ويكاد يكون خياليا .

واخيرا ضيعت الطريق نهائيا ولم تعثر عليه . تشابك كل شيء تحت اقدامها في دوامة متحركة واحدة . وعند ذاك صمت على

السير في مواجهة الريح كي تصل في لحظة ما الى الشاطئ . وهي متأكدة من ان الجدول يقع الى يمينه . ولقد ألفها انها لم تتمكن من العثور على شواهد الطريق . فانتحبت دون خوف ، ولكن من الغيظ والتعب . ثم صاحت تنادي انثرى غير متعمدة . ومن الحماقة الامل بان احدا سيسمعها . فالصوت يتكور في الحال وتحمله الريح الى اسفل .

سارت مسافة طويلة . ولم تعد تتذكر . الا بصعوبة ، الى اين هي متجهة . رفعت رأسها لحظة فاحست بانها ليست بحاجة الى خلعه واخفائه في الحال . فالريح قد خفتت عن ما يبدو . توقفت ناستيونا وتطلعت الى ما حواليها : لا تزال الريح ورائحا تنطلق منفلتة العنان ، اما امامها فهناك شيء يقف بوجه الريح ويصدها ويرغمها على تغيير مجراها المستقيم . سارت ناستيونا الى الامام قليلا ، فرات الشاطئ . ولم يكن ذلك شاطئ الجزيرة ، فقد مرت بالجزيرة دون ان تلاحظها ، كان ذلك هو الشاطئ الرئيسي للنهر . عبرت الفارا والحمد لله . وتتعين عليها الآن ان تجد انفريفسكويه . من تعرج الشاطئ ادركت ناستيونا ان الراس العالي المكسو بالغابات والذي تتذكر انه موجود وراء الجزيرة قد ظل الى الشمال . ويبدو انه هو الذي صد الريح . ولذا ينبغي لها ، كما كانت تتصور ، ان تهبط الى اسفل على طول الشاطئ . لم يعد المكان بعيدا ، ويمكن القول انهما وصلت . لحاية الصنوبر على الهضبة تخف بصوت مكبوت مسموع ، واشجار البتولا والحور العارية تتمايل في الريح على مرج فسيح انبسط على بقعة مستوية من الشاطئ . حاولت ناستيونا ان لا تلتفت الى اليمين ، فالريح هناك تصول وتجول كالسابق . وكانت الريح تدفعها من جهة الظهر فراحت تتعثر لان قدميها لا تلحقان بسرعة الاندفاع . وكبت مرة فسقطت من العلية حبتا بطاطس ، ولكن ناستيونا شيعتهما بنظرة كئيبة غير متعمدة وتركتهما لتتجمدا دون ان تلتقطهما .

كادت تجتاز الجدول راسا ، ولكنها لاحظت في الوقت المناسب ان الثلج يجتذبها بقوة الى جانب ، فتوقفت ، والا لكانت قد وصلت الى قرية ريبنايا ، ولم تفهم ناستيونا ما لذا كانت موقفة اليوم ام

لا . فقد اجتازت نهر انغارا بسلام دون ان تضيع الطريق ودون ان تغوص في الثلج . كما انها لم تقطع مسافة كافية تقريبا في هذا الصعود . كان بوسعها ان تفرح لان الامور تسير على ما يرام . ولكنه خيل اليها . بالعكس . ان كل شيء يسير بالمقلوب . ولم يكن التعب وحده هو الذي عكر مزاجها منذ البداية . بل كان هناك شيء ما آخر . وهي تخشى التفكير بان هذا «الشيء» هو ماجس سيئ لا يكذب .

وسرعان ما صعدت الى الكوخ .

كان انغري موجودا : فان دخانا ينبعث من المدخنة وتلطمه الريح فيرتطم بسطح الكوخ . فليس من العدل ان تجد الكوخ فارغا بعد كل ما تحملته في الطريق . تذكرت كيف ارعبت زوجها في المرة السابقة فلم تتجه الى الباب راسا . وظلت تتلمظ انفاسها وتمسح براحتها وجهها المبلل . وبعد ذلك طرقت على النافذة بحذر :

— انغري . يا انغري !

سمع صوتها فهرع اليها واحتضنها من كتفيها وقال شيئا ما ودفعها برفق الى الباب . ولم تفهم ما حدث . فقد انهال عليها فورا وفي لحظة خاطفة تعب فظيع شل حركاتها . اجتازت العتبة فتعثرت وكادت تسقط . وزاد ذلك في الطين بلة اذ كانت اصلا تكاد تنفجر بالبكاء . ولم تتمكن من ضبط اعصابها فراحت تنتحب . راوح انغري حواليها متحيرا لا يدري ماذا عليه ان يفعل . بل ولاح عليه انه لا يزال عاجزا عن التصديق بانها هي امامه حقا . وصاحت هي . عبر الدموع . بانفعال وغيظ :

— كان بامكانك ان تستقبلني . ظننت اني لن اصل . وتوقعت ان اسقط . اما انت فتجلس هنا خالي البال .

— من يدريني بانك ستجيئين اليوم ؟!

— من يدريك ؟ كان يجب ان تحسب !

ادرك اخيرا بان عليه ان يخلع سترتها ومنديلها . اما الجزمة الثقيلة المبللة فقد خلعتها هي باستنزاف . رفع الجزمة ووزنها بيديه وهز راسه منعما . ثم وضعها قرب الفرن لتجف . الفرن ساخن والكوخ دافيء عادي والحطب يحترق ويطقطق بسرور كما

في المنازل العادية . وفي الناقلة كان الزجاج ينز . وازيزه مر الدليل الوحيد على ما يجرى في الخارج .

جلس اندرى قرب لاستيونا على الفخت وسالها بحنو :

– لماذا جئت ؟ هل حدث مكروه ؟

– لماذا جئت ؟ – قالت مسطفة كلامها ساخرة من لهجته – جئت اليك . هذا كل ما في الامر . وانت تسالني بعد ذلك كله ! – ثم اضافت بصوت عادي آخر : – لم يحدث شيء .

– انت مغامرة . لم اكن اعرف بانك مغامرة الى هذا الحد . حتى الوحوش لا تخرج من جحورها في مثل هذا اليوم . لعل انت لقد خاطرت .

– انك لا تعرف شيئا على الاطلاق . لعيش كالفقد في الاتفاق . ولا تعرف شيئا عن زوجتك .

– كالفقد ، حقا – وافق على قولها ، ولكنه ضبط نفسه كيلا يبدو الفرحة الخاطفة التي اجتاحته ، فسالها : لا بد وانك جائعة . فهل تتغدى ؟ لم تتعشى ؟ لا ادرى ، اختلطت على الامور .

– بمَ تقوى الطعام يا ترى ؟ – حالما سالها عن الغداء احست بانها جائعة فعلا . لم تكن قد تناولت شيئا منذ الصباح . لعل الآن فالنهار في آخره . ولم يكن بوسعها ان ترفض لانها رات كيف يتوق الى تقديم خدمة لها وانارة دهشتها بعمل ما والتباهي بتدبير شؤون الحياة .

– يمكن طهي حساء السمك . فقد بدات بصيد السمك بعض الشيء .

– ولكني لن اخرج من الكوخ ابدا .

– لا تقلقي ، سامد الطعام بنفسي .

فتح الباب قليلا ومد يده دون ان يجتاز العتبة فانتقل سمكة سمينة ، واذا بها شبوط كبير يحوالى ثلاثة كيلوغرامات . والقاه على السالفة بصوت مدو . فقالت لاستيونا مندهشة :

– ارى انك تعيش هنا افضل مما نعيش .

– حالفني الحظ امس . من اجلك خصيصا . يعني انك انت المحظوظة .

– محظوظة جدا – اجابت بلهجة رصينة غير مفهومة .

لم يقل شيئا عن الطريقة التي اصطاده بها السمك . فليس بوسعه ان يخبرها بذلك . قبل الاونة الاخيرة ما كان حتى ليفكر بانه قادر على التطاول على مال الغير . اما الآن فقد انحدر الى هذا المستوى . نصب احد اهالي ريبنايا شصوصه قرب الجزيرة العلوية البعيدة من جهة الرافد على الضفة الغربية الهادئة . وفي احدى الليالي عثر عليها اندرى فلم يتمالك نفسه . كان يعرف ان من الصعب نيل كثرة الجليد القليلة من القرية واليها يوميا . فراح يبحث عنها حتى وجدها فعلا بين الشجيرات . وهناك عثر على معول صغير ذي طبقي قصير . يبدو ان الصياد صعب للنظام . جرت العادة على تفقد الشصوص في الصباح . اما فوسكوف فقد صمم على تفقدها في المساء . كي يتسع الوقت ، خلال الليل ، لانسداد الحفر التي يخلفها في الجليد بعد تحطيمه بالكثرة من اجل تفقد الصيد . وهكذا حصل على اربعة شبابيط . عمل بحرص وعناية دون ان يترك اثرا . فمن المستبعد ان يكون صاحب الشصوص قد احس بشيء ، لاسيما وان حصته هي الحصة الليلية التي قد تكون هي الاوفر .

ومن سخرية القدر ان تقول بانه عمل بحرص وعنايته ، فان اندرى نفسه كان في السابق ينعت مثل هذا «العمل» بالدناءة .

لم تكن الحاجة الماسة هي التي دفعته الى هذه الفعلة غير النزيهة . فكان لا يزال لديه لحم ، وناستيونا تحصل له بعض الاطعمة بانتظام . بديهي انه لا خير في مخزون الطعام . ولا الف من القنية الباردة . بيد ان ما دفع فوسكوف خفية الى ذلك هو غيظ شديد على نفسه ، غيظ متسلط دفين يثير رغبة مستورة بصفة وسوسة من جميع الوجوه لكي يسيء الى اولئك الذين يعيشون على السكتوف ، خلافا له ، ويسيرون دون خوف او وجل ودون ان يضطروا الى الاختباء ، فيمترض طريقهم ولو قليلا ليحس بانه كانما يساهم في تقرير مصيرهم : فهم يدوله شيء ، ويشاركته شيء آخر . ولا خير في انهم لا يرونه ولا يسمعونه ولا يعلمون عنه شيئا . فهو موجود ، وان وجوده لا بد وان يؤثر على الآخرين بشكل او بآخر ، والا فهو شبح ، ظل ، لاشيء . لم يكن ذلك يثير ارتياحه . فالارتياح يتطلب من المرء الاعتراف بما يفعل . ولكنه

يمنحه ثمنا تافها نزرا يروق له ويهون عليه الامور . ولم يكن يتعمق في ماهية هذا الشيء . فليس من اللازم له ان يعرف ما الذي يطلق من احزانه . المهم ان تخف احزانه .

يطبق حساء السمك بسرعة على الفرن الساخن . فتتناولا طعامهما . واستخدمت ناستيونا ملعقة خشبية تحتها اندري خصيصا لمثل هذه اللقاءات السارة . وبالتدريج تجمعت لديه المستلزمات المنزلية الضرورية . فقد طبخوا السمك ليس في غطاء الزمزمية الصغير . بل في قدر يتسع لثلاثة انفار . وهو القدر الذي احضرته ناستيونا مع الصديري الى الحمام في الاسبوع الماضي .

تلاقيا أخيرا . ولكن بصورة عشوائية . كما هي العادة في الحمام . وبعد هذه اللقاءات ينتاب ناستيونا شعور بالنفور والتقزز من عدم طهارتها وعدم صفائها . فهي لا تزال كالسابق تتوهم ان هناك خللا وتضليلا . ومع انها تدرك بان الخداع غير ممكن في هذه الحالة . فلم تتعود ولم يكن بوسعها ان تشعر بالاطمئنان . انها تنصت الى صوت اندري وتفكر : هل هو صوته حقا ؟ وتبحث . ومن جد وجد . عن امارات وعلائم في تصرفاته لم تكن قد لاحظتها في السابق . لقد خوفت نفسها وضللتها جزافا . غير ان ما يثير نفورها خصوصا هو الرقود على دكة الحمام العالية البارعة واللزجة التي تفوح منها رائحة الاوراق العفنة المرة . ولا يمكن الصعود اليها الا على الاربع . ويخيل لناستيونا هناك ان بدنها يتغطى في الحال بشعر الوحوش الكريه . وانها تستطيع . لو رغبت . ان تعوي مثل وحوش الغاب .

اما هنا فالحال يختلف تماما . هنا بوسعهما ان يتطلعا الى عيني بعضهما البعض . وهي تقرأ الفكاره عندما تتطلع في وجهه . وتقدر حياتهما العائلية السابقة مبررا لوصالهما هنا . هذا الوصال الذي يتحقق في جو غريب خال من ملومات الجمال فيسبب لدى ناستيونا المزيد من الانفعال الغير السجول والمنشود الذي يتجاوز المشاعر العادية التي تسود في مثل هذه الحالات . كانت لناستيونا لبحث في هذه اللقاءات عن تعويض عن الالم الذي يعتصر فؤادها لان الزوجين مضطران الى الالتقاء سرا وبصورة نادرة . وكانت لناستيونا تريد لكل لقاء من تلك اللقاءات ان ينطوي على سنين من

الحياة ويمثل بطرق خاص وقوة كبيرة وحلان متميز . وواضح انها لم تكن تعرف كيف يمكن تطبيق ذلك . فهي تتعلب وتتشاجر وتتشاجر من يوم لقد ولكنها تحلم بشيء كبير فاطمة ترجو ان يتهيأ لها وتأمل بانها ستكون جديرة به ان هو جاء .

ذات مرة خيل اليها ان حبيبها بذلك قد حضر ، ولكنها لا تدري متى وفي اي لقاء حضر . كان جهلها هذا يعذبها ايضا : لكيف يجوز للمرء ذلك ؟ وهـــل هي متشابهة عديمة الاحساس ؟ صحيح ان ناستيونا لم تكن واثقة حتى النهاية من ان ذلك قد حدث فعلا . ولكن دلائل كثيرة جدا تشير الى حدوثه . ومما يدل على حدوثه انها اليوم منفعلة ومرتبكة للغاية .

نهضت من المائدة وخطت خطوات متثاقلة على قدميها المتخدرتين المرهقتين فبلغت التخت واضطجعت عليه . وصار بوسعهـــا ان تخبره بالنبأ الذي جاءت به .

– الدري ، هل تدري ؟

– ماذا ؟

ولكنها ترددت فغيرت رأيها :

– لا بأس ، سأقول لك فيما بعد .

قررت ناستيونا ان تنتظر حتى يقترب منهـا . فقد ظل عند المائدة . ولاحظت انه يتناول طعامه ببطء . ولعل ذلك من آثار العادة التي لازمته في الأونة الاخيرة ، وهي عدم الاستعجال اطلاقا . واخيرا نهض ، ولكنه توجه الى الباب كي يبرد بدنه قليلا بعد ان عرق بسبب الطعام . واجتاحت ناستيونا موجة من الهواء الصقيعي الشديد فصاحت به :

– اغلق الباب في الحال .

– اغلقته . يبدو ان الريح قد خفت .

– نعم ، خفت .

اقترب منها وجلس لزاحها .

– الم تتعشي بعد ؟

– تعشيت ، ولكن حالما اتذكر بان علي ان اعود قريبا ارتعش من البرد . ربما لن ازحزح من هنا ابدا .

– يمكنك ان تبقى فترة اطول وتستريحى . لن تذهبى لوحدك . سأرافقك .

– كيف ابقى فترة اطول يا اندري ؟ لقد غادرت المنزل دون ان اقول كلمة بل ولا لمست كلمة لاحد . ربما اتقدولى الآن . واذا عدت في منتصف الليل لمن سيقبل بذلك ؟ صرت اخرج في الليل بمناسبة وبغير مناسبة . وسيظنون بى الظنون . . . – اضافت ناستيونا عينيها وهى تتصور كيف ستطرق الباب الموصد .

– الم يسالك ابى عن شيء ؟

– لم يسأل حتى الآن . انه ساكت . ولا ادري لماذا لم يتذكر البنفلية الى الآن . لربما ستتكاثر المصائب .

– هل فكرت بما ستقولينه له اذا تذكر ؟

– فكرت . ولكن ما الفائدة ؟ . . . – قالت ناستيونا وانكمش وجهها .

– بم فكرت ؟

– لماذا اعرض عليك اكاذيبى ؟ لا اريد . ساتحمل ذلك بنفسى .

داعب شعرها بارتياك :

– صعب عليك ، يا ناستيونا ، اليس كذلك ؟

– كلا . – فتحت عينيها وابتسمت . كان وجهها الذى لفحته الريح قد تورد في الدفء وراح يشع بحمرة فاتنة صافية . فارتسمت عليه تلك الابتسامة بغتة . – انني مثالية لك – ما كانت تريد ان تذكر كل ما تحس به فلم تذكره – اما انا فاريد ان احمل كل شيء . فهل تعتقد ان الحياة كانت سهلة بدونك ؟ كل يوم كنت افكر برعب : هل انت حي لم ميت ؟ اما الآن فانا اعرف على الاقل انك حي .

– ربما من الافضل ان لا نلتقى مؤقتا ، كي تتمكنى من الراحة قليلا . لماذا تعتقدين ؟ لدى الآن كل ما احتاج اليه ، وساعيش .

– لماذا تتكلم هكذا ؟ تحدث عن الراحة ، ولا تسألنى هل اريد ان ارتاح ام لا ؟ سيتكسر جليد النارا قريبا ، ثم سنرتاح طويلا الى ان تنجرف كتل الجليد ويستقر النهر . واذا كنت ساحرم

الآن من رؤيتك لها الذى يبقى لى ؟ انك لا تعرف شيئا على الاطلاق - لزمت ناستيونا الصمت برهة . ثم تنهدت بعمق وشدت حبلها واخذت تتكلم ببطء وحذر وهى تتمعن بكلماتها بتان وتركيز : - اعتقد ، يا اندرى ، انى حامل .

- ماذا ؟ - تلفظ هذه الكلمة فارجت وكانها حجر بة بتاوهة : - ماذا ؟ - ولم يسيطر على نفسه فقفز من مكانه : هل حلم . . . لعلة ما تقولين ؟

- لا ادرى بالضبط بعد . ولكنى لم اشعر مثل هذه الحالة فى الماضى ابدا . لعتقد انها الطبيعة - اجابت ، كالسابق ، ببطء وحذر وكانها تريد ابعاد اللحظة التى يتضح فيها موقفه من هذا الامر .

- لماذا سكت حتى الآن ؟ - بدا كلامه مترددا ، وفى الوقت الذى تلفظ فيه بهذه الكلمات التى انطلقت بالصدفة ادرك مغزى ما حدث فاجتاحته الحمى من الراس الى اخمص القدمين وقال بصوت خافت مبهوت مستطف : - نا . . . ستيو . . . نا - ثم جلس خائر القوى وانتشل يد ناستيونا : - يا للدهشة ! يا للشيطان ! هل تفهمين ما تقولين يا ناستيونا ؟ هل تفهمين ؟ تلك اذن هى القضية . . . انا اعرف . . . انا اعرف الآن ، يا ناستيونا . فلم اصل الى هنا عبثا ، لم اصل عبثا ، ذلك هو القضاء والقدر . . . ذلك هو المصير ، هو الذى جاء بى الى هنا ، هو الذى قرر . كنت اعرف ، واحس ، اعرف جيدا ، هل انت خائفة ؟ ومع ذلك كنت ، انا الاحمق ، خائفا . ان ذلك يستحق . . . - لم يصرخ ولم يجار بالكلمات ، كان يلفظها بصوت جاف ملتهب ، وهو يسعل ويضحك فى وقت معا . لمعت عيناه ببريق حاد وتطلعتا الى البعيد وكانما لتترقبان الجنران . كان يخاطب ناستيونا وكانه لا يراها ، كان يخاطب نفسه ، ويقنع نفسه : - هذا هو الحل فى الكل ، ولا داعى بعد الآن لاى تبرير . فهذا اكبر من كل التبررات . وليحدث الآن ما يحدث . فاذا كان ذلك حقا ، واذا كان سيبقى من يعدى فليدفنونى ولو لهذا . دمى سيبقى . ولن ينتهى . لم يجف ولم يتخثر . اما انا فكنت اعتقد ان نهايتى حانت وانى اخر العائلة فاصلكت اصل . كلا . سيجيش . وسيسير بالخيط الى ابعد .

هكذا اذن . تلك هي النتيجـــة . ؟ ! تلك هي النتيجـــة . يا ناستيونا . يا مريم العذراء ! - هرع اليها وجلس قربهـــا على الثلث وعانقها طويلا وهو يهز رأسه الاشعث الكبير .

في البداية فرحت لناستيونا لفرحته . ولكنها بدأت تستمع اليه بغيظ وقلق : فلماذا يتحدث عن نفسه فقط ؟ وهي ؟ ما هو الدور الذي افرد لها ؟ وما هو مكانها ؟ اين هو ؟

كان هذا القلق والغيظ طافيين على السطح فاختفيا بسرعة . قبل اسبوع . عندما احست ناستيونا لأول مرة ببوادر الحيـــاة الجديدة في احشائها . كانت تختنق بالمشاعـــر التي انهالت عليها . تلك المشاعر المرفوضة النهائية المطرودة من زمان والتي انطلقت الآن بكامل حقها في الوجود : يا الهي . احقا ؟ احقا انها قادرة على ان تكون لها كسائر الامهات ؟ احقا ان الله عطف عليها ومنحها هذه السعادة ؟ احقا انها حملت بمعجزة الآن بعد فقدان كل الآمال وبعد تلك السنين الطويلة من الحياة الزوجية والرقبات والمساعي والابتهالات التي ضاعت عبثا ؟ فما الذي حدث يا ترى ؟ اوت الى الفراش ليلا واطفأت المصباح عندما توالت عليها تلك الاسئلة المذهلة : فجأة . . . احقا ؟ ارتبكت لهذه الارتيـــاك فجلست على طرف سريرها الخشبي الواسع متلاحفة الانفاس ثم احكمت ستارة الباب وخلعت ملابسها . ووقفت عارية . ويبي كما خلقتني . امام النافذة في ضوء القمر الذي استنار بدرا ساطعـــا وكانما الخفش في الافق حسب الطلب . راحت تتطلع الى بدنها باهتمام بالغ وبتعطش لجوج في محاولـــة للعثور على للغيرات ملحوظة . كان بدنهـــا القوي المتين المكتنز بمحتواه الطبيعي السليم الخالي من السنة يشع دفئا وبياضـــا ناصعا كالحليب الفائر . وبرتعش من الانفعال والتلهف الرتيب . ولكنه لم يقدم لها اي ترشيح يشفي الغليل . وعندما لاحظت ناستيونا على صدرها ظل اضلاع زجاج النافذة بشكل صليب كالح كبير فرتعبت وتراجعت الى الوراء . وقفت على السرير . ولكن فوق اللحاف . وسبلت يديها واغلقت عينيها قليلا وحبـــت انامهـــا . كيلا يبقيها شيء . واخذت تنصت بكل جوارحها مركزة انتباههـــا على نقطة ما عميقة في احشائها . حتى بلغتها - بلغتها وفصلتها عن

كل ما تبقى . ولستها فاجابت تلك البائعة بصوت خافت يكاد لا يسمع : موجود . هكذا خيل اليها ورسخ في اعتقادها . فانفصل بدنها ، منذ ذلك الحين ، بالانتظار : هل صحيح انه موجود ؟ الم تخطئ ؟ واذا كان موجودا حقا فما العمل ؟

حقا ، ما العمل ؟ تلك بالطبع سعادة تفوق التقدير ، ولكن ما الفائدة منها اذا جاءت في وقت غير مناسب على الاطلاق ؟ اين كانت في الماضي بعد ان طال انتظارها ؟ ولماذا ظهرت الآن بالذات ؟ فهي ليست ارملة من جهة ، وليس لها زوج من جهة اخرى . ليس معروفا من هي الآن ومن ستكون غدا . اختلط كل شيء على ناستيوتا وتشابك ، وتدحرج كل شيء وانقلب راسا على عقب . افلا تعرف هي انها لم تلتق برجل مطلقا ما عدا زوجها ؟ ولكن القرية تعرف شيئا آخر . القرية تعرف انها لم تر زوجها منذ اربع سنوات . فهل حملت الربح لها حلمه السعادة ؟ لا بأس من اتهام الربح لو كان هناك مجال للمزاح . ولكن يجب البحث عن شخص ما . وما الداعي للبحث عنه ، ما الداعي لاتهام شخص بريء بالخطيئة اذا لم تكن هناك اية خطيئة ؟ اما هو فلا يجوز فضح سره .

اختلط كل شيء وتشابك ، ثم اختلط وتشابك بقدر اكبر .

ولكن ما الداعي لتعذيب النفس وايلامها ؟ ربما لا يوجد شيء من ذلك . افلا يحدث ان تعتبر المرأة نفسها حاملا وهي ليست بحامل ؟ فلماذا ذعرت واضطربت ؟ ربما ذلك عبث في عبث . لم تستطع ان تحمل في الماضي فليست هي بحامل الآن ، ولن تحمل ابدا بعد !

وما هو الافضل : ان تحمل الآن ام لا تحمل اطلاقا ؟ ولو تسنى لها مجال للاختيار فماذا ستختار ؟ وما الافضل ؟ هل تبقى حاملا ام لا تحمل ابدا ؟

توجهت الى القرى بالذات من اجل ان تبحث هذا الموضوع ولو قليلا وتتوصل الى حل ما ولهذا بعض الشيء . وحتى اللحظة الاخيرة كانت مترددة في اعلان النبأ ولا تدري ما اذا كان من الافضل كشف السر او الانتظار حتى تتأكد نهائيا . وتكتفي الآن بالتمتع بالسلاطة والملفوف عند انقرى والتحلي بالصبر واستجماع

الثرى . وهي لا تريد الكثير . انها تريد البقاء قرب الشخص الذي تساطرته مصيره والذي يجمعها على ما يبدو . عن الناس اكثر فاكثر . فيتركها له وحده . فالى من تلتجيء ؟ وعند من تنشد العزاء . اذا لم يكن عنده ؟

ولكن ما هي فد كشفت سرها وتلسفت لذلك وهي تستمع الى همسه المتلعثم المتحشرج من شدة الفرح . لقد اغمى على هذا الامر اهمية لم تكن هي تتوقعها .

نهضت على النخت قليلا وسألت :

— وانا ؟ ماذا سيحصل لي ؟ انني اعيش بين الناس . لم انك نسيت ذلك ؟ فما الذي سيقولونه لهم يا ترى ؟ ما الذي سيقولونه لامك . لابيك ؟ فهما سيهتمان بالامر وسيسالان من كل يد .

كان هذا السؤال قريبا . على طرف اللسان . ولكنه لم يكن يتوقعه . اعتدل ثم جلس يحدق فيها مذهولا . وانكمش كتفاه :

— لا ادري . اجعلي عليهم جميعا .

— سهل عليك ان تبصق . فانت لن تعيش هنا .

— ماذا تقولين يا نادية ؟ الست مسرورة لذلك ؟

— انني مسرورة . ولكن ماذا علي ان افعل الآن ؟ واين اختبيء عن عيون الناس ؟ فسوف يفتضح ذلك قريبا .

— هل تتذكرين كم انتظرنا وكم املنا ؟ — لاحت في عينيه نامة زعل . فهو لا يريد لن يفهم .

— اتذكر . . . كيف لا اتذكر ؟ فلماذا تسالني وكانك تحاول اتهامي ؟ الست انا التي كنت ابتهل طوال الليل وارجو الله ان يمنحني طفلا منك ؟ لم اكن بحاجة الى شيء . سوى ان الد طفلا والدم لهما لك . الست انا التي كنت اخشى حتى الموت ان اظل عاقرا ؟ فالذنب كان ينسب الي وليس الى شخص آخر . وحتى انت كنت تنسبه الي . كنت في حال لسنوا بكثير من حالك . فقد كان يحق للجميع ان يعيروني بعاقرة خائبة . ابي وامي عذبا لعلهما علي . ولدتني امي لكي الد انا ايضا . وانت كنت تعلق آمالك علي عندما تزوجتني . لما انا فقد خيبت كل الآمال . كنت كالما اشغل مكان غيري واختلس سعادة امراة اخرى . وقد لعنت نفسي مائة مرة وانت لا تدري . ولو كنت

استطيع لاختفيت من زمان دون ان يعلم احد . او لالقيت بنفسي في النهر كي تبقى انت حرا طليقا . وانت لم تسمح لي بتركك . ثم نشبت الحرب . وانت تسألني الآن : هل تتذكرين ؟ فمن يتذكر غيري ؟ ومن يحق له ان يفرح الآن ويرقص ويغني طربا : لقد ظهرت الآن الى الوجود من جديد . يا الهي ! ولكنك غير موجود . انت ، يا اندري ، لا وجود لك ! — اطلقت ناستيونا انة حزينة ولوحت بيدها بالسة وكانها تطرد عنها الرؤيا الخرقاء الشمطاء — انت لا تسمح لي بان اعصى لاحد عن وجودك هنا . انت غير موجود . وانا صامتة . وسالزم الصمت . فانا اهواك . ولكن الطفل ، اذا ولد ، لن يكون طفلك . طفل اي كان ، وليس طفلك . انت غير موجود ، ولا احد يعرف هل انت حي ام ميت . فهل تعتقد ان لعبك وايالك سيتسكرانني اذا جئتهما بالطفل بدونك . وهل تعتقد ان الناس سيرحمونني ؟ آ ؟ ولو كان والداك يعرفان بانك لست على قيد الحياة لهان الامر ولكان هناك على الاقل احد يلومهم ولا يدينني راسا . اما الآن فالناس يعتقدون بانك يمكن ان تعود في اية لحظة ، في حين انني فعلت ما فعلت دون ان انتظرك . في هذه الحالة يمكن لاحقر كلب ان ينبح علي وسيكون محقا . فانا المذنبة . سيكون من الصعب علي ، وانا وحيدة بين الناس ، ان احمل هذا العبء . واخشى ، يا اندري ، الا استطيع .

لزم الصمت وهو يتطلع بنظرة ثقيلة جامدة الى ركن الكوخ . ظل صامتا امدا طويلا . فارتبكت ناستيونا في البداية ثم ارتعبت لما قالته . فذلك يعني انها ترفض الطفل . وماذا لو ان اللحظة الراهنة هي بالذات لحظة الانطلاق التي تتحول فيها النطفة الى جنين يمكن ان يستمر او يختنق ؟ واذا رفضت ربما لن يكون هناك جنين . كل شيء يتوقف عليها . فالامر سيء في الحالتين سواء كان هناك جنين ام لا . بيد انها لا تريد التخلي عنه . فمن القطع الامور ان تتحمل عبء التخلي عن حلمها وامنيتها . انها تريد ان لا يتوقف الامر عليها بعد الآن ، وان لا يتغير شيء ابدا حتى . فالتفتت الى اندري تتشمم العون لديه واضافت قائلة :

— لا ادري ، يا اندري ، ماذا افعل . لقد تحيرت .

فقال الفتى اخيرا :

– لا يمكن الهروب من المصير يا ناستيونا . فهو يجرى كما يريد حتى ولو اعترضت عليه بكل ما تستطيعين . – اكد ذلك بشيء من السخرية وبلهجة حزينة وكأنه يعرف عنه اكثر من الآخرين . ثم لاذ بالصمت تائها لحيته . وبعد ذلك تكلم بثقة اكبر وبطلب اشد : – ان المصير هو الذى انتزعنى من الحرب وبعثنى الى هنا . هو وليس غيره . ربما بعثنى وإياها عنى لكى يربط بيننا قبل ان نموت . فهل تعتقدين بان من السهل علي ان اختبئ هنا كوحش من وحوش الغاب ؟ آ ؟ فى حين انهم يحاربون هناك وانا ملزم بان اكون بينهم وليس هنا ؟ تعلمت هنا الحرب كالذئاب . هل تريدين ان تسمى ؟ – نهض دون ان ينتظر موافقتها واقترب من الباب بخطى متثاقلة وفتحه وانحنى الى الامام . وبدا . ليس فورا . بل بتمهيل وكأنما يريد ان يصل الى مستوى الصوت اللازم . فبلغه وحياه . ثم اطلق انينا حادا مستديما متشكيا مرعبا يعز فى الفؤاد . فقزت ناستيونا مرتعبة عن ركبتيها وامسكت صدرها بيديها . فطلع انذرى عواء الوحش واغلق الباب وعاد الى مكانه بعد ان سعل قليلا . وسأل : – هل يشبه عواء الذئب ؟ – واجاب بنفسه : – يشبهه . اذا سمعت هنا المرأة فاعلمي بانه عوائى . اما الذئاب فقد خرفتها هنا من زمان . وربما هربت جميعا الى شاطئكم . قد تتصورين انى وجدت لنفسى تسلية للقضاء الوقت بسبب البطر . كلا . يا ناستيونا . ليس ذلك بسبب البطر . بل بسبب الحياة الكئيبة . لماذا تنتزعين منى آخر امل يؤكد لى انى جئت هنا على الاقل لغرض ما . ولم انحمل هذا العار عبثا ؟ عرضت على الاهل ومزجت معى وها انت تنتزعينه منى . ستغدو احوالى انعس مما كانت . ولكن اذا ولدت طفلا فسابرر نفسى . وتلك هى آخر فرصة لى . ماذا الول : فرصة . كلا . ذلك بالنسبة لى هو كل راجيى فى الحياة . ولا يهم ان الناس لا يعرفون . فسيعرف دمى انه طفل . فالذى يعرفنا فيما بعد هو الدم وحده . هو الاصل وحده .

– وربما هو غير موجود بعد – اعترضت ناستيونا بصوت ضعيف – قلت انى لست متاكدة حتى الآن . وينبغى ان انتظر .

– اذا لم يكن موجودا لا اعتراض لي . ولكن اذا هو موجود اتركيه ولا تهلكيه . اتلفني روحي . استطيع ان اختفي ولو فعلا فلن الفلك بعد الآن . اما فيما تبقى فتصرفي كما تشائين . . .

– لا اريد لك ان تختفي عني اطلاقا . فما هذا الكلام ؟!

– عشنا اربع سنوات معا . عشنا حياة بكل ما فيها من طيبات وسيئات ، ولكننا عشناها معا . ثم اربع سنوات من الحرب . وكنا مرتبطين بخيط واحد ايضا مهما ابتعدت المسافة . فهل يجوز ان يكون ذلك كله فراقا وعبثا ، ولا يبقى من حياتنا اى شيء ؟ ستعيشين فيما بعد فانت لا تزالين شابة جميلة ، ولكن هذه السنوات لا يمكن ان تعود . لقد مرت وانقضت . ومهما كان الجرى الذى ستسلكه حياتك فلقد كنت انا فيها ايضا . فالى اين تقذفينني منها ؟ كم عدد النساء اللواتي يلبين خلال الحرب مع طابور كامل من الاطفال ؟ اما انت فلا تريدين حتى طفلا واحدا . وماذا كنت ستفعلين لو انه جاء سابقا ، قبل الحرب ؟

– هل تعتقد باني لا اريد يا اندرى ؟! هل قلت اننى لا اريد ؟! اريد . فلماذا تتهمنى ؟ لماذا ؟

– لم تتخلي عني عندما رأيت انني جئت من الحرب من باب آخر . لم تطردينى ولم تسلمينى ، بل ساعدتينى على العيش ، وبهذا ربما كنت ساهلك . كنت تعرفين ثقل العبء الذى اخذتيه على عاتقك . ومع ذلك تحملتيه ولم تخافى . فمن كان يتصور اننى الآن ، حيث يوجد عندنا ما يشبه العائلة . . . كلا ، اية عائلة ؟ . . . نصفان من عائلة . احصل على فرصة وحيدة فى حياتى لاداء واجبى كرجل . كيلا اكون قد عشت الحياة عبثا ؟ ما الداعى للجدال ؟! كان لديك جانب واحد هو الناس . هناك على الضفة اليسرى لنهر انغارا اما الآن فلديك جانبان : الناس وانا . ولا يمكن الجمع بينهما الا بجناح النهر . طبيعى ان الكلام سهل على فلست انا الذى سيحمل بطنا . فانا هنا ، فى المنفى ، سأظل حتى تحين الساعة وتحل نهايتي .

– كفاية ، يا اندرى ، لا داعى لهذا الكلام !

خفت سورة انفعال اندرى فرفه على ظهره على النخت وهو يكبح انفاسه المتلاحقة . ولكنه لم يقل كل ما اراد ان يقوله . فلزم

الصمت برهة ثم تحدث من جديد مدفوعا ببلايا الالم . ولكن بلهجة اهدأ وايسر لعلمه بانه ذكر الشيء الرئيسي .

– انك تخافين لوم الناس . . . فمن هم بالنسبة لك ؟ الناس كالكلاب ينبحون حالما يتحرك احد بالشكل الذي لم يتعودوا عليه . انهم ينبحون قليلا ويكفون عن النباح في انتظار شخص آخر يتصرف لا كما يريدون . بديهي انهم سيهاجمونك . سيحددون السنتهم وسيبذلون جهدا . وسينسون القمح حالما يجدوا بطنك مادة للحديث . فليتحدثوا وليحكوا جلودهم الجرباء . فذلك الجرب عادة تدفع الناس الى غيبة الآخرين حتما . فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بدون ذلك . اما انت فاسكتي وواصلي عملك ولا تكترثي بهم . وعند ذاك سيهدأون بسرعة . ثم يأتي دور شخص آخر . فتكونين انت مع الآخرين . فهل هذه المرة الاولى ؟ وفيما بعد سيعتادونك على ما لاموك به . الناس . . . لو انهم كانوا في مثل حالتنا ، الله يعلم كيف كانوا سيسلكون . يجب ان تنصتي لنفسك وليس لاقوال الناس . فانت تعرفين الحقيقة . وتعرفين انك لست مذنبة بحق احد . وان الطفل هو طفلك من جهة الاب ايضا . بذلك تصونين نفسك وتنفذينها . بذلك وحده . بديهي ان الامور لن تكون سهلة عليك . وهل هي سهلة الآن ؟

– انني لا اتشكى .

– لا حاجة بك الى التشكي . فكل شيء واضح بدونه .

لم يلاحظا كيف هدأ اهتزاز زجاج النافذة وكيف انكسف جمر الكوخ في البداية ثم تسرب الدفء اليه وراح يتكثف بهدوء . انتشت الزوبعة . ولم تبق الا هبات انفصلت عنها وتلكأت محومة في مكان ما ، فصارت تثير على الكوخ بلا انتظام وتتناثر على هذا الجدار تارة وعلى ذاك تارة اخرى . وتسخن الفرن حتى احمر رماده .

تجاوز اندرى الحوار ونهض واغلق الدفة بحاجبها كيلا يتسرب الدفء الى الخارج والقى نظرة على النافذة . وحتى من جهة الجبل تجمع ثلج كثير فكاد يصل الى قاعدة النافذة . والتصق الثلج الرطب بجذوع الاشجار . وكانت السحب الرمادية المزرقة لا تزال تسبح متناثرة في السماء المنخفضة الكئيبة .

التفتت ناستيونا وهي تتابع اندري بنظراتها . بيد انه عاد ورفد ازاحها . لم يتغير شيء الا ان نهوضه هذا بدون ضرورة كان يعني لكليهما انه لا ينبغي لهما الآن ان يقولا اكثر مما قالا . حقا ، يجب الانتظار قليلا . والا فستكون حالهما مثل حال تلك المرأة التي راحت تندب : آه لو كان لي طفل ولو مريض طفل . . . لقد قال اندري ما هو ضروري . واستمعت ناستيونا اليه . وفي ذلك الكفاية . ينبغي التحلي بالصبر . فسوف يتضح كل شيء قريبا .

تنفست ناستيونا الصعداء ومطت يديها بحذر كي تبدد الترسبات التي تجمعت فيه . فهي ، دوما ، حالما تقلق وتنفعل يخيل اليها ان موجات حامضة تنبعث من داخلها الى الجلد ينعكس فيها صدى ادنى الالام التي لا تزول فيما بعد الا بشق الانفس .

كانت لا تزال حذرة مترددة تخشى من انه يمكن ان ينسى ويحطم صدفة الاتفاق الصامت والواهي بسبب ذلك الصمت .

تململ في مكانه فارتعدت فرائصها . ثم قال فجأة :

– اتذكر من زمان ، من الصيف قبل عامين حلما بخصوصك – ثم انتظر قليلا حتى تتهيأ هي للانصاف في الحوار – رأيت في المنام موقع وحدتنا والجنود الذين قاتلوا معي واشجار البتولا على مقربة من المكان الذي نمت فيه . ورأيت فتاة تتجه نحوي من اشجار البتولا . فتاة غريبة تماما كما خيل الي . حافية القدمين منهمكة في فستان ممزق . ليس فيها اي شيء منك . ولكنني اعرف انها انت .

– انا بالفعل . – والقته ناستيونا مندهشة – كنت هكذا قبلك . قبل ان تعرفني . وشعري حليق كشعر الصبيان .

– وشعرها حليق .

– انا .

– كيف ذلك ؟ كيف رأيتك في المنام ولم اكن قد رأيتك بهذه الهيئة من قبل ؟

– لا ادري . ربما حدثتك بنفسي ولكن تلك الفتاة هي انا بالذات .

– وانا اقول ايضا انها انت . اقتربت مني وقالت «لماذا تأخرت هنا ؟ انا اتعلم هناك مع الاطفال وانت هنا مرتاح» .

لسانها : على الطلال ؟ من اين لك بالاطلال ؟ ما هذا التلفيق ؟ . عودي وانامي على لديك اطلال ام لا ؟» وذهبت .

. — ذهبت ؟

— خيل الى انها سمعت كلامي وذهبت . ولكنها عادت . وقالت نفس العبارة كما في المرة الاولى : انا اتطلب هناك مهمم . . . واجبتها بعبارة اكثر : طلاحيي ولا تلحي على بعد الان . فليس عندك اطلاله . وفهمت وراحت تفكر واستعارت ذاهبة . والحلم نفسه يشبه اليقظة : فانا في المنام اريد ان انام . ولا يتسنى لي ذلك . حالما اغلق عيني اراها قادمة من جديد من نفس انسجار البيتولا . وتكرر وتكرر حتى لزعلت روحي في تلك الليلة .

انتزعت ناستيونا من ذاكرتها شيئا . انتزعته ونهضت قليلا وسالته على عجل دون ان تفهم ما الذي يحملها على السؤال :

— وفي الاخير ، ماذا قلت لها في الاخيرة ؟ اخر مرة ؟

— لا اتذكر . ربما قلت لها الشيء ذاته . وماذا يوجد ان اقول لها ؟

— كان يوجد ان تعطف عليها ولا تعترض — اجابت بصوت خاو هبط خائرا في الحال .

— لماذا ؟

— لا شيء . فكم طلبت منك ؟ — راحت ناستيونا تتطلع باهتمام الى نقطة امامها وقالت وكانها ترى ما تقول : — كانت هناك مدافع مغصوبة . وفي المنخفض الذي صعدت انا منه اليك تجمعت سيارات كبيرة خضراء . كنت نائما على لبادة ومغطى بشيء فوق المعطف . كنت نائما في الطرف ، وولد قربك ثلاثة او اربعة من رفاقك . واقتربت انا من طرفك بالذات . . .

نهض على كوعه وسلط نظراته عليها :

— من قال لك ذلك ؟

— انا ايضا رايت في المنام هذا الحلم . ولكن من جهتي . ما الغريب الامر ! — تجمعت ناستيونا منحنية واخذت الى نفسها منتظرة ان يقول لها شيء ما من الداخل عما اذا كان بالامكان الكلام عن ذلك ام لا . حلم مشترك ، من الطرفين . انها لم تسمع بذلك طوال حياتها . حلم مشترك يعني انه غير عادي ، انه سحري . ولا داعي

لتفسيره . كما للشر الاحلام العادية . فهو واضح جلي . وبدأت تتذكر وتتحدث بحذر . وهي على استعداد للسكوت في اية لحظة :
– علمتني احدى العجائز . ولا اتذكر من هي . وقالت لي : اذهبي اليه وحدثيه عن الاطفال فاذا اعترف بهم ووافق فهذا قال حسن . واذا رفض فستبليان كل على حاله . وذهبت اليك . ولكنك رفضت . فانصرفت ثم عدت اليك . وعدت من جديد . ولكنك لا تريد ان تفهم . فقد رفضت وبقيت مصرا على الرفض . اردت ان اتبع لك ولكني لا استطيع . فقد زعقت على وطردتني . ولكن لا اتذكر ماذا حدث في آخر مرة . اتذكر اني توجهت اليك بهيئتي . وليس بشكل بنت صغيرة لكي اؤثر عليك . فهل جئتك بهذه الهيئة ؟
– نعم .
– وماذا قلت لي ؟
– لا ادري . لا اتذكر .
– كان لا بد من ان تقول شيئا . اليس كذلك ؟
– ربما . لا بد .
– يا للأسف . لم نعرف الشيء الرئيسي – لم تتمالك ناستيونا نفسها فراحت تعنفه : – هل كان صعبا عليك ان توافق او ان تصمت على الاقل ؟ لو فعلت ذلك لسارت الامور بشكل اخر الآن .
– لا يعوزنا الا ان نصدق بمختلف الاحلام – اعترض عليها مترددا .
– انه حلم يختلف عن سائر الاحلام . حلم مشترك من جانبين . وربما رأياه معا في ليلة واحدة . وربما كانت روحي هي التي زارتك . ولذا اتذكر كل التفاصيل – واصلت ناستيونا استفساراتها وهي لا تزال مؤملة في شيء : – وبعد ذلك الم ترني ولا مرة واحدة مع طفل ؟ تذكر جيدا .
– كلا . ولا مرة .
– ربما نسيت . ربما انساك حادث السير . . . الحرب عنه . فهي تمزق كل شيء وتجرفه .
– كلا . ربما ما كنت لانسى ذلك . فانا اتذكر كيف جئت . اتذكر ذلك عاريين كاملين .
– ومع ذلك نسيت الخاتمة ؟ فكيف لنا ان نعرفها ؟

– ربما لم تكن هناك اية خائنة . المصير تركها لنا معدا . لكي يرينا اياها في اليقظة وليس في الاحلام . يرينا اياها والبالي يتوقف علينا .

– صرت تتحدث كثيرا عن المصير . ولم الاحظ عليك في السابق انك كنت تذكره .

– انا مضطر للتحدث عنه . . . – قال بمرارة وهز راسه – فهل استحق اللوم على ذلك ؟ كيف لا اتحدث عنه وهو موجود هنا لزالي . لا يفارقني لخطوة واحدة ؟ لقد استغل على وصار يعمل ما يشاء .

– لم اكن اقصد لومك اطلاقا . فما قلته قلته تلقائيا .

بيد ان ناستيونا تطلعت الى الجهة التي قال اندرى ان المصير يلاحقه فيها . واضاف اندرى بلهجة تمزج بين التخويف والاسف :

– لم انه ، ربما انت ايضا في خطر . وساري كيف تتخلصين منه .

– لماذا اتخلص منه ؟ انني معك . واذا حدث مكروه فنحن سوية .

١١

ومع ذلك خلت هموم ناستيونا وتنفست الصعداء بعض الشيء ولكن القلق لم يتلاش ، كلا ، فقد ازداد هذا القلق ولا مجال للتفكير في التخلص منه . بيد انه غدا واضحا جليا . فان ناستيونا التي تاهت وخارت قواها ادركت فجاة اين هي والى اين وصلت . لقد وجدت نفسها ابعد بكثير مما توقعت ، ولكنها تعرف الآن كيف تتخلص من هذه الورطة . ولا فرق عندها فيما اذا كانت قواها تكفيها للخلاص واجتياز كل ما اعده لها القدر ام لا ، ولكنها تعرف الآن الوجهة التي تتجه اليها والجهة التي تسير فيها .

وكان ذلك يعني بالنسبة لناستيونا الرضوخ والخضوع للامر الواقع وعدم الاعتراض على القسمة والمصير . فليكن ما يكون . لم تكن قد صممت نهائيا بعد على هذا القرار ، ولكنها صارت تدرك بانها لن تفلت منه ابدا . ويبدو ان عليها ان تتجرع كاسها المرة

حتى النهاية . لم يعد هناك مجال للتراجع . بل انها لم تكن تريد التراجع . فهو بالنسبة لها يعني التخلي عن نفسها . ولم تعترض على انثوي الا لكي تجد في كلماته عونا لها . فاين يمكنها ان تنشد هذا العون ان لم يكن لديه ؟ لقد منحته املا ما كان يوسعه ان لا يتشبث به . وصار ذلك بالنسبة له كالهواء الذي يتنفسه . وليس من الصعب عليها ان تحزر مسبقا ما كان سيقوله .

فلتظل عجلة المصير تتدحرج على هواها الى ان تتوقف . ولكن كيف ستكون نهاية ناستيونا ؟ ؟ من اين بدأت تلك العجلة والى اين ستنتهي ؟

ذلك شيء سيأتي نباه فيما بعد . فيما بعد . . . فلا يزال في الوقت متسع . وستحل النهاية في حينها .

غير ان الامور اتضحت . وانكشفت الغشاوة عن الفؤاد : اذا عظمت المصيبة هانت . ولا مفر من المقادير . لقد تجاوزت ناستيونا الحدود بعيدا بعيدا . وعليها ان تخشى من الكثير الكثير . ولذا فمن الافضل ان لا تخشى شيئا وان تسير في طريق مستقيم . لقد خيل لناستيونا ان المصير او ما هو اعلى من المصير قد اختصها واصطفاها من بين الناس . والا لما وقع على كاهلها دفعة واحدة هذا القدر الهائل من المصائب . ذلك يتطلب من الانسان ان يبرز من بين الآخرين . بديهي انها الآن في ضيق شديد . ولكن اليس ذلك الفضل من العيش دون هدف ولا نفع . كما علمت ؟ اليس هو الفضل من السير في طريق قصير واحد لا يؤدي الى نتيجة ولا يبعث على اي امل ؟ وربما لن يتركها الناس دون ان يصطفوا عليها . وربما سيساعدونها عند الاقتضاء . بل وربما سيحطمونها تقديرا لآلامها . فلا يمكن احراز اي شيء بلا جهد . ستصير وستحمل نصيبها كاملا . ولكنها لن توافق على العيش دون هدف كامرأة مذمومة لا تصلح لشيء . فالموت افضل من تلك الحياة .

كانت ناستيونا ، كاي انسان آخر ، تحلم بالسعادة منذ الصغر . ولها تصورها الخاص عن السعادة وهو تصور تغير مع مر السنين . فعندما كانت فتاة كانت سعادتها ، مثلها هي ، حرة طليقة يمكن ان تأتي في اية لحظة من اي مكان . والجهات الاربع مفتوحة جميعا امامها . فيخيل اليها انها تقف في الوسط وان السعادة تنزح

معها فتدعبها من الشمال تارة ومن الجنوب تارة اخرى . وتضحك عليها وتداعبها بملمسها الرقيق الخاطف . وتدعوهـــا للركض وراءها . ثم تنطلق محلقة لفترة من الزمان بعد ان تلطع لها وعدا بالعودة . كانت تلك السعادة غامرة زاخرة بالفرحة الجميلة الصغرا. وبالحب والارتياح الى درجة جعلتهـــا تغرق حالا في لجتها وتسبح وتعوم فيها وترتشفها حتى النهالة كل يوم وكل ساعة . فلا تترك منها شيئا . ومع ذلك كان التوقع اللذيذ السريع يحملها على تأجيل لحظة اللقاء التام بالسعادة . لانها واثقة من ان هذا اللقاء سيتم باى حال . واقدمت ناستيونا على الزواج دون تفكر بانهـــا تترك لنفسها ، من بين جميع دروب السعادة ، دربـــا واحدا هو الدرب العريض الواسع الذى يوجد فيه مجال لمرور الخير والشر دون ان يتلاقيا ودون ان يتصادما . كانت ترى الى الحياة الزوجيـــة بعين الامل وحسن التدبير والعمل ، وكانت تتصورها في العلاقـــات مع الزوج ، مرحة سهلة . فيهذه الطريقة تغدو ايام العمل القصر والعطل والاعياد اطول واجمل . بديهى انها يمكن لحيانا ان تتكشى او تعثر لسبب ما ، فالحياة ليست بدون شوائب ، ولكنها فيما بعد تنهض من كل بد وتواصل سيرها في حب ووئام . فهى منذ البداية تعلم بان تعطى في الحب والعناية اكثر مما تاخذ . فان كونها امراة يعنى ان تخلف من الحياة الزوجية وتهون اعباءها ولهذا الغرض تتمتـــع بتلك القوة المدهشة التى تزداد المحنة والرقة فيهـــا ويفتنى حنوها كلما ازداد استغلالها . كانت ناستيونا واثقة من ان هذه القاعدة ستنطبق لديها هى ايضا . ولعل ثقتها كانت مبررة في هذا الامر فقط ..لما الســعادة . . . تلك الســعادة التى لاحت امامها في البداية وعلقتها بالآمال ، فقد انسحبت فيمـــا بعد دون ان تخلف اطفالا واسرعت الى الامام ، الى حيث يتعين عليها ان تلاقيها بعد حين من الزمان . بيد ان الدرب الذى يمكن لهمـــا ان تلتقيا فيه غدا اضيق بكثير من السابق ، وكاد يتحول الى دريب او شريط رغم انه لا يزال يبدو واضح المعالم .

لم تكن ناستيونا لتلتفت الى الوراء مطلقا ، ولا تاسف على ما تفعله ولا تغير رايها في منتصف الطريق . فالحياة ليست لهاما يمكن تجريبه عشر مرات . كل ما هو موجود لديك يخصك انت .

ولا يجدر بك ان تنفصل عن اى شيء مهما كان سيئا . صادفت ناستيونا اياما قاسية في حياتها مع اندرى ، ولكنها لم تكن تفكر حتى مجرد تفكير في تغيير مصيرها . كانت تصحح مسبقا ما يمكن تصحيحه ، ولكنها لم تكن تفصل شيئا حسب موديلات جاهزة ، ولم تتصور وجود رجل اخر قربها . فذلك يتطلب منها ان تتحول هي ايضا الى انسان آخر ، ومن يسمح لها بذلك ؟ فليفعل الآخرون ما يشاءون ، اما هي فستواصل الحياة التي بدأتها ولا تريد ان تنقلب من جانب الى آخر . سوف تنتظر السعادة ، سعادتها هي وليس السعادة الغريبة عليها .

يقال ان السعادة لا تكفي للجميع . فالناس بعضهم محظوظ وبعضهم غير محظوظ . ولكنها هي ، ناستيونا ، شخص واحد في العالم كله ، شخص لا يمكن استبداله بغيره ، فلماذا يتعين عليها هي بالذات ان تستغني عن السعادة ؟ ومن الذي وزعها على هذا النحو ؟ فلماذا منحوها الحياة ، اذن ، اذا كان الشيء الذي ولدت من اجله يمكن ان لا تبقى لها حصة منه ؟ حياتها كلها كامنة فيها ، في فؤادها وروحها وجسدها ، اما ما تبقى فهو متواجد جانبا ولم تقربه منها ، وهو موجود بفضلها وبفضل وجودها ، فلماذا يفلت منها عندما هو مخصص لها ويتوجه الى غيرها ؟ كلا ، لا تجوز معاملة الانسان بهذه القاسية ، حبذا لو كان يوسعها ان تعيش فيما بعد ، مرة ثانية وثالثة لكي تتمكن من استعادة ما فات ، ولكن هيهات ان تعيش وهيهات ان تستعيد ذلك الذي فات ، فكل ما لك خذيه معك ، ولا تتركي شيئا على سبيل الاحتياط ، فلا ينفعك اي احتياط .

الحرب وقفت امدا طويلا في طريق سعادة ناستيونا ، ولكن ناستيونا واثقة ايضا بان تلك السعادة ستاتي ، سيحل السلام وسيعود اندرى ، وسيتحرك كل ما توقف خلال هذه السنوات ، ولم تكن ناستيونا تتصور حياتها على نحو آخر ، الا ان اندرى جاء قبل الاوان ، قبل النصر ، وشوش كل شيء داخل بنظام الاشياء وخلط الحابل بالنابل ، لم تكن ناستيونا لتتوقع ذلك ، وهي الآن مضطرة للتفكير ليس بالسعادة بل بشيء آخر ، فالسعادة

ارتمت وانسحبت وانزوت في ركن مجهول . وكن لا طريق منه . على ما يبدو . ولا امل فيه .

الامور تسير من سيئ الى اسوأ .

فهل ستبقى ناستيونا حتا بدون السعادة حتى النهاية ؟ انها لم تواجه في السابق مطلقا مثل هذا الوضع اليائس . حيث الظلمة تعم كل الارجاء ولا بصيص . حتا . من سيئ الى اسوأ . الاحوال سيئة اليوم ولن تكون غدا افضل مما هي عليه اليوم . ولكن ما لديها اليوم هو الطفل الذي عانت من اجله ولادته بكل جوارحها . انه يمثل السعادة المنشودة في تصورها . افلا يعني ذلك انها تسير جنبا الى جنب مع سعادتها . ولكن من الجهة المقابلة . من الجهة الاخرى . وكأنها جاءت اليها من الخلف او كان ناستيونا جاءتها من الخلف ؟ لا فرق . المهم ان تتلاقيا ولا تفوت احداهما الاخرى .

ولكن ما فائدتها من هذه السعادة الآن ؟

كلا . لا بد من ان يحدث شيء ويصحح حياتها . والا فستجن في امد قصير . لقد حدث ذلك الشيء بالفعل . فهي حامل . لاحظ الاخرون ذلك ولن يجعلوها تهلك . ولذا ظهر الطفل الى الوجود فما الذي تريده اكثر من ذلك ؟ اما هو فسيظهر الى الوجود . سيظهر . انه يتحرك . انه قادم .

وهي الآن تعرف ما يجب ان تفعل . يجب ان لا تفعل شيئا . فلتسر الامور كما هي عليه دون تعديل او تبديل . فلي مكان ما . بعيد او قريب . لا بد ولن تنتظرها سعادتها هي سعادتها المشروعة التي عانت الامرين هي الاخرى بسبب افتراقهما وانفصالهما .

ها هي والدة وعجلة المصير تتدحرج ابعد فابعد .

ظلا والدين يتحدثان عن صغائر الامور . وكأنهما يقلقان ويحزنان بها ذلك الشيء الرئيسي الهش الرقيق الذي نالاه كرها . عندما يضطجع المرء يسهل عليه الدخول في مثل هذا الحوار . اذ يمكنه ان يقول مطلق العينين ما لا يتجرأ على قوله وهو يتطلع الى وجه محدثه . ويمكنه ان يصمت برهة بلا خجل . فيعود الى نفسه خلية . ثم يلتقي مع محدثه من جديد .

حل الظلام . لكنهما لم يشعلا نارا . فالضوء البارد الناعم يتسرب من النافذة . حتى بدون الستر . منعكسا عن الثلج المتساقط . وبدا وجها اندرى وناستيونا في هذا الضوء شاحبين . وبدا بدناهما ميتين خاويين وكان حركاتهما ناجمة عن قوة خارجية . وكان صوتاهما يسمان وكانهما صوتان غريبان قادمان من بعيد . وكان اندرى وناستيونا نفساهما في تلك اللحظة الهادئة وكانهما كائنان خياليان غريبان . لان ذلك النهار الساخن الثرثار انحسر بهدوء وسكينة فنشر الهدوء في كل مكان ووزع الصلح والغفران قبيل الفراق . وبتاثير تلك السكينة راحا يتحدثان بهدوء وبهمس تقريبا . لم يكن الحوار يتشبث بشيء فسار برفق وبلا تكلف . وهو يتمايل كالرقاص الذي يمكن ان يتاخر لحظة في جانب ويسرع لحظة في الجانب الآخر . او يتوقف حينما يريد وينطلق من جديد الى هنا وهناك . الا ان اندرى سال بلا مناسبة بعد ان توقف الرقاص للحظة :

— ماذا تريدين مني يا ناستيونا ؟

— ماذا اريد ؟ ! ماذا تقصد ؟ — سالت ناستيونا غير فاهمة .

— انا ، مثلا ، اعرف ما اريد منك . وانت تعرفين ما اريده منك . لقد تحدثنا اليوم عن ذلك . ولا انوي الحديث عنه من جديد . ولكني ، فضلا عن ذلك ، اريد منك اشياء كثيرة اخرى . فانت تزودينني بالمآكل والملبس . وكل ما هو موجود لدى هنا جاء عن طريقك . ضميري يؤنبني لاني اسحب وآخذ منك ولا اعطيك شيئا مقابل ذلك . يبدو انني لا ازال احتفظ ببقية من ضمير . انني عالة عليك ، واية عالة . اثقل عليك من عبء عشرة اشخاص ، بل واكثر . اما انت فمضطرة الى ان تتحاشى الناس بسببي . انا خائف ، ولدي ما يجعلني اخاف ، اما انت فما الذي يجعلك تختلفين مع البشر ؟ انا اعرف السبب : انك آسفة علي . وستاسفين علي ما تحدثنا عنه اليوم . فتلك هي طبيعتك . ولن تكبري فيها شيئا . انا واثق من ذلك . كلا ، انني لا ارضاك ، فانا اعرفك وكفى . ولن تتغير حتى ولو كنت راغبة . لن تفعل ذلك ، يا ناستيونا ، وسوف تتذكرين كلماتي هذه . انني اتلي عليك بكل الاعباء واظل في عزل عنها ، فتضطرين الى تحملها

وحدك . انت محطة لبعا قلت . فما الذى استطيع فعله ؟ ما الذى استطيع فعله ، يا ناستيونا ؟ انني اريد مساعدتك . ولكن كيف ؟ انا واقف جما فى مساعدتك . لست متعودا على اللغة السائدة . واعتقد باني مستعد لتطبق المستحيل للقيام بشيء . فقولى ماذا تريدين ؟

– ماذا اريد ؟ لا شيء .

– هكذا اذن ، لا شيء . . – تلفظ كلماتها بتلهف وكانه لم ينتظر جوابا غير ذلك – هكذا اذن ، انا اريد وانت لا تريدين . الى اى منحدر هويت ؟ : لن ينتظر احد اى نفع منى . اعرف ذلك . ولكنه كان لدى امل ما . وكنت افكر : ربما ستطلب منى شيئا ؟ كلا . حبذا لو طلبت منى الله شيء . كلا . ذلك يعنى انني الآن مصمم للضرر لا اكثر ، وميت للعطاب لا غير . كل شيء واضح ، فانا انسان ضعيف ، ضعيف بالنسبة للجميع . لقد اقدمت على ذلك بالذات . ولكني فكرت : ربما لست ضعيفا بالنسبة لك . وفكرت : ربما ستعطفين على بصدقة وتجدين فى مكانا ولو صغيرا جدا . – رغم الالم الذى لمرفه وانبعث منه راح يتحدث بهدوء وبلا استعجال وكانه يشعر بالارتياح لتعذيب نفسه ولتحمل هذا العذاب – ذلك يعنى انك تاسفين على لا اكثر . بديهى ان ذلك . بالنسبة لى الآن . وسيلة للانقاذ . بيد ان الاسف وحده لا يتحمل طويلا . فحبله رقيق جدا ويمكن ان ينقطع فى اية لحظة .

– ماذا تقول يا اندرى ؟ ! ماذا تقول ؟ ! – قاطعته ناستيونا مذعورة – اعتقدت انك سالتنى مجرد سؤال . فاجبتك ببساطة . ولكنك فسرت جوابى باكثر مما يحتمل . فهل يجوز ذلك ؟ لماذا تفعل هكذا ؟ وهل يجوز ان تجر الامور الى جانبك وتركلنى دون مبرر . ارجوك ، لا تركلنى . فقد انقذتك . واذا ، شئت ، يوسعنى ان اعثر لك على اكثر عمل الآن .

– اى عمل ، مثلا ؟

– فى البداية لا تتكلم على هذه الصورة . ستتغير الامور عصيبة على حقا فى القريب العاجل . واذا كنت انت ايضا لا تصدق فما الذى يبقى على فعله ؟

– واضح ان الامور لسهل بدونى .

– طبعا ، اسهل ، ولكن الافضل لى لو لم اكن موجودة ، فلا اعرف ولا ارى ولا اسمع شيئا ، ولا اتالم ولا اعانى . فما احلى ذلك وما احلى الاطمئنان ! ولكن ماذا استطيع ان افعل اذا كانت تلك طبيعتى ؟ فلماذا تقول لى كيف ستكون الحال بدونك ؟ لا اريد ان اعرف ذلك . ولا تبعدنى عنك . – سيطرت ناستيونا على انفاسها المتقطعة وواصلت كلامها : – لنتحمل كل شىء معا . وما دمت مذنبا فانا ايضا مذنبة معك . وسنتحمل المسؤولية معا . لولاى وربما ما حدث ذلك . فلا تتحمل الذنب وحدك . لقد كنت معك . هل من المعقول انك لم تر ذلك ؟ فاينما ستكون ساكون معك . وانت هنا كنت معى . وحتى احلامنا واحدة ، فهل ذلك عيب ؟ كلا ، يا اندرى ، ليس عيبا . لقد كنا معا فى كل مكان فمنت ذلك ام لا . نصف هنا ونصف هناك . فلماذا تعتقد ؟ لو انك وصلت بطلا فهل تتصور انه لا فضل لى فى ذلك ؟ وانه لا يحق لى ان افرح معك به ؟ كلا ، لو حدث ذلك لاعتبرت نفسى بطلة لا اقل منك : فالبطل زوجى وليس زوج غيرى . ولمرت فى القرية مرفوعة الراس اقول للنساء : انظرن واحسدن ، ها هى البطلة زوجة البطل !

– لا داعى لهذا الكلام ، فلا مجال للمقارنة . . .

– لماذا ؟ من يدرى ؟ لم يحالفك الحظ وذلك يعنى اننى لم احافظ عليك بالشكل اللازم . او انك لم تثق بى ما دمت لم تصعد ، او ان حنانى لم يكن بالقدر الكافى لك ، او ان هناك سببا اخر . لا ترفض ذنبى ولا تنكره ، فانا اواه واشعر به مع ذلك . فلنفترض اننى لم انتظرك وتزوجت من رجل آخر وتركت كل شىء وذهبت معه لا ادرى الى اين ، فهل تعتبرنى مذنبة لوحدى ؟

– فمن غيرك المذنب ؟

– كلا ، ستكون انت مذنبا ايضا . وسيكون لك ضلع فى القضية . كيف لا وانت الذى كنت ستنتجنى على هذا التصرف ؟ وربما نكون قد صمنا على ذلك منذ زمان بعيد قبل الاقدام عليه ، وربما نسينا متى صمنا عليه ، ولكننا قررنا معا ، فانا لوحدى لن اجرؤ على فعله . يا الهى ، ماذا اقول ؟ ! ما كنت لاقدم على ذلك مطلقا . والذى اتصوره انه لا داعى للاتهام : هذا لك وهذا لى . لقد اتفقنا على حياة مشتركة . عندما تسير الامور على ما يرام تسهل

الحياة معا . فتلك القضية بسيطة . ولكن يجب ان نكون معا عندما تسوء الامور . وهذا ما يجعل الناس يعيشون معا . عندما عجزت عن انجاب طفل لم تطردني انت . ووافقت على بعيوبي ولم تذهب للبحث عن واحدة افضل . فهل استطيع الآن ان انفصل عنك يا ترى ؟ لو فعلت ذلك لعذبت نفسي ولسخطتها فيما بعد . . .

– تلك اشياء ليست متماثلة . يا ناستيونا . فانا مجرم . والقانون ضدي . فما الذي يجعلك مجرمة مثلي ؟

– قالت اوان السؤال . كان يجب ان تفكر بذلك عندما اقدمت على فعلتك . وطالما اقدمت عليها فقد جذبتني معك . وانا لا افهم القضية بشكل آخر . انت تقول : اننا مرتبطان بحبل واحد . تلك هي الحقيقة . ولكن ثق بي . ثق . والا فستسوء احوالنا كلينا . وستؤذي نفسينا بنفسينا . – صمتت ناستيونا منتظرة جواب اندري . ولكنه تلكأ في الجواب . فاضافت بعد تفكير : – ربما كنت اريد لنفسي مصيرا آخر . ولكن المصير الآخر لدى الآخرين . اما مصيري فهو هذا وليس غيره . وليست امامي له . فهو مصيري . – صمتت ناستيونا من جديد . ثم اضافت : – قد تنتهي المشكلة بسلام . يا اندري . لا بد وان تنتهي بسلام . انا واثقة من ذلك .

لم يجبها بشيء .

– اما انا فمرتاحة الآن ايضا . انت تتذكر : انني لست بحاجة الى الكثير . انا معك . وذلك يكفيني . اما ما تبقى فهو بعيد بعيد . انني لا اتذكر ما كان ولا ارى ما سيكون . بل ولا اصدق بان شيئا ما سيكون . يخيل الى ان الامور ستبقى على حالها هذه الى الابد : انت وانا سوية . نحن معا . غير ان يودق لو جعلتك تحلق لحيتك . فلحيتك تبدو ضخما غريبا . لا استطيع ان اتعود عليها مهما فعلت .

رفعت ناستيونا راسها والتفتت اليه . فاحس من تغير انفاسها . دون ان يراها . بانها تبتسم . كانا حتى الآن واقفين بلا حراك ووجهاهما متجهان الى الامام . الى الساقية . وكانهما لا يخاطبان بعضهما البعض . بل يكلم كل منهما نفسه . تحدث اندري من البداية حتى النهاية مغمضا عينيه . فهذا اسهل عليه بالفعل .

ولكنه فتح عينيه الآن وهو يرد على ابتسامة ناستيونا . فالتقتا بنظرتها المتفحصة المتسائلة . ولم يتحول فاشاح بوجهه . ثم سأل هازا رأسه بأسف هادئ' فانط وكأنما يلتمس نفسه بما قال :

– لماذا لم تتحدث هكذا ولا مرة في السابق ؟ فلربما سار كل شيء بشكل آخر . او ان ذلك مجرد تصور بان كل شيء ربما سار بشكل آخر . من يدري ؟ لكننا لم نتحدث . الشيء الواضح اننا لم نتحدث في هذا الامر . كل ما كنا نقوله هو جمع كلمات من التوافه . كل يوم كنا نتحدث عن التوافه . طوال اربع سنوات كان الوقت كافيا لكي نتحدث بصدق اكبر ونسأل بعضنا البعض عما يشغل باله . ذلك يعني انني لم اكن اعرفك كما يجب . ولم اعرف غير المظهر . فانت موجودة وهذا يكفي . اما من انت . فلم اكن اعرف . كيف تجرأت على ضربك ؟ آ ؟

– لم تضربني .

– لم اضربك ؟

– لم تضربني .

– يعني انك لا تحملين ضغينة ولا تتذكرين السوء . تقولين : لم اضربك . اذن فلم اضربك . مع ان من الاسهل على لو انك تتذكرين . فماذا الفعل بك وانت على هذا المستوى ؟ ساكون مدينا لك بالكثير . وليس بوسعي ان اسدد الدين . كما ترين . آه . يا ناستيونا ! كان يجب ان تتزوجي من شخص آخر وليس مني . لا تظني باني امزح فانا اقول ذلك جادا . انت من مستوى رفيع . ولا افهم كيف وافقت على الزواج مني ؟

– لست بحاجة الى تبريرك . فانا مرتاحة معك . لقد ذكرت ذلك . فلا داعي لان تقرر بدلا عني .

– كيف لا ؟ مرتاحة . . .

– انت لا تفهم شيئا ، يا اندري . – قالت ناستيونا بهمس كئيب وبزعل وتاوه وخفضت راسها من جديد على السترة التي الفتها وسادة – اين كنت ، يا ترى ، حتى لا تعرف مرتاحة انا معك ام لا ؟ – لم يجبها . فقد ادرك بانها ليست بحاجة الى جواب . – عندما جئت بي الى هذه الانحاء لم اكن اعرف احدا

فيها . كل شيء كان غريبا علي . ويمكن القول اني سرت وراءك بعينين مغمضتين . دون ان اعرف الى اين تقودنـــي ودون ان اعترض على ذلك . ثم انني لم اكن اعرفك انت تقريبا . فلقـد تلاقينا مرتين او ثلاثا مازحين . وانطفنا على عجل وكاننـا نمزح ايضا . حتى اللحظة الاخيرة لم اكن واثقة بانك ستاتي . افليس ذلك مرعبا ؟ تغيرت حياتي كلها . ولم يبق من تلك الحياة شيء غيري انا . بل ولم اعد افهم على ان تلك الفتاة هي انا ام لا ؟ لا بد وانك تتذكر عندما نزلنا من الباخرة كيف عجزت عن رفع بصري وصرت انعثر على الارض المستوية . هل تتذكر ؟ عندمـا صعدنا الضفة العالية تشابكت قدماي وسقطت . وضحك الناس . اما انا فقد زاغ بصري ولم اعد ارى الارض تحت قدمي . وادركت انت بأني خائفة جدا فامسكت بيدي وقدتني . وعندما دخلنـــا المنزل قلت : هذه زوجتي . وسأل ابوك : ما اسمها ؟ فاجبت انا : ناستيا . فقال : ناستيونا اذن . ومنذ ذلك الحين صـــار اسمي ناستيونا . وانت تتطلع صامتة . فادركت بانني لم اعجبها وانها ربما كانت تنتظر كنة اخرى . ولاحظت انت ذلك . لاحظته وقلت عني : انها وحيدة هنا . ولا احد يدافع عنها . فلا داعي للاساءة اليها . قلت بلهجة مازحة وكانك تنكت . ولكن اية نكتة تلك في الواقع ؟! وعند ذاك فقط آمنت بانني لم اخطئ في زواجي منك وبانني ساكون مرتاحة مع اني تسرعت كثيرا .

في ذلك المساء اصطحبتني الى معارفك . هل تتذكر ؟ زرنا فيتيا بيريوزكين ومكسيم فولوخجين وغيرهمـــا . نسيت ان اخبرك : مكسيم عاد قبل ايام . وبدت مصابة بشدة . كما يقول . وهي مربوطة الى عنقه حتى الآن — لزم اندرى الصمت ولم يبد اية استجابة لهذا النبأ . فواصلت ناستيونا : — لم تتوجه الى الناس للتباهي بي . بل لكي اتعرف انا عليهم في الحال حتى لا اشعر بالغربة بينهم . وبالفعل فعندما قابلت في الصباح نادكا زوجة فيتيا استغربت جدا وفكرت : انني اعرف هذه الفتاة . فمن جاء بها الى هنا يا ترى ؟ انني اعرفها . ولكن من اين اعرفها ومن هي ؟ وبعد ذلك تذكرت : عجيب . لقد تعرفت عليها الباخرة . لقد جئت بها انت الينـــا في حين اختلط كل شيء في ذهني .

وفرحت بها فرحا شديدا وكانها هي من الاربي . والذكر اننا بتنا ليلتنا في العنبر . كانت تلك رغبتك . فرشوا لنا هناك . في البداية استغربت الامر . ولكن العنبر كان نظيفا جدا . وهو العنبر الصغير الواقع في طرف الحوش . غير انه مظلم جدا بدون نافذة . وكذلك التخت . مثل هذا . ولا اتذكر اين اختفى ذلك التخت ومن رفعه ؟ اعتقد انك انت رفعته . نعم . انت . فقد بنيت هناك خزانة خشبية وانا اسفة لذلك التخت . كان تختا جيدا . الظلام شديد هناك كما في القبر . ولكن رائحة الخشب ونشارته تفوح في كل الارجاء . وربما كان ابوك يمارس النجارة هناك . واتذكر جيدا ان رائحة نشارة الخشب كانت تفوح منك ايضا . وسالتني : هل انت خائفة ؟ فقلت لك : كلا . لا اخاف ما دمت معي . وكان هناك ديك في وكر الدجاج وراء الحائط وكانه يستمع الي ويريد ان يجربني فصاح بصوت بغيض . فقفزت من مكاني مرتعبة — وضحكت ناستيونا . فانسابت ضحكتها برقة وحنان لم تخلت . وتنهدت بيسر . — وفي الصباح لم استكن من العثور على الباب . وقفت متحيرة لا ادري في اية جهة هو . لما انت فنمت حتى الظهر ونسيت زوجتك الشابة . فهبت الى النهر وتفلدت البستانين البعيد والقريب . ولم اتناول فطوري بدونك . فبقيت انتظر . لم تتحمل امك فايفلتك . واتذكر اننا جميعا . ابوك وامك وانت وانا . تناولنا الشاي مع البقسماط . وداعبتني بهدوء وزعمت مازحا باني لم اكن معك طوال الليل . وبعد ان شربنا الشاي قلت لي : استعدي للذهاب . الى اين ؟ الى الجبال والوهاد . وبالفعل قدتني الى الجبل . الى الهضبة المنبسطة . لتشاهدنا الحقول والمروج . وحدثتني عن كل شيء . وتجولنا حتى المساء . وعندما عدنا الى المنزل وجدنا اصدقاءك ينتظرون . فقالوا : احضر العرق ما دمت قد تزوجت . وكان فيتيا هناك ايضا . ومكسيم فولوخجين . فيتيا فتل . لا بد وانك تعرف بذلك . فقد كتبت لك عنه . ولكني لا اتذكر هل كتبت لك ان امينة نادكا ولدت بعد مقتله ام لا ؟ عندما الآن ثلاثة اطفال . وهي لتعلب كثيرا بسببهم . فما العمل ؟

التفتت ناستيونا الى حيث يرقد اندري . كان جامدا كالصخر .

وحتى انفاسه خفتت . فشعرت بالاسف لانها تذكرت فيتيا . لهو صديقه الحميم . ولكنها لم تكن راغبة في تحويل مجرى الحديث بهذه السرعة . بل وربما لم تكن قادرة على ذلك . فالذكريات الحية لا تزال ماثلة بكامل قوتها . وهي ترتعش بفرحة مطلقة امام انظارها تستطيع ان تواصل الحديث عنها ولا تقطع حبلها . ان ما توقفت عنده ناستيونا قريب جدا وهو يداعبها في محاولة لاجتنابها والاستحواذ عليها وتوجيهها الى الامام . فلقد كانت تلك الذكريات سعيدة مفرحة وواعدة حقا . ومع ذلك كبحت ناستيونا تلك الذكريات : كفاية . واستولت عليها رؤية جديدة ومزاج جديد فسألت بلهفة :

– هل تتذكر كيف جئت اليك في مركز الناحية عندما كنت تدرس في الدورة ؟

في الشتاء الثاني لزواجهما بعثت التعاونية الزراعية اندرى للدراسة في دورة المحاسبين . كان قد انهى المدرسة الابتدائية . فاعتبروه متعلما ونصحوه ان يترك عمل سائق الجرارات الذي اختاره ونسبوه الى المحاسبين . تلك وظيفة محترمة ايضا رغم انها لا تشبه العمل في الجرارات . فهو سيعمل في مكان واحد ويكون في البيت دوما . اما لو عمل في محطة الآلات والجرارات فسيقضي شهورا بكاملها في حقول غريبة وبين اناس غرباء . وهذا ما اثر على اختيار اندرى لمهنته عندما تسنى له الاختيار .

في عيد راس السنة وصل الى البيت وبقي اسبوعا . وفي شباط ذهبت اليه ناستيونا . تعين عليها ان تقطع زهاء سبعين كيلومترا الى مركز الناحية وان تبيت الليل في الطريق . رافق ناستيونا في زحافة واحدة اينوكينتي ايفانوفيتش وفاسيليسا الحكيمة التي فصلت المستشفى لسبب ما . راح اينوكينتي وناستيونا يتحدثان عن كيت وكيت من اجل قضاء الوقت . اينوكينتي ايفانوفيتش محب للكلام . اما فاسيليسا الحكيمة فالتزمت عندما من ذهب . وصلوا في مساء اليوم التالي وانطلقوا على انجاز الاشغال خلال النهار والتزقوا . لم تكن لدى ناستيونا

اية اشغال سوى رؤية اندرى . وتلك قضية لا تكلفها الايام مهما طالت .

استاجر اندرى غرفة فى منزل مقام على الضفة غير بعيد عن مصب الجدول فى نهر انظارا . ولم يمض وصول ناستيونا السرور لدى صاحبة المنزل العجوز . والاكثر من ذلك ان وصولهـــا لم يمض السرور لدى النزيل الثانى فى غرفة اندرى . وهو رجل كهل متجهم برجه مجدر كالح ونظـــارات ذات زجاجتين مختلفتين - احداهما اكثر عتمة من الاخرى - تغبيهتين بقامة احمر الخيل . فقد ظل واقفا على السرير يطالع كتابا دون ان ينهض ودون ان ينطق بكلمة ترحيب . اضطرب اندرى وتحير ثم رافق ناستيونا الى فندق الفلاحين كى تبيت ليلتها .

قبل ان تسافر ناستيونا الى اندرى كانت تتمنى املا ضعيفا تخشى ان يتبدد فلا تتذكره الا لماما . بديهى انها ما كانت تريد اطلاقا اطلاع اندرى عليه . خيل اليها انه طالما تعذر عليها ان تحيل فى البيت فلربما استطاعت ان تحيل هنا . ففى البيت تعودا على بعضهما البعض . اما هنـــا فكل شىء جديـــد . وليس من المستبعد ابدا ان يكون لذلك تاثيره .

وليس عبثا ما يقوله الناس من ان اسرع الاجنة واكثرهـــا تشبثا هى التى تنشأ من وصال عاجل مثـــى غير شرعى . فبعد حين من الزمن ينمو الجنين طفلا ويناجى امه قائلا : بابا يسلم عليك ! انها ناستيونا فكل شىء عندما نزيه ناتج عن الحب . ولكن يفارق واحد هو انه بعيد عن المنزل . ولذا قد يكون بعيدا عن الاخلاق . لم تكن واثقة من ان بمقتها هذه يمكن ان تسفر عن نتيجة . ولكنه كلما تضاءلت ثقتها بذلك كلمـــا اندفعت اليه فى محاولة للتثبت منه .

- هل تتذكر انك لم تذهب للدراسة فى الصباح . وجئت الى منحبنا الى الملهى القريبة على الجانب الثانى من الطريق ؟ كان على الطاولة سماور ضخم لم ار مثله مطلقا . حنفيته مثلوبة يقطر الماء منها فوضعوا تحتها خصيصا صحنا عميقا . ولا ادرى لماذا لم يلحموه . عندما جاءت المراة التى تصب الشاى صبت فى قدحك من ماء الصحن بسرعة خاطفة . لاحظت انت ذلك ، وقلت لهـــا :

صبي لي من السـاور . فجادلتك قائلـة : ان هذا من السـاور ايضا . قلت انت : كلا . هذه قطرات من ماء بارد . ليس هذا شايا . بل ماء غسيل . فقالت : ليس ماء غسيل . فقلت : ماء غسيل . ومع ذلك تراجعت . وصبت لك من السـاور . واتذكر انك اشـتريت لي حلوى مغلفة بورق . واكلتها انا مع الشاى بدلا من السكر . حلوى عسلية عاطرة لزجة يبقى طعمها طويلا بعد تناولها . — تمطقت ناستيونا ولعست شفتيها وكانها تستعيد ذلك الطعم العسلي الذى لا ينسى .

— وبعد تناول الشاى توجهنا الى منزلك . لم نجد نزيلك المتجهم ذا النظارات المتنافرة . اما العجوز فكانت موجودة في البيت . فهي ليست بحاجة الى الدراسة في دورة المحاسبين . جلسـت وراحت تتطلع الينا وتنتظر ما سنفعل . عجوز خبيثة . لاحظت اننا ننتظر ذهابها . ولكنها بقيت صما . وعند ذاك فكرت انت بكيفية ابعادها . فاعطيتها نقودا لتشترى قنينـة عرق من الحانوت . وهي . كما قلت لي فيما بعد . تحب شراءها بنفسها ولا تثق باحد في هذا الخصوص . اخذت العجوز تستعد للذهاب وقالت انهـا ستشترى القنينة بسرور ولولاها لما تزحزحت من مكانها . وطلبت منها انت ان لا تستعجل . فالوقت كاف . وقالت لك : الوقت كاف لي . اما انت يا عزيزى فاغلق الباب بالمزلاج مع ذلك كي اطرق الباب وادخل بيتي بشكل مهذب .

ضحكت ناستيونا بعفوية وصدق دون ان يرتعش بدنهـا . وتهادت ضحكتها كصوت عجلة صغيرة مرت بيركة ماء في الطريق وابتعدت برفق .

— وبعد ذلك تجولنا طوال النهار فزرنا كل الاماكن التي يمكن ان تزار — خفضت ناستيونا صوتهـا من جديد الى حد الهمس وواصلت كلامها مغطية الالفاظ : — لم تتركني ولا خطوة واحدة . بل كنت مسرورا لاننا معا . فقد لاحظت انك كنت مسرورا . اما انا فما اعظم سروري ! كانت الفرحة تغلفني في صقيع الشتاء . اسير واحس كيف يتسخن وجهي من الداخل وكيف ترتعش يداى . فقد كنت في البداية اخشى ان تسالني لماذا جئت ؟ وبالفعل . لماذا جئت ؟ هل يمكن توضيح ذلك بالكلمات ؟ لم يكن لي اى

تشغل عنك . لقد جئت وكفى . نزلت عليك فجأة . فماذا يمكنك ان تفعل ؟ ورحت انسى وانتزه وانشغل زوجي عن دراستـــه . وذهبنا الى السينما - هتفت فجأة بصوت يكاد يقرب من الصياح - هل تتذكر ؟ ذهبنا الى الســينما ؟ كدت انسى اننـــا شاهدنـــا الســينما . فقد ذاكرتي سيئة جدا حتى انها لا تحتفظ باهـــم الامور . وفي اليوم التالي عندما كنا عائدين الى قريتنا حكيت قصة الفلم . حتى فاسيليـــا الحكيمة فتحت فمها . اتذكر اننا جلســنا ، انا وانت ، في آخر صف تحت النجوة التي كان شعاع الســينما ينبعث منها . وقبيل النهاية انحنيت على وهمســت : لماذا تســافرين غدا ؟ الا تستطيعين ان تبقي يوما آخر ؟ فهززت راسي بالنفي ودموعي تسيل على خدي : فقد طلب مني ، هو بنفســه ان ابقى ، وكاد قلبي يقفز من بين الضلوع . . .

وبعد ذلك ، هل تذكر مـــا حدث بعد ذلك يا اندرى ؟ انـــه مضحك للغاية . قبل ان توصلني الى فندق الفلاحين عرجنا من جديد على منزلك . ونحن نعلم ان العجوز صارت طيبـــة القلب . وعندما دخلنا قالت لك : اعطني ، يا عزيزي ، نقودا لشراء قنينة اخرى ، ويمكنكما ان تبقيا هنا ، في مطبخي ، لما انا فـــابيت الليل عند صاحبتي ، وسوف نتدفأ ، كلتانا ، حول القنينة . واعطيتها انت النقود ، فما الداعي لرفض طلب العجوز ؟ واختفت لكنهـــا سرعان مـــا عادت حتى قبل ان نفكر بالنوم ، وقالت : الحانوت مغلق ، ولا استطيع الذهاب الى صاحبتي بدون الخمر . وعند ذلك ذهبت بنفسك لا ادري الى اين ، وحصلت على قنينة سلمتهـــا للعجوز فانصرفت . واتضح بعد ذلك ان لزيلك المتجهم لم يات هو الآخر ، فقد بات في مكان ما . وبقينا تلك الليلة لوحدنـــا كالملوك . آه ، يا اندرى . . رى ، كل هذا وانت تسال : هل كنت مرتاحة معك ؟ فلمـــاذا تســال هكذا ؟ يا الهي ، هل تعتقد انني بحاجة الى اكثر من ذلك ؟

الا ان اندرى لم يعد يسمع ناستيرنا او يفهمها . فعندما كان يتابع ذكريات ناستيرنا في البداية احس بالم لذيذ يعتصر قلبه بشدة متزايدة . وسببه ان ذلك كله قد حدث بالفعل في زمن ما . فهو يتذكره ايضا ولكن بجفاف وغموض وبخل واستحياء ، وكان

ذلك حتى ليس له . بل لشخص آخر قبله . لشخص آخر تنازل له عن ذاكرته . وهو لا يدري ماذا يفعل بها . انها حية نشيطة ثائرة لا تحمل له سوى الآلام . فهي لا تريد ان تتعايش مع ذاكرته الاصلية . ولم تكن هاتان الذاكرتان والجثتين في تفهم بعضهما البعض . تمكنتا من احتلال موقعين مختلفين تماما في وعاء واحد دون ان تختلطـــا ودون ان تتجاوزا الحدود المرسومة . بيد ان ذاكرته الاصلية كانت القوى والاشد . فهي . عندما تريد . تتفوق على ذاكرته المكتسبة .

وحدث ذلك في هذه المرة ايضا . كانت ناستيونا تتحدث بالفعل خفيف . وكان هو يسمع اليهـا دون ان يجيب . فيلحق بمجرى حديثها تارة ويتخلف عنه تارة اخرى حيث يتوقف قليلا عند التفاصيل الخاصة به هو . كان يسير وراء ناستيونا في الدروب الطروق . ولكنه . ورغم ذلك . اخذ يتعثر كثيرا ويتلفت متالما وخائفا من الوجهة التي تقوده اليها . وعندما فاجأته ذكرياته الاصلية الخاصة لم يستغرب . بل كان واثقـا من انها ستفاجئه . وكأنه ينتظرها متوقعا في تحمل العذاب وتجرع ما يتعين عليه تجرعه . لكي يعود بعد ذلك الى ناستيونا من جديد .

بدأت تلك الذكريات من لاشيء . من بيت عنكبوتي واه سحبه دون حذر فاتضح بانه كان ليثير اهتمام اندري لوحة اخرى ظهرت برفق في البداية ثم انهالت عليه . اللوحة قريبة من واقعه الراهن . ولم تكن لديه القوى الكافية لرفضها والتخلص منها . تلك هي آخر الذكريات المرتبطة بالحرب . وهي دومـا تمثل امامه بغتة وتستولي عليه طويلا بتسلط وبلا رحمة وتلقي الاضواء على كل التفاصيل بعفة تثير الرعب والفزع . لقد اضطر اندري بولكونسكوف مرارا الى معاناة الشيء ذاته وبنفس تلك التفاصيل . فان حياته في الحقيقة انقلبت راسا على عقب منذ ان وقع ذلك الحادث : فقد نقل في البداية الى المستشفى ثم توجه الى هنا مباشرة .

... في امسية دافئة من امسيات الصيف كانت البطارية تستعد للانتقال الى موقع آخر بعد ان انجزت القصف المدفعي التمهيدي من موقع ناري مستور . لطالما الاتصال مع المراقبين من زمان . وناحبت بطارية البيئة للتحرك . بينما كانت الاستعدادات في

طورها الاخير في بطارية البسرة . لم تصدر اوامر بالاستعجال . كانوا قد فكوا عربة مدفع الهوتزر الذي يقاتل اندري ضمن الفرقة القاتلة على خمسة . وانجزوا وضع جهاز التصويب وربط المساند وانشغلوا في تغليف المدفع بالمشمع . ومن الخلف ، من وراء الهضبة المحدبة المكسوة باشجار متناثرة زارت محركات الشاحنات الواحد تلو الآخر وزحفت باتجاه المدافع شاحنتان ثقيلتان يهتز هيكلاهما المرتفعان .

يبدو ان زئير محركات شاحناتنا هو الذي لفت على زئير دبابات العدو . كانت الاستعدادات للانتقال قد اضعفت انتباه الجنود وخففت من شعورهم بالخطر حتى انهم لم يعيروا بالزئير القريب المكتف مع انهم سمعوه وتحسسوه في اعماق الظن . وعندما ظهرت الدبابات الالمانية على المرتفع لمحهم وفرملت للحظة كي تنفض حيرتها العابرة ثم انسابت الى الاسفل بما لهم ذلك وكانه كابوس من فعل الشيطان . من اين جاءت ؟ كانت قواتنا في الامام ! فمن اين جاءت دبابات العدو ؟ وتعالى صياح في كلتا البطاريتين وتراكضت المغارز وهي تخلع الخلفة الشمع وتفتح مساند المدافع وتخفض مواسيرها وتديرها . كان اندري (ومهمته هي تعبئة المدفع) قد هرع الى صندوق القذائف عندما اصيب بهزة القته ارضا . واثناء سقوطه راى وكانه بعينين مغمضتين . كيف تسبح عجلة المدفع المجاور ببطء وهي تدور مرتفعة الى اعلى ثم تهبط من جديد . وعندما ادرك بانه لا يزال حيا قفز الى الامام وانتشل الصندوق .

كانت الدبابات خمسا . وتمكن جنود بطارية البسرة وهي البطارية الاولى ، من اصابة احداها . فاشتعلت النار فيها . اما البطارية الثانية التي يقاتل فيها اندري فلم يكن قد اتسع لها المجال لتطلق النار بعد . راح القائد يصرخ بصوت متوتر ابح ، ولكن ما ينبغي فعله واضح حتى بدون اوامر . زحفت الدبابات من المرتفع وانغمست في اسفله . فتوجهت دبابتان نحو البطارية الاولى وتوجهت الدبابتان الاخريان نحو البطارية الثانية . وسارت الدبابات الاربع ، متحايلة ، على خط وسط بين البطاريتين لكي

يضرب المدفعيون بطئهم بطئا . بيد ان الوقت لم يكن يتسع للتفكير في ذلك .

تمكن الهونزر الاول الذي يصيبه اندري فورسكوف ، وهو المدفع الرئيسي في البطارية ، من اطلاق النار مرة واحدة لا غير .

وبعد ذلك دوى قرب اندري انفجار بقرقعة شديدة عابرة ، والقى به جانبا وهو يتدحرج كالقذروف كما خيل اليه .

ومن مكان بعيد مجهول تهادى صوت ناستيونا حنونا رقيقا . فارتعش اندري لنغماته ، ولكنه لم يسمع كلماته . فقد اصم سمعه زئير تلك المناوشة العظيمة القصيرة التي نشبت بين الحديد والحديد حتى لكان وجود البشر غير ضروري فيها . وتعاقبت صور المعركة امام عينيه بومضات ضوئية قصيرة متكررة وفاحت رائحة الدخان والحريق واختلطت في دوامة ساخنة واحدة صرخات البشر ، وخطوط التربة السوداء التي مزقتها سكك عربات المدافع غير المثبتة ، والشاحنات المنسحبة على عجل الى مخيمها ، ووجه كوروتكو مصوب المدفع الذي رفع راسه قليلا ليتطلع الى بطنه المزق بشظية ، وقطاء ماسورة قذفه الانفجار الى اعلى — كل ذلك وسط جلجلة جنازير الدبابات المتصاعدة التي ضاعف الرعب من شدتها .

واختفى صوت ناستيونا فجاة . لم يكن اندري قد استيقظ ولم يعد بعد من معركته الاخيرة عندما التقت بحفر صوب ناستيونا فراى في عينيها شيئا مغايرا لذلك تماما ، راى في عينيها دفئا ينبعث من ذكرياتها هي . فلم يضبط اندري اعصابه ودس راسه في صدرها وراح يئن . فارتعبت :

— ماذا بك يا اندري ؟ ماذا بك ؟

كاد ينتحب ، ولكنه ضبط نفسه وقال :

— لا شيء ، لا شيء يا ناستيونا . انت هنا ، انت معي .

ولكنه لا يزال خائفا من ان المعركة التي شهدها الآن هي حاضره الراهن ، فظل يتلفت حذرا . واخذت ناستيونا تداعب شعر راسه بيدها وتتحدث عما يشغل بالها :

— بم تفكر ؟ انت احمق ولا بد . فقد تخيلت شيئا ، وربما لا تكون انت مرتاحا معي ، فلا تتحدث باسمي . انا مرتاحة معك

دوما . اؤكد لك : دوما . وانـــا لا افكر حتى مجرد تفكير بانى استطيع ان اعيش بدونك . كيف اعيش بدونك ؟ وطوال هذه السنين انتظرتك انت وليس غيرك . لم الم ليلة واحدة دون ان احلمت معك ، ولـم انهض فى الصباح ابدا دون ان التقى بك واعرف ماذا حدث لك . لقد خيل الى حقا انى ارتاك : فى البداية لا احد غير حليف يشبه حليف الريح ، وبعد ذلك يعم الهدوء شيئا فشيئا . ويعنى ذلك انك لست بعيدا . ثم ارتاك انك . ارتاك وحيدا على الدولم ، ولا ادرى لماذا ؟ تجلس او تقف بزى الجندى ، وانت حزين ، حزين جدا ، ولا احد حواليك . انطلـع اليك واتاكد من انك حى واعود ، فلا يجوز التاخر او التكلـــم معك . وبعد ذلك اتحمل واتجاوز ضعفى من يوم لآخر . ربمـا بالغت فى انتظارك حتى ضيقت على حريتك وليدتك فى القتال . فمن اين لى ان اعرف ما يجوز وما لا يجوز . لقد فعلت ما امكن منه ولم يوجهنى احد ولم استنصح احدا . اما انت فكنت صامتا . آه ، يا اندرى ، يا اندرى . . .

امسك راسه بكلتا يديه واخذ يديره بسرعة من جانب الى جانب وكانه يحاول انتزاع تلك لا يقوى على تحمله وقال بانين عميق :

– يا الهى ، ماذا فعلت ؟! ماذا فعلت يـا ناستيونا ؟!–

وخفض يديه والتفت اليها : لا تاتى الى بعد الآن ، لا تاتى على انت سامعة ؟ وعند ذلك سانصب ، سانصب نهائيا . فلا يجوز ان ابقى على هذه الحال . كفاية . لا يجوز ان اعذب نفسى واعذبك . كفاية . لا استطيع .

تجمدت ناستيونا متحيرة ، ثم اعترضت عليه :

– كلا . انت تذنب . وانا ؟ ما الذى سيحدث لى ؟ هل فكرت فى ذلك ؟ فالى اين اذهب بذنبى الذى لا يمكننى الظهور به امام الناس ؟ فلنبق معا . ولننتظر ، يا اندرى . فلا تستعجل . ربما ستحل المشكلة بسلام ، لا بد وان تحل بسلام . كانت امى تقول من زمان : ليس هناك ذنب لا يغتفر . اقليسوا هم بشرا ؟ ستنتهى الحرب وسنرى . فاما ان نذهب لنعلن التوبة واما ان يحدث شىء آخر . ولكن اصبر ولا تتصرف . فانت لوحدك ستهلك . وانـــا ساهلك . فى البداية ساهلك انا . امـــا الآن فانا اعرف ، هل

الاقل . اين انت ؟ واذا كان هناك طفل حقـــا فانت الوحيد الذى يعرف انه طفلك . وعلى من اعرض احزانى ؟.. انى الان غريبة عن الناس . عاهدنى على انك لن تذهب . آه ؟

لم يجب ، ولكنه هز رأسه بعد حين . فقالت مبتهجة :

– اجل ، لا داعى لذلك .

ولزمت الصـــمت لحظة ثم التفتت الى النافذة وقالت :

– الظلام شـديد . خـيـر بان على ان اذهب . انهض ، يا اندرى ، فلنذهب . قلت انك ستراقصنى . فلنذهب . وسـنكون معا فترة اطول . لا تفكر بشىء . فانت لـست وحيدا . ولو كنت وحيدا لكان لك الحق فى ان تفعل ما تشاء .

وحال الظلام دون رؤية الدموع التى سالت على خديها .

١٣

بعد ثلاثة ايام من هذا اللقـــاء ، حالما ازيحت الثلوج التى حملتها الريح وتكشفت الطبيعة المتجلدة القديمة ، استعد اندرى نيوسكوف للتوجه الى اناماتوفكا . كان يفكر ، من زمان ، بالتجوال قرب القرية ، ولكنه يؤجل ذلك خوفا من افتضاح امره بالصدفة او بقلة الحذر . اما الآن ، بعد الحديث مع ناستيونا ، وبعد ما عرفه منها ، فلم يعد قادرا على الحد من رغبته . ومما يثير الدهشة انه الآن يشعر بثقة اكبر وكأنه حصل فجأة على طرق خاصة يتواجد هنا . فقد غدا اقل خوفا واقل اهتماما بالخطر الذى يتربص به . زد على ذلك ان الطقس صار ادفأ وهبت تباشير الربيع ، وهذا الامر يناسبه تماما ، فلو تأخر قليلا لفات الاوان .

عبر نيوسكوف نهر انغارا فى منتهى ليلـــة صافية مرصعة بالنجوم والفجر يكاد ينبلج . استدار حول القرية من طرفها الشمالى وصعد الهضبة . فهو منذ ان عاد لم ير قريته اناماتوفكا من هذه الجهة ، فبدت له اصغر مما كانت . تطلع الى المنازل الواطئة فلاحت وكأنها منبطحة ، وليـــست منتصبة ، على طول الشارع ، بنوافذها المنخفضة المتباينة (بعضها بمصراعين من الخارج وبعضها الآخر بدون مصراعين) . وبدت النوافذ فى تلك الحقبة شبيهـــة بزرع

على الثياب . وراى سطوح المنازل وهي تكاد تلامس الارض . كما راى نسيجها الخرقاء الممتدة الى الجانبين . فلاقى صعوبة في التعرف على ديارهم . فوسكوف يتذكر من ظهر قلب مواقع كل المنازل وعالديتها . ومع ذلك راح يتطلع اليها باتباه كبير حتى كاد يشعر امام كل منها : هل هو ذلك المنزل ام لا ؟ انه هو من حيث الموقع . ولكنه مشكوك فيه من حيث المظهر . فاما ان يعود السبب الى عدم انبلاج الفجر بعد بالشكل الكامل . والى كون الهواء لا يزال قاتما كابيا . واما ان القرية قد شاخت وتضعضعت الى تلك الدرجة بدون سواعد الرجال ابان الحرب .

فوت منزله ولم يتطلع اليه عمدا لامد طويل . كي يتعود قبل ذلك . وان قليلا . على القرية ويشعر بقربها منه . ويصدق بانه يراها في الواقع وليس عبر الذكريات . الا ان شعوره ذاك لم يكن مستحيلا : فخلال السنوات التي قضاها الدرى هنا . وخصوصا خلال الشهور التي قضاها على مقربة من اتامانوفكا وحرم على نفسه فيها رؤيتها . صار يختلف معها في الكثير . وليس في الامر حيلة : فالقرية مقدر لها ان تبقى هنا . اما هو فسيلزم بان يهيم على وجهه هناك . لن يعيشا معا . بل ولن يدفن فيها حتى بعد مماته . فلا داعي للاكتئاب جزافا . ولا داعي لتعذيب النفس وارهاقها باسى لا جدوى منه . في بعض الاحيان كانت نظرة فوسكوف ترتطم بطرف اتامانوفكا الحرقي من وراء النهر . فيتساءل بتكاسل ولامبالية . بل وبشيء من الاستهانة بالنفس : ما الذي هو بحاجة اليه هناك ؟ لقد كان بحاجة الى شيء ما هناك . ولكنه نسي ما هو .

المنزل الذي ولد وترعرع فيه ويسكنه اعز الناس لديه يلمع لمعانه بالنسبة . في الطرف السفلي للشارع . واخيرا استعاد فوسكوف وركز انتباهه فحول نظرته اليه : نفس النوافذ الثلاث المطلة على الهضبة . باتجاهه هو . ونفس الركن الامامي الايسر العائل (ابوه يقول ان المنزل اعرج كصاحبه) . ونفس المدخل الواسع المتين المبني من جذوع الانجار . كجناح الخافي . وعلى سطحه المستوى تكمن الكثير من الامتعة النافلة . كان المنزل راسخا لا يخشى عاديات الزمن . بيد انهم لم يعملوا في حينه ولم يحولوا دون انهيار الركن في الارض . وذلك اثناء الصيف الذي

كانت الحرب ستندلع قريبا . وبعد موسم حش الاعشاب كانوا يدرون جميع الرجال «للتخزين» كي يرفعوا الركن بسرعة ، دفعة واحدة ، فيضعوا تكية تحته ويعدلوه . بيد ان الوقت لم يسعفهم . اما الآن فالمجوز لا يستطيع بالطبع حتى التفكير بذلك . فليبق المنزل مائلا الى ان ينهار نهائيا او الى ان يحصل على مالك قوي . طبعا . فابوه وامه لن يعيشا طويلا . اما ناستيونا . . . فمن المستبعد ان تبقى هنا . وحتى اذا بقيت فلن تبقى لوحدها .

راح غوسكوف يحدق في النوافذ حتى اتعب عينيه وكأنه يأمل في رؤية ما يجري في الداخل . النافذة اليمنى تطل على المطبخ ، ووراء النافذة مباشرة وكر الدجاج ، ومقابله الفرن الحجري الذي تظل نامه الليل والنهار راقدة في مضجعها على دكته في الآونة الاخيرة . لم يسخنوا الفرن بعد ، فالدخان لا يتصاعد من المدخنة . ولكنهم سيتهضون قريبا ، وستنادي امه ناستيونا وستنشغل هذه باشعال الحطب . نافذة ناستيونا هي النافذة اليسرى عند الركن السائل . وهي الآن تظهر آخر لحظات النوم . انها راقدة على ظهرها بساقين ممدودتين وبداها تطوقان بطنها . وستظهر هذه العادة الآن اذا كانت قد حملت حقا . هكذا يستعد الانسان مسبقا ، وقبل سنين عديدة ، لما سيكون عليه فيما بعد . فقد تعودت ناستيونا ، منذ ما قبل الحرب ، على تطويق بطنها بيدين اي سبب ظاهر . واستمرت على ابتهالاتها حتى نالت مبتغاها . وسيعرف القرى اليوم بالضبط هل تبقد لعله وضاع ام لا ؟ فان ناستيونا ستعطيه اشارة اليوم . واذا لم يتغير شيء فسوف تسخن الحمام في المساء . بيد ان ناستيونا لا تعلم بانه الآن هنا على مقربة منها ، ولذا فسوف لن تنتظره في الحمام ليلا ، اذ قال لها بانه سيصل الى النهر فقط لرؤية الاشارة .

وعندما تصور غوسكوف كيف تضطجع ناستيونا على السرير الآن – غالبة سمنة دافئة ولد لجسم فيضها على بطنها والسدل شعرها البني وشحب وجهها والتفخ قليلا خلال الليل وراح يرتعش بين الغينة والغينة وكأنه يحاول بجهد ان يتذكر شيئا – عندما تصور ناستيونا الآن في حلمها الصباحي الاخير تجمد والتجرت في حنجرته لقمة صغيرة وثقيلة لم عنها صوت كالانين .

اخذ يوسكون نفسا فحول نظره الى العناصر المنتصبة بصف واحد الى اليسار . ولم ير من موقعه هنا ذلك العنصر الاخير من جهة الحوض والذي تحدثت عنه ناستيونا في ذكرياتها عن ليلتهما الاولى . بيد ان ناستيونا لم تقل كل شيء في ذكرياتها تلك . فهي لم تقل انها تصورت الديك الذي شوش عليها آنذاك نذير شؤم لم تستطع ان تتخلص منه لمدة طويلا . فكانت تكرر : «نذير شؤم . نذير شؤم» . وكان هو . اندري . يحاول تهدئتها قائلا : «لا تصدقي بصياح الديكة . فهي تصيح هنا طوال الوقت» .

واخيرا تخلص الصباح من العتمة نهائيا وانار ما حواليه فنهضت القرية من الارض بعض الشيء واصبحت اكثر قربا منه . الدخان من المداخن وتهادت اصوات ضعيفة ناعسة غامضة . ونهضت ناستيونا ايضا . فالنافذة المقابلة للقرن المتلات بوميض احمر متقطع . ولاح ضلع الباب الذي انفتح . وخرج شخص . بيد ان السياج حال دون رؤيته : فهل هو ناستيونا ام ابوه ؟ حان موعد ذهاب ناستيونا لحلب البقرة . ولكن اباه ربما كان يقدم العلف للماشية قبل حلبها . وربما احيل هذا الواجب الى ناستيونا الآن . فمن يدري ؟ او لعل ذلك الشخص هو امه التي اثارها هاجس قلق فاستجمعت كل قواها وخرجت الى الشارع ووقفت تنتظر : ما الذي دعاها الى الخروج والى اين ستتجه ؟ هل من المحتمل ان امه لا تشعر اطلاقا . ولا قيد انملة . بانه موجود هنا . على مقربة منها ؟

ظل واقفا يتطلع ويتذكر . ولكن كل شيء جرى بيسر وبدون الم ولا اضطراب . فاما ان هذه المشاعر لم تستيقظ ولم تتحرك بعد . ولعلها انها هلكت في داخله . واخذ يتعجب لهدوئه واطمئنانه : فهو لاول مرة . بعد اربعة اعوام . يقف امام قريته ومسقط راسه . يقف مدركا بانه ربما لن يتسنى له الوقوف بعد الآن . ومع ذلك لا يحس باية اثارة . هناك ارهقه الشوق واضناه الحنين . وكان مستعدا للتضحية بكل شيء من اجل ان يلقي ولو نظرة واحدة . للمرة الاخيرة . على قريته انامانوفكا . ويمكن القول انه جاء الى هنا من اجل ذلك . وها هو الآن هنا ولم يعد هناك شيء . احقا ان كل شيء فيه احترق وصار رمادا ؟

ولكي يتثبت من نفسه ويستعيدها حول نظرته الى منزل فيتيا بيريوزكين صديقه ورفيق طفولته الذي استشهد في معركة موسكو . هذا المنزل الذي يعرفه جيدا قد نفث دخانا هو الآخر . وفيه الآن نادكا مع اطفالها . كان اندري قد ساعد فيتيا في الانتقال الى هنا من الطرف العلوي عندما انفصل فيتيا عن امه . ولم يكن لديه في الواقع ما يستحق النقل . شدوا الحصان الى العربة ووضعوا فيها صرتين او كلانا وسريرا وتلفا خشبيا . هذا كل ما في الامر . اما السالفة والصاطب فقد نجروها هنا . واستعملوا في ذلك ادوات النجارة من منزل اندري . ولم تسعف نادكا بهذه المنجورات فصنعت مساند . وعند ذاك حملاها . ولم تعارضتها الشديدة ومحاولاتها للتملص من ايديهما . الى السطح واحتجزاها هناك وراحا يستحمان ضاحكين الى عويلها الذي عم القرية كلها . واشترطا من اجل مساعدتها في النزول ان تقدم لهما قنينة عرق وحالما ما نزلاه . فقد وعدتهما . ولم تكن لها في الامر حيلة . فهي تخشى القفز من على السطح . ولم يكن هناك سلم .

تذكر ذلك بسهولة ايضا . بسهولة ويسر . ولما طفت هذه الذكريات بالذات قبل غيرها . بيد ان ما اثار خشية اندري هو دقة وقرب ظهور فيتيا لعامه الآن : وجهه وصوته ومشيته وحركاته . وكل شيء فيه . حتى خيل اليه انه كان يقف الى جانبه وانصرف قرا للحظة وسيعود . وفكر غوسكوف : عجيب . انه غير موجود بين الاحياء وانا اراه واسمعه حيا . فمن الذي جعلني افعل ذلك ؟ هل هو فيتيا نفسه ام ذاكرتي ؟ وهل يراني . انا مثلا . احد ما ينفس هذا الوضوح ؟ انا موجود . وينبغي ان يراني الناس بوضوح اكبر . حيا بين الاحياء ! كلا . لا بد وان الغلطة تكمن في شيء آخر – توقف مجرى افكاره لحظة – فيتيا انتهى . بلغ النهاية . والجميع يعرفون ماذا حدث له . اما انت فلا احد يعرف ما الذي حدث لك . صار الناس من الآن يتحاشون تذكرك . وليس لديك ماوى يمكن ان تنطلق منه الذكريات . فقد اعمر طفلك وانت حي . وذبت كثلج الشتاء الماضي . ثم ان ذكرى الانسان التي تصل الى الآخرين لا بد وان تعرف ثمنها وقيمتها . ولذا فان ذكراك ستظل ابدا تخجل وتختبئ كما تختبئ انت الآن .

فلا تأمل . لا تأمل في شيء . حتى في هذا السجال لا تنتظر خيراه .
كان يفكر ويتأمل بهدوء دون ان تمس الفكاره شغاف قلبه . وما دام الامر كذلك فلا حيلة له فيه . وعندما سيموت لن يهمه ما سيقوله الناس عنه . فالشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ . وانشغل بال لوسكوف كالسابق بمنزله الذي حاول ان لا يحيد ببصره عنه . راى والده في الحال . وخيل اليه انه سمع صرير بوابة السياج عندما اطلقها ابوه وراءه وتوقف لحظة ليتطلع بانتباه الى الهضبة التي وقف عليها اندرى وكانه حزر بان ابنه موجود هناك . ثم سار بمشيته العادية المرجحاء في الشارع وتوجه الى اليسين نافثا بخارا من انفاسه او دخانا من غليونه . فالمسافة بعيدة ويصعب تحديد ذلك بالضبط . وتجد اندرى على فكرة باردة ثقيلة الحركة :- «ها هو والدي . . .» . تطلع الى ظهر ابيه . ذلك الظهر الذي لا يزال هذا يحاول تكويمه دون ان يضاع لضغط الشيخوخة . واجتاح اندرى الشعور بالحيرة والفراغ واكتنفه من كل الجهات . توقف الاب في منتصف الطريق وانحنى انحناءة شديدة عند الخاصرة وهو يهز راسه . ولعل السعال قد انتابه انذاك . خيل لاندرى من جديد انه يسمع هذا السعال ولان صوته الثقيل البرمق يصل اليه . ثم اعتدلت قامة العجوز وواصل سيره وهو يعرج . وبعد فترة اختفى وراء ركن مكتبة القرية .
ظل اندرى واقفا يتطلع ببلاهة الى الارض امامه . ثم اسرع فجاة . وكانه قد تذكر شيئا . الى اعلى الهضبة بمشية تشبه الركض . وعندما اختفت القرية عن الانظار استدار الى اليسين وسار بنفس الخطى المستعجلة المتسارعة عبر الغابة حتى بلغ الطريق . سار فيه فهبط من جديد . وعند اجمة التنوب الكثيفة التي يلتف الطريق حولها تركه وشق السير بخط مستقيم . لم يخف من سيره . الا بعد ان خرج من الاجمة ورأى البناني من بعيد . فقد البسط لعامه اسطبل الخيل الذي يلتصق سياجه الخلفي بالغابة مباشرة . ومن هنا بوسع اندرى ان يرى اباه عن كثب .
لم تكن تربطه بابيه علاقات متميزة . لا طيبة ولا سيئة . ويمكن القول ان كلا منهما عاش بذاته . صحيح ان اباه كان يراقبه

في الطفولة . ولكن مجرد مراقبة . دون ان يتدخل تقريبا في مشاغله واهتماماته . كان لديه ما ياكله ويلبسه وكل ما هو مطلوب من الوالدين . وكفى . اما الحياة فليتعود عليها لوحده . ولهذا الغرض منحه ابوه دعائما وساعدين . لم يكن يعلم ابنه ويربيه . بل لم يكن يعرف ما هي التربية وما الغرض منها . فالحياة . كما يعتقد . تربي وتحول اي انسان وتعده لما يصلح له . واذا دعت الحاجة فانه يلوم ابنه ويؤنبه . واذا لم يكن هناك داع لذلك يتركه وشانه . واذا سأله اندري عن شيء يوضحه له بكل اسهاب وصدق فرحا لان ابنه مهتم بذلك الشيء ولانه يتمكن من ايضاحه والتحدث عنه . واذا راى ان ابنه يميل الى ما ينفع ويفيد . حثه عليه واشاد بما يجيده . ولكنه لم يكن ابدا يدفعه الى ذلك بالقوة . فلم يكن متعودا على هذه الطريقة . فليتعلم الصبي بنفسه كل شيء . وسيكون تعلمه راسخا متينا . ذات مرة فقط . على ما يتذكر اندري . ساعده ابوه في التفريق بين الصالح والطالح . فقد اساء اندري التصرف والقى الذنب على ابن الجيران ميشكا . فخلع الاب سيور الحذاء من الحمار على الجدار ولقنه درسا بصمت . وكانت تلك هي المرة الاول والاخيرة .

ولذا سارت اموره مع ابيه بسهولة ويسر . فهو لم يلاطفه ولكنه لم يكن يغضب عليه ويصيح به مثل امه التي كثيرا ما تحدث تقلبات مباغتة في مزاجها : فهي اليوم بحال وغدا بحال آخر . كان بوسع اندري ان يتوجه الى ابيه في اية لحظة . اما بالنسبة لامه فعليه في البداية ان يتاكد : باي مزاج هي اليوم ؟ ثم من اعالي ضواحي براتسك الذين يتكلمون بلهجة تقلب السين والصاد شينا : حشاؤنا في الشيف شاحبة وبردنا في الشتاء شديد . وعلى نهر انغارا توجد بضع قرى تتكلم بهذه اللهجة ويسكنها اناس فارعو القامة يتحلون بالفتنة والجمال ويحبون العمل . وخصوصا النساء منهم – ولا احد يعلم من اين جاءت هذه الفصيلة المختارة من بني البشر . في شمال وجنوب هذه المجموعة من القرى يتحدث الناس بلهجة طبيعية . اما سكان تلك القرى فلا يستطيعون التكلم على نحو آخر وكانما السنتهم معقودة بشكل مميز خاص بهم وحدهم . وتبدو لهجتهم في اسماع غيرهم بالطبع غريبة غير

مهمومة . ولا بد من التعود عليها في البداية . وكان اهل اناماتوفكا يسخرون من امه ويتيطونها حتى بعد ان شاخت . وكانت هي تشعر بالغيظ الشديد ولا تجيد اخفاءه . ولذا صارت تتحاشى الآخرين وتفضل البقاء لوحدها . زد على ذلك ان لدى الام ما يكفيها مما يثير الشجون والاحزان . فالحرب الاهليـــة اجتثت اصلهـــا من الجذور : اباها وامها واخوانها الثلاثة جميعا . كان اخوها الاصغر الذي خدم فترة في قوات كولتشاك المعادية للثورة قد حاول انقاذ نفسه من الانصار فالتجأ الى اخته في اناماتوفكا . ولكنهم عثروا عليه هنا ايضا . ولعل تلك هي اولى الذكريات الغامضة الجزاة التي احتفظ بها اندرى عندما بلغ الخامسة من العمر . فقد ظل يتذكر كيف جاء رجال لحرباء ملتحون واخرجوا خاله من السرداب واقتادوه . وفيما بعد ظلت الام طوال الوقت تلوم زوجها وتقرعه لانه لم يدافع عن اخيها . وكان الاب يلوذ بالصمت : فهو نفسه عاد من الحرب العالمية الاولى معوقا وتمكن من التملص من واجب حمل السلاح لاية جهة كانت . وحالما انتسب الى التعاونية الزراعية بدا عمله في اسطبل الخيل منذ اليوم الاول .

الاب يحب الخيل . ولا يعرف اندرى شخصا آخر اكثر منـــه عطفا على هذه الماشية واحتراما لها . ولعل عدم ثقته برعاية الآخرين لها هو الذي حمله على العمل في الاسطبل عندما اقتاد من حوشه الى حوش التعاونية ثلاثة رؤوس من الخيل لذا حسبنا السهر من ضمنها . وفيمـــا يتعلق بالخيول لا يتسامح الاب مع اي كان . فتراه يتحسس لها ولعم حمدوله . بل ولعم خموله عادة . ذات مرة . في بداية اشاعة التعاونيات الزراعية . ضرب الاب بالسوط وليس التعاونية الحالي نـــطور عندما اقتاد هذا من مكان ما حصانا مرهقا يتصبب العرق والزبد منـــه وشتمه هذا من اثـــر الافراط في الركوب . ضربه على مرأى من الفلاحين ضربا مبرحا ولم يتجرأ احد على ايقافه . كان ذاك الحصان . واسمه طالرعده . قبل تاسيس التعاونية عالجا لشليق نـــطور الاكبر اوليان الذي قتل فيما بعد في الحرب الفنلندية . وربمـــا كان نـــطور يشاور في ارضاق الحصان لانه يعتبره حصانه . ولكن والد اندرى لم ير ذلك اي اهتمام . وكان يحمل ضيقا على الذين يتلزززون من اكل لحوم الخيل

ويبرهن لهم ان الخيل انظف الحيوانات على وجه البسيطة . ولكنه هو نفسه ، ما كان يستطيع اكل لحومها . وذلك بسبب حبه للخيل وعطفه عليها حتى وان كانت ذبيحة . فقد قال : «لن آكل لحوم الخيل والبشر ولو مت جوعا» . في معركة ستالينغراد اتلفت لحوم الخيل انذرى من الجوع . فتذكر كلمات ابيه هذه وفهم ان اباه لم يصادف حالة مثل حالته والا لما قال ذلك . ذات مرة اضطروا الى تقطيع اوصال حصان ميت وطبخ لحمه . وقد فرحوا لذلك . بل وعرضوا انفسهم للرصاص كي يتناولوا جيفته .

اختبأ انذرى في اجمة القنوب وراح ينتظر خروج ابيه من جناح عدة الخيل . في وسط باحة الاسطبل صفقان طويلان لجرا من جذعين كاملين وانتصبا على قوائم في مكانهما القديم . والى جانبهما عربة نقل الماء وعليها برميل عتيق مصوب كالمدفع نحو نهر انغارا . وعلى امتداد السياج الايسر اصطفت مختلف العربات الصيفية ذات المرانش المرفوعة والمشدودة وقد كومت عليها لحطب البتولا وحاجيات خشبية اخرى . والى يمين سقائف الخيل انبسطت حظيرة مكشوفة تتموج فيها الآن صهوات الخيول . لم يتغير هنا شيء خلال هذه السنوات . سوى آثار الشيخوخة التي بدت واضحة . الباحة وجراجة ذات لون اصفر داكن من نثار القش والسماد والروث وتفوح منها منذ الصباح الباكر رائحة كثيفة مركزة للعفونة والنتن تنطلق على نسمات الهواء الفارس : تنشق انذرى هذه الرائحة وكاد يختنق بها لعدم تعوده عليها من زمان . ولكنه انتشى وشعر بالارتياح لها واجتاحته رغبة مرحة للتشبع بها .

راح يجوب الباحة وحيدا مهر حول ادهم جميل ببلعتين شقراوين متساويتين على جنبيه . وهو مهر قوي نظيف بقوائم خفيفة متينة وصهوة فاحمة لماعة وعثرة وعنزة حليقتين . اعجب انذرى بالمهر وفكر بانهم ربما سيتركونه لاجل الانسال ولن يثلموه في اعمال اخرى . فهو مهر جميل حقا . بل ومحبب للاستطلاع . فقد احس بوجود انذرى واقترب من السياج المقابل له ومد راسه عبر اعواده وسلط عليه نظرة متفحصة طويلة . خرقه انذرى بتلويحة من يده فابتعد والتفت الى السقيفة ليتاكد من وجودها ثم حول

نظرته من جديد الى الشخص الغريب العريب . وفيما بعد لم ينس هذا الشخص ، فراح ينبش نظار اللص لحظة ويتطلع اليه لحظة اخرى ، وهكذا دواليك .

كان اندرى في حالة من التيه والضياع والحيرة الى حد الانخصام في الذاكرة . فهو تارة لا يفهم السبب في اختباله في الغابة في حين لا يجوزه الا ان يخطو بضع خطوات ويلتز عبر هذا السياج ويخرج الى العالم . فلماذا لا يخرج الان ؟ ماذا ينتظر ؟ وتارة اخرى يتذكر بانه لا يجوز له الخروج باي حال من الاحوال ، ولكنه لم يفهم علة الفرة من اين جاء هذا المكان الغروف لديه في حياته السابقة الكالحة . اذا كان هو ، اندرى ، يعتبر من زمان في عداد نزلاء العالم الآخر ؟ من اين ؟ هل هو خيال وسراب ؟ ولماذا ؟ ولصالح من يجرى ذلك ؟ وما الذى يربطه به ؟ وكيف وصل الى هنا ؟

لم يلاحظ اندرى متى خرج ابوه من جناح العدة . فقد رآه فجاة يقود فرسا من السليفة . الفرس حامل في ايامها الاخيرة . جنباها منتفخان وبطنها مقوس متمل ، وخطاها ثقيلة حذرة . تركز انتباه اندرى بالدرجة الاولى على الفرس . فقد اثارت دهشته اكثر من اى شيء آخر . ولعله هو نفسه عاجز عن ايضاح السبب . فاما لانه لم ير من زمان الفراسا حوامل ، وقد نسى مظهرها ، بل وحتى احتمال وجودها في العالم ، واما لانه فرح لتمكنه من عدم التطلع الى ابيه في الحال وعدم اضطراره الى التهامه بنظراته دفعة واحدة ، حيث تهيات له امكانية التعود عليه تدريجيا والاستعداد لذلك بشكل الفضل . اخرج الاب الفرس من السليفة وتوقف ودار حولها متفحصا ولعله يفكر فيما اذا كان من الضرورى لها ان تتمشى ام لا . ثم امسك بلجودها وواصلا سيرهما . سارا على امتداد السياج السفلى حتى بلغا ركنه واستقرا نحو الهضبة ، باتجاه المكان الذى يقف فيه اندرى . . . اضطرب وتحير . فهو لا يدرى هل يتعين عليه ان يبقى في مكانه ام ينسحب الى اعماق الاجمة ، واخيرا ظل في مكانه على امل ان تستره اغصان التنوب جيدا . ولكنه جلس القرفصاء تحوطا .

عندما وقعه ابوه الى الجهة ارتعش ولم يضبط اعصابه وساله

في آخر لحظة : هل سيقدر لنا ان نلتقي ؟» . كان يلهم لعرين لا تالت لهما : فلما ان يلتقيا واما ان لا يلتقيا . ولكنه مـا كان يتصور اطلاقا ان احدهمـا سيتمكن من رؤية الآخر ، في حين ان هذا لا يرى ذاك . فهذا التصور معقد جدا بالنسبة له . وهذا بالذات ما يجري الآن . كان الاب يقترب ، وهو يرتدي صديريا مشدودا بحزام وقبعة قطنية منزلية الصنع ذات اذنين معقوفتين الى اعلى وجزمة مشدودة عند الركبتين . انه يسير ببطء ويخطو متعبة . والارهاق باد في يديه المتدليتين العاجزتين وفي خطواته المتثاقلة . فهو يدفع قدما ويجر القدم الاخرى بصعوبة حتى تبلغ القدم الاولى . ولاح الارهاق كذلك في بدنه الذي بدا اكثر نحلا وهو يسرح هابطا صاعدا . انه الآن شديد الشبه بفريسة جريحة يلاحظها الصياد ولا تتحرك الا بقوة الاستمرارية . وركز عليه اندري انظاره ، والاب يقترب ، وكلما ازداد قربا صار اندري ينهض ويعدل قامته ناسيا ضرورة الالتزام بالحذر ، وهو يتجمد ويتحجر من الداخل ، وتزحف الشاوة على عينيه وذهنه . وعلى مقربة من عارضة السياج انتاب السعال اباه فتوقف . وراحت الفرس تتطلع اليه من الخلف بعينين ذكيتين ملصقتين بالمشاطرة . استمر في سعاله طويلا بصوت عميق ابح وقد امسك صدره بيديه واشاح بوجهه جانبا ، ثم خف السعال فرفع راسه وتطلع الى الامام مباشرة ، الى اندري . المسافة بينهما لا تكاد تبلغ عشرين خطوة . تحجر اندري نهائيا . ولو استمر ابوه في نظرته تلك لما تحمل اكثر ولخرج اليه ، الا ان الاب اخفى بصره وسحب المقود . كانت النظرة التي سلطها على اندري قد فقدته فلم تتطبع في ذاكرته صورة ابيه ، ولم يلاحظ كيف تغير وجهه . لقد راى فقط ان هذا الوجه بشاربيه الاشيبين المتهدلين هو وجهه ، ولم ير اي شيء آخر . وفيما بعد ، عندما تطلع الى ظهر ابيه المبتعد ، خيل اليه انه قد استيقظ لديه انتباه خاص مستعد للتشبث باصغر تافهة . بيد ان هذا الانتباه استيقظ متاخرا . فقد اقتاد الاب الفرس الى السقيفة من البوابة الجانبية واختفى . وبعد خمس دقائق رآه اندري مرة اخرى بصورة خاطفة وهو يحمل حزمة كبيرة من القش بالمقراة . ثم نادى احدهم الاب ، فادرك اندري بان عليه ان ينصرف .

خرج الى الطريق وسار فيه صامتا على مهل دون ان يحاول الاختباء . ولكن الى اين يسير ؟ لم يكن يعرف الى اين ؟ كان همه ان يتحرك ليبتعد عن الناس وعما تعين عليه ان يعانيه الآن . ولكنه لم يأسف لانه اسرع الى الاسطبل . وما كان يوسعه ان يتصور بان ذلك الذي وكلس من اجله سيتوجه لحوه ايضا . من يدري ؟ الم يكن السبب في ذهابه الى هناك ، بل وفي عبوره نهر انغارا اليوم هو امله بانه قد يلتقي اباه كما حدث فعلا ؟ لقد جازف بالطبع ، ذلك شيء واضح ، ولكن لزاده الذي كاد يلهبه ويمزقه قد تقوى الآن ولعدا اكثر متانة . ففي ذلك منفعة له .

وما قيمة تلك المنفعة ؟ لقد رأى اباه . اباه الحبيب . وسوف يحسب ذلك لصالحه . وستسهل الحياة عليه : فقد ادى واحدا من الواجبات . كان ملزما بان يرى اباه . فلا بد من وجود وسيلة تخبر الاب قبل الوفاة بان ابنه وقف لمامه في صباح هذا اليوم طالبا العفو والغفران . لا بد من وجود وسيلة من هذا النوع . وسوف يعفو عنه ابوه ويسامحه . كيف لم يلاحظه ؟ لقد تطلع اليه مباشرة . ولعله رآه ولم يرغب بالاعتراف به فتظاهر بانه ينظر في الفراغ . كلا . لم يلاحظه . والا لسأله . طبعا . لسألك . ولكنك انت ماذا عساك ان تقول ؟ وماذا عساك ان تفعل بعد ذلك ولماذا ابن تذهب ؟ من الافضل ان لا تلقي بعملك على احد غيرك ، فاحمله لوحدك . ناستيونا تساعدك ، ومساعدتها تجعل التالي اثقل . يبدو ان من الضروري تخليص ناستيونا ايضا من هذا العبء بالتدريج . لوحدك ، احمله لوحدك . بدون ناستيونا ؟ انك تكذب . لن تستطيع العيش بدون ناستيونا . لناستيونا تمنحك انفاس الحياة ، وربما ستمنحك اياها في المستقبل البعيد ، بعد مماتك .

لم يلاحظ كيف اشرقت الشمس . فعلى السرفلج الذي تباعدت اشجاره الى الجانبين وافسحت المجال للدرب داعبت اشعة الشمس عيني لوسكوف وحملته على تضييق جفونه . فتحرك كل شيء حواليه بغتة ، تحرك بحذر وبطء ، ولكن بتناسب كبير . النهار واعد صفاء ، والسماء صافية مكشوفة . لولقي الهواء في اشعة الشمس ،

ولاحت امارات الذوبان على جليد الطريق . كانت الثلوج لا تزال تغطي ارض الغابة . ولكنها هبطت واخذت تتصبب ماء . وظهرت بينها اعشاب العام الماضي وكانما لمست خلال هذه الايام . وبرزت بقع من الارض ذاب ثلجها نهاليا . انتصبت الاشجار وعدلت من وضعية اغصانها وتساقطت وانتفضت مرتاحة من ثقلها . رغم انها لم تستيقظ نهاليا بعد . كان طعم الهواء مرا بعض الشيء . فخلال الليل لم يتسع له الوقت كي يرتفع الى اعالي الجو بخار ذوبان ثلوج يوم امس . وانبسطت اشعة الشمس حانية على الارض دون ان تلمسها . واخذت تهبط عليها اوطا فاوطا .

كان ينبغي للوسكوف ان يتخذ القرار كي يغادر القرية باسرع ما يمكن . ولكنه لم يكن راغبا في الاستعجال . فظل يسير بفتور ويخطى واهية . ولم يسر لقاؤه مع ابيه دون اثر : فقد استولت اللامبالاة على انحاء . قال اين يسير ولماذا وما الذي يبحث عنه هنا ؟ الم يكن من الافضل له ان يبقى في منطقته دون ان يجلب تعبه . فقد اخذ يستعيد هدوءه هناك ويستاد على حالته . اما مجيئه الى هنا فيعني منذ البداية انه نكا جراحه . ولكن . كلا . فهذا شيء ضروري له . ضروري . وسيشعر بالارتياح له فيما بعد . ليس بوسع الكائن ان يدرك فعلا بانه وحش كاسر الا بعد ان يرى الحيوانات الاليفة . وليس بالامكان مواصلة الحياة الجديدة دون ازالة حبل سرة الحياة القديمة . في حين ان حبل السرة هذا يتصل ويصيله مهما حاول اخفاءه . كان يريد من مجيئه الى هنا ان يقنعه عن كثب وفي اليقظة بانه لن يتواجد بعد الآن ابدا في منزله الحبيب ولن يتحدث مع ابيه ولعه . ولن يحرث هذه الحقول . لقد جاء ستوكا على القول الماثور : لن يفل الحديد الا الحديد . وهو يدرك الآن ادراكا قاطعا بان الطريق الى هنا مسدود امامه . وسيتجاوز لغيرا تلك المسافة التي اجتلها طويلا ، والتي لا بد له من تحملها بشكل او بآخر .

خيل اليه ان لقاءه مع ابيه كامن في دخيلته من زمان في انتظار الفرصة المؤاتية كي ينتفض ويأخذ بخناقه بقوة اشد . وهو يشعر الآن بانه كرس لهذا اللقاء جزءا قليلا من نفسه . ويتراءى له هذا اللقاء الآن كحلم المزلق يسير على صفحة ذاكرته ولم يستقر

عليها . بل ظل كتوف بارز يميله الآن عن السير وعن التفكير . كان يعود اليه من حين لآخر . فتارة يتجسد مرة اخرى من اثر دهشته لرؤية ابيه على هذه المسافة القريبة . وتارة يرتعش لخوف متأخر من ان اباه يمكن ان يكون قد رآه . ولكنه يعود الى ذلك اللقاء بحذر وبصورة خاطفة كيلا يهزه ولا يعاني منه بالم اشد . فهذه المعاناة ليست في صالحه اليوم . اذ انه في ارض غريبة . غريبة ؟ وافق لوسكوف ساخرا على فكرته هذه : اجل . غريبة . وعليه ان يكون حذرا للغاية . فلا يجوز له ضمنا ان ينساق وراء الخور النفساني الذي قد يكلفه غاليا .

تذكر . لسبب غير معروف . تانيا الخرساء التي اختبأ عندها في اركوتسك . تذكرها دون مناسبة . فطاف امام بصره وجهها بشفتيه الهلاميتين المتسائلتين . وشعر لوسكوف فجأة بانه راغب في ان يكون عندها من جديد . وراغب في ان يأخذها معه ويتوجه الى ابعد نقطة في الارض حيث لا يوجد بشر . فيبني هناك الكلام . ويثار لنفسه فيتشفى بالتهكم على تانيا والاستهزاء بها ثم يأسف لها ويعطف عليها . ثم يستهزئ بها من جديد . فهي تتحمل كل شيء وتستعد بالقليل القليل . وجوه اليكم مسلية حقا : فهي تبتسم . ولكن عيونها باردة خالية من المشاعر . وشفاهها ترتعش ولكن كل ما عداها جامد متوتر . وهو . بالطبع . لا يستحق حتى تانيا . ولكنه مستعد لتقبل هذه الخطيئة . فان تانيا مهانة اصلا . ولذا يمكن التمادي في اهانتها . وسأل احدى من نفسه : «لو تسنى لك ذلك . فما الداعي لاهانتها ؟» . ربما هو الذنب يتطلب المزيد من الذنوب . فالنفس الساقطة تبحث عن هوة سحيقة اعمق لتغوص فيها . وهو . في الغالب الظن . لن يستطيع ان يفعل غير ذلك . انه بحاجة دوما الى تأكيدات وبراهين على انه تحول الى ما هو عليه الآن بالذات . فهو على هذا الاساس يشعر بثقة اكبر .

وصل لوسكوف الى طرف الحقول واستدار الى اليمين نحو الهضاب المنبسطة البعيدة . حيث يتعين عليه ان يقضي النهار كله . فليس للناس ما يفعلونه هناك في هذه الفترة . لم يكونوا يتقاطرون روت التسعيد الى هناك في السنوات الطيبات . فكيف بهم الآن . وخصوصا في هذه الاحوال ؟ حتى اولئك الذين لا تعرف

الدلامهم الهدوء لن يصلوا الى هناك . فما هم بحاجة اليه من الطابات يمكن ان يحصلوا عليه ليس بعيدا من القرية . وحتى اذا وصلوا لا خير في ذلك . فليطاردوا هم منه . اما هو فلا يدري الخوف منهم اليوم . لن يسمح لهم بالاقتراب منه الى حد التعرف عليه . ولن يحمه ان ينظروا اليه من بعيد ما شاءوا ولن يتحيروا في معرفة هويته . فله الحق ان يسير هنا سيدا مرفوع الراس . لقد عمل في هذه الحقول فيما سبق ليس اقل من الاخرين . وهو يعرف من ظهر قلب كمية التربة في كل منها وما زرع وحصد فيها قبل الحرب . وله هو ايضا فضل سابق في كون هذه الحقول لا تزال تعطي غلالا دون ان تكتسحها الاعشاب . انه ليس غريبا هنا . ابدا . الهواء في هذه الارجاء يعلم الآن بانه موجود وانه يسير جنب هذه الحقول التي تمددت وتجمعت عندما تعرفت عليه . وهو الآن لا يقق الا بذاكرة الطبيعة فالناس لا يجيدون تذكر بعضهم البعض . القيار يحملهم بسرعة كبيرة ، والارض التي عاشوا فيها هي التي يجب ان تتذكرهم . انها عاجزة عن معرفة ما حدث لهم . وهو بالنسبة لها انسان طاهر نزيه .

ارتفعت الشمس وازداد الدفء ولمعت القطرات على الطريق وسالت ، وتجمعت اولى المجاري الصغيرة . فغدا الثلج على الجانبين اكثر زرقة وانتفاخا وثقلا . وغدا الهواء ثقيلا ايضا لتشبعه بالرطوبة تدريجيا . فرسكوف يرتدي جزمة لبادية (فليس لديه غيرها . وعدته تاسيتونا في الشتاء الاخير بالبحث عن جزمته الجلدية المثبتة) . وهذه الجزمة اللبادية تثقله الآن اكثر من اي شيء آخر . خيل اليه انها تفضحه ولا تمكنه من التظاهر بانه واحد من ابناء القرية . فهي جزمة غرباء لا تصلح لهذا الموسم حتى لكانها تفصل بينه وبين الارض التي يمشي عليها . لقد غدا السير بالجزمة اللبادية عسيرا الآن . وهو لا يدري كيف سيسير بها بعد ثلاث او اربع ساعات عندما تشتد حرارة النهار . لعل من اللازم الانتظار في مكان ما . هناك كوخ خشبي مهجور قرب الجدول على الهضبة الاخيرة، ويمكنه الانتظار فيه . كلا ، انه اليوم لا يريد الاختباء في كوخ . مل من الاختباء . ثم انه لم يصل الى هنا من اجل ذلك . ربما من الافضل خلع الجزمة والسير حافي القدمين . بشرط ان

يمشي ويسير وينشر الفاسه في كل مكان تصل اليه . فلربما لن يتسنى له القيام بذلك بعد الآن .

انهالت عليه الذكريات المنبعثة من كل مكان - من الحقول وكرومها ومن شجرة الشربين الملتوية المتيلة المنتصبة وسط حقل محروث ومن النبع المنبجس من تحت شجرة التنوب في اجمة صغيرة . وحتى من السماء التي تظل من وراء الغابات برسم فريد لا مثيل له في اي مكان آخر . بيد ان لوسكوف يخشى الذكريات ، ولذا رفضها وحاول التخلص منها . فراحت تتقلع حائما ابدا ، ثم تتناثر هاوية . ولو انصاع لها لما استطاع منها فكاكا . ما نفع الذكريات الآن ؟ ولم هذا العذاب اذا كان من المستحيل تغيير اي شيء ؟ وما يؤسف له ان الذاكرة لا تفهم هذه الحقيقة . فان لذاكرة واحدة صنوت من نصيب شخصين غريبين على بعضهما البعض غربة تامة . وليس بالامكان اطلاقا اقناع تلك الذاكرة . ولو تمكن من ان يبيد وينسى كليا ما عاشى به في السابق لهان الامر عليه كثيرا . ولكن هيهات ، فذلك الشخص ، السابق ، لا يزال موجودا وسيبقى على قيد الحياة مقهورا منسحقا لامد طويل ، فلا مجال للتخلص منه . وسيظل هو ، لوسكوف ، الى آخر يوم من ايامه يتلوع مشردا دون ان يذوق طعم الهدوء ولا طعم الحرية .

ولكنه اكتشف لحياة انه لا يزال ، عبر مواقفه على ذلك والتاع نفسه به ، بل ورغم مواقفه والتاعه . يأمل في شيء ما . فان امثاله ضئيلا صامتا كان يعيش في دخيلته بطفله تام ، حتى انه لم يتمكن دوما ان يتحسسه . ولكنه امل يعيش ويتنفس ، وكان هو في احيان نادرة يسمع ارتعاشاته الحذرة المرتابة . بيد انه لا يوجد ما يأمل فيه ، لا يوجد اطلاقا ما يمكن ان يأمل فيه ، فلن تحدث اية معجزة . ويبدو ان لوسكوف يواجه عن كثب لاول مرة حقيقته العارية بدون اسف ولا تحفظ . فلقد بدا وكانه يتحسسها ماديا ، وكانما اخترقته ومرت عبر كيانه من البداية حتى النهاية ، فارتجف لبرودتها . وهو لا يعرف ما القى دعا تلك الحقيقة الى المثول امامه الآن بالذات ، وليس قبل او بعد هذه اللحظة التي توجه فيها الى الديار الحبيبة المتصلة بفؤاده . اليست تلك الديار هي التي دعتها ؟ التفت لوسكوف الى ما حواليه ولام نفسه وابتسم بسخرية وقسوة وحقد :

انتظر . سيأتيك بعد لحظة طير يعترف لك بلغة البشر فيقول : نعم هي التي فعلتها . حاول فرسكول تجاوز فعله . بيد ان ضميرا مجهولا بقيضا كان يستعد ويتصاعد في فؤاده . فصارت خطاه تتعثر رغم محاولته الاستعجال وتوسيع تلك الخطى . وتلاحقت انفاسه واضطربت . وتلطف فجاة فكرة الطير : — «الطير . . . انني انا نفسي كنت اعيش كواحد من طيور السماء . فماذا كان يحزنني ؟ ماذا ؟» .

بعد ذلك انفلت جميع الاعنة وانطلق محطما جميع الاقفال والمحاذير والموانع . ولم يعد قادرا على التوقف وتهدئة النفس . وانساق وراء التبريرات :

«لو لا الحرب . لولا الحرب اللعينة لعشت كما يعيش البشر ولعملت كما يعملون . فسوى ثلاثون عاما . وهي اقل من نصف الحياة . لم اعش نصف حياتي وما هي النهاية قد حانت . فلماذا ؟ لماذا انا بالذات وليس غيري ؟ ما اكثر البشر على وجه البسيطة . . . فما هو ذنبي بحق السماء حتى يتصرف معي على هذا النحو ؟ ما هو ذنبي ؟» — نفت عن صدره انة وراح يبحث عن مكان يجلس فيه . فقد خانته قدماه . وجد امامه على جانب الطريق جذعا قديما مبللا فهوى عليه . — «لولا الحرب لعشت لا بأسا من الآخرين» — تشبث بهذه الفكرة التي عنت له — ولعملت . فقد كنت شغيلا جيدا . والجميع يعرفون ذلك . ولتوجهت الآن لاداء عمل ما في حقل الانحاء . . . لسرت هكذا . وجلست هنا ودخنت سيجارة ولاديت الواجب فيما بعد وعدت الى القرية . . . — خيل اليه ان هذه الامكانية قريبة المنال وقابلة للتطبيق حتى لعمل وكاد يقتنع بصوابه فحاول التأكد مما اذا كانت هي كذلك في حقيقة الامر . ومما اذا كان قد حان الوقت لاداء العمل الذي جاء الى هنا من اجله والعودة الى القرية . كلا . لم يتغير شيء على وجه البسيطة . فكل شيء ظل على حاله . لم يكن ذلك بلغة بعد حلم للابد . بل هو واحد من التأكيدات الكثيرة جدا الحاربة كل يوم لاثبات حالته وما آل اليه . بيد ان ذلك التأكيد بدا له الآن مريرا ومرعبا على الخصوص . فان كل شبكة دفاعه التي نظمها بصعوبة انهارت في لمح البصر . فغدا عاجزا اعزل . واجتاحه خور لين بغيض . فلم يتمكن حتى من ان يصرخ على نفسه ليوقفها

عند حدها . ولكنه كان مرتاحا لفعله هذا . ولعجزه عن مكافحته .
- كل ذلك بفعل الحرب . انها هي السبب - عاد من جديد الى السيرات وراح يصب اللعنات على الحرب - لم تكتف بالعدد الهائل من القتلى والمشوهين . فراحت تبحث عن المنازل . من اين جاءت تلك اللعنة العظيمة البرعية وانهالت على الجميع دفعة واحدة ؟ وانا ايضا . انا ايضا وسط هذا اللهيب . لا لشهر او شهرين . بل لسنين كاملة . فمن اين لي القوى الكافية لتحمل اكثر مما تحملت ؟ تحملت اقصى ما استطعت . فانا لم اهرب فورا . لقد صامدت وقدمت نفسا . فلماذا يعاودني بالآخرين . باولئك الملاعين الذين كانت بدايتهم ضررا ونهايتهم ضررا ايضا ؟ ولماذا يعد لنا عقاب واحد ؟ الامر لسهل عليهم . فهم لا يتعذبون نفسيا . اما انا فلا ادري متى ستحجر مشاعري وتتبلد احاسيسي . . . وحالما جئت الى هنا . بدأت اعصابي تنهار . واستولى على ضعف النفس . . . فانا لست من عصابة فلاسوف . اولئك الخونة الذين تحركوا ضد اهلهم وذويهم . لقد تراجعت امام الموت فقط . فهل من المعقول ان لا يؤخذ ذلك بالحسبان ؟ تراجعت امام الموت - كرر القول فرحا للتعبير الموفق الذي عثر عليه . ثم قال متباهيا : حرب مهولة ! ومع ذلك تمكنت من الفرار . يا للشيطان ! ليس بامكان كل شخص ان يفعل ذلك .

رفع رأسه وتطلع الى مكان بعيد اقل من الحقول التي اجتازها . وضحك بتحد وبصوت عال .

ظل جالسا فترة اخرى . وهو يهدئ بنفسه الافكار وبنفس الطريقة مثالها وراء تلاطم الضحك وتراجعا امام الالم الفظيع الذي كاد بجعله يئن كالكلاب . ثم تجاوز هذا الالم وسيطر عليه فاخذ يسخر من نفسه متظاهرا بمرح يائس خانق غير سليم . الى ان عاد منذعرا من جديد الى اعماله ودخيلته فارق في لجتها .

وتصور بعد ذلك ان سبب هذا العقاب هو تركوده وعدم انشغاله بشيء . فنهض ودحرج الجذع الذي كان جالسا عليه الى وسط الطريق . فيفصل احد ما على لزاحته ! تطلع فوسكوف حواليه وواصل سيره . واكتفت فؤاده برودة كئيبة . بيد ان الخطى السريعة جعلت الافكار تتخلف بالفعل ولا تأخذ بخناقه .

كان الصباح في اوجه . فانسابت المياه بمناول مترددة دون خرير ، وهب النسيم على الحقول مرتعشا متسللا من جهة السلوح . وبدت الغابة من خلاله بيضاء في اشعة الشمس وكانها خط ضبابي متصاعد الى اعلى . وتهادت من القرية اصوات فرحة منتصرة للديكة التي اطلق سراحها من اوكارها ، ونعق غراب صوم بصوت شائك وخز الاذن وخزا ، وتشابكت النسمات العائمة للارض تائهة دون وجهة محددة . الفد وجه لوسكوف ليس من النسيم ، بل من الشمس . اما النسيم فكان يجتنب الهواء وينفثه عليه من جديد تارة من هذه الجهة وتارة من تلك . وعلى بيدر خال قرب احد الاكواخ الشتوية انهمكت بمانتان وعصافير وسخة منفوشة الريش في نبش القمور الفسح وسط زقزقة لجوجة . وعندما اقترب لوسكوف منها فرت من مقلتها وحرقت قربه بضجيج .

توقف لوسكوف عند البيدر وراح يتطلع الى العصافير . فهي لم تكن موجودة في اندريفسكويه بعيدا عن الناس . وفكر متسائلا : كم هو عمر العصفور ؟ الا توجد بين هذا السرب الجائع الصاخب عصافير كانت تحلق هنا عندما عمل في هذه الانحاء ؟ بيد انه لا يعرف عمر العصافير . فهو في السابق لم يكن يعنى بمثل هذه التفاهات ، ومع ذلك اثار هذا الامر كآبته من جديد . خوّف العصافير والقرب من الكوخ وخلع جعبة بابه الذي التصق بالجمد بسبب برد الشتاء . الكوخ بارد فارغ . بحث فيه لوسكوف عما يؤكل فلم يجد شيئا ، ثم خرج . كان شيء ما يؤذيه ، ولم يتمكن من معرفة ما اذا هو بحاجة الى الطعام او النوم . لقد جلب معه شيئا من طعام . ولكن عليه ان يحتفظ به لوقت اجد . فهو ، لسبب ما ، يؤمل في الحصول على طعام هنا ، مع انه لا مجال اطلاقا للحصول عليه . فهو لن يذهب بالطبع الى القرية متسولا ، وفي هذه الفترة لا يشوي شيء ولا يحتفظون بشيء خارج القرية .

ظل يتراوح في مكانه طويلا دون ان يعلم ماذا يتعين عليه ان يفعل . ثم حاول الهواء نفسه متصورا الشيء الذي سينشغل به . فاستدار الى ما وراء الكوخ ، حيث الشمس تضيء من جهة الجبل ، وجلس على جذع مطروح هناك واتكأ الى الجدار . ليا مضى ، بعد عام الحجاعة ، عام ١٩٣٣ ، كان قد نهض لرية هذه البقعة . وامامه

الآن ينبسط الظل الذي حركه بيكتارين وخصك . تطلع اليه نوسكوف بخوف ، متجاذبا الذكريات التي لا موجب لها . كان الطرف السفلي لهذا الظل قد اكفهر واسود ، وبرزت منه بقايا واصول السنابل . اما الظل العلوي فقد بدا له اكثر انشراحا ، وبعدا من روعه . فظنا نوسكوف متدلنا ومسترخيا بفعل الشمس . كانت اجفانه الثقيلة تنفتح من حين لآخر . فعيناه اللتان تسودتا على الحراسة وحدهما ، دون القلق باقي الجسم ، ترقبان ما اذا ظهرت بقعة غريبة حواليه . وكان الهدوء مخيما هناك .

لهذا نوسكوف فراى احلاما مشوشة قصيرة متقطعة وغير مترابطة في وحدة متكاملة . راى الكابتن ليبيديف آمر السرية الاستطلاعية يبحث بتفصيل لممارسة الاستطلاعات ويطوره . هو نوسكوف ، لسبب ما ، من انه اذا فر الى الالمان فسوف يبادلونه بجنرال ولا يعدمونه رميا بالرصاص . كلا . ذلك شيء كبير عليه . سوف يعذبونه حتى الموت ثلاثة ايام بلياليها ، سيعالجونه شر معالجة . وراى في منطقة محايدة هناك ، في اراضي سولينسك ، طاحونة اتاماتوفكا ، وهو يعمل مديرا لها ، وتتهال نيران شديدة عليه من كلا الجانبين ، والحرب مستمرة الآن بسببه هو فقط ، وسيكون النصر حليفا لمن يصرعه . ثم راى نفسه في مستشفى نوفوسيبيرسك ، حيث استدعاه الجراح ، وهو طبيب عسكري مشهور برتبة عقيد ، الى ردهته ليتجرع قدحا من الكحول ، وطلب منه ان يحل محل مقدم كبير توفي توا . وراى نفسه من جديد في الجبهة ضمن المفرزة القائمة على خدمة الهوتزر ولقد ضيع اداة التصويب فاحالوه الى المحكمة العسكرية . وراى ميدانا ضيقا وطويلا جدا لنهر اخضر الضفاف الكاشفة ، وهو يسير في هذا الميدان لاهثا من الحر ، والاعشاب تشتد حرارة وتتحول الى نار زرقاء .

واستيقظ ، ولكنه ظل جالسا بلا حراك امدا طويلا وهو منسحق ورازح تحت ثقل هذه الاحلام الشريرة السالبة . لم يكن فيها شيء من الحقيقة . فلم يكن احد يظن به سوءا على الاطلاق . الا ان لحظته الاخيرة طغت على حياته كلها ، فحتى الاحلام تغيرت . حتى تلك الاحلام التي تظهر في داخله صارت غير . فكيف بها سواها ؟

الطاحونة التي رآها في المنام جعلته يفكر في الذهاب اليها .

السـاقة بهيئة . ولكن النهار . بالنسبة لموسكوف . بدا لتوه . ولا احد في الطاحونة الآن في القلب الظن . فالموسم ليس موسم الطحن . استثار من جديد العصافير التي كرهها فجاة وجعلها تفر بعيدا عن قشور القمح . وهبط عند طرف الحقل ثم انعطف نحو الجدول عندما انتهى الحقل . لـم يكد الغربان يمس الثلوج في نهاية الثوب الباردة . فالشمس هنا . حتى في الاماكن المكشوفة . اضعف مما في الهضاب المنبسطة . وفي الفسحات امتدت ظلال الاشجار متلاحمة واضحة العالم كما لو كانت مطبوعة مضغوطة . خطا موسكوف بجزمته الفلاحية هنا بمزيد من الثقة فتنشط من جديد وشعر بالاضطراب المترسب من السنين السابقة . ففي زمن ما كان يحب التردد على الطاحونة . ومن لا يحب التردد عليها ؟ فان طحن القمح فصل ختامي مرح يبعث الفرح والانشراح . وبعد جمع الغلال يتوارد الناس الى الطاحونة بطابور كامل ويقضون الليل حواليها بارتياح . ولكنهم لا ينامون : الشيوخ يدخنون ويتحدثون . والشبان المزاب يمرحون ويتشاجرون التسلية . والفتيات يتصايحن من وراء الشجيرات . ويشتعل الوقـد وتغلى اباريق الشاى الواحـد تلـو الآخر . لما الارحية فتدور طوال الوقت بصخب مدمدم شبعان . ويصب الدقيق الساخن الناصع في الاكياس .

اشاعت هذه الذكريات الدفء في فؤاد موسكوف فابتسم راضيا ولاحت اشراقة على محياه . ولكن لامد قصير . فعندما اقترب من الطاحونة توترت اعصابه واشراب بدنه حذرا . وتوقف مستجمعا ومركزا انتباهه . وتحركت شفتاه بتفكير خافت . لم يكن هناك . على ما يبدو . اثر لانسان . فالباب العلوى مغلق وكذلك البـاب السفلى . والثلج يغطى السلم الذى يصعدونه عادة حاملين القمح . انتظر موسكوف قليلا . طغمـا نفسه بعدم الاستعجال . ثم ترك شجيرات الصفصاف القريبة وخطا نحو الباب . الثقل معلق عليه . كالسابق . من اجل التمويه لا اكثر . فحالما سحبه موسكـوف انفتح . وحسنا فعل . والا فان اندرى لن يتراجع . فلربما خلع رزة الباب او اطار النافذة . ولن يتراجع .

الطاحونة . من الداخل . باردة مقفرة . فقد تركت جزمة موسكوف آثارا بيضاء على ارضيتها . في بادئ الامر دخل اندرى فجرة مدير

الطاحونة ووجد على رف هناك قدحا معدنيا كبيرا مطليا بالبياض وراسين من القوم وخصف علبة من الملح ومنشارا حديديا معلقا على الحائط . وضع ذلك كله في كيس جنفاص عثر عليه مرميا تحت المصطبة . وتوجه لتفقد الطاحونة . صعد مرتين الى الطابق العلوي وفتش كل الزوايا والاركان . لكنه لم يجد شيئا نافعا . ما عدا كيسا آخر وكتبا ممزقة الاغلفة . اخذها معه ايضا . فقد يحتاج اليها .

خرج من الطاحونة الى الهواء الطلق وعلق القفل على الباب وتطلع حواليه . فاجتاحته بغتة رغبة جنونية جامحة في حرق الطاحونة . لم يكن ذلك امرا عسيرا . فها هو لحاء البتولا مرمي على الارض ، والثقاب في الجيب ، والمبنى قديم جاف ، وستشتعل النار فيه بسرعة . عاد الى رشده وادرك بان حرق الطاحونة غير جائز وانه لن يتجرأ على ذلك في آخر المطاف . بيد ان غواية الشيطان شديدة ورغبة اندرى جامحة في ترك ذكرى ساخنة عنه ، حتى انه لم يعد يملك امله على ضبط النفس ولا يثق بارادته فقذ السير واستجل مبتعدا عن الطاحونة وعن الغواية والخطيئة . وعندما بلغ البركة توقف للحظة . لوقلقه لمع الجليد الزجاجي الاخضر الصافي الذي كان الماء يترجرج تحته على نحو يسحر الابصار . وتصور لحوسكوف كيف ستتطاير الى هذا الجليد وتوسخه الجذوات المستعرة التي ينبعث منها الدخان بفحيح ، واتحسست في مخيلته من جديد رغبة شديدة لرؤية هذا المشهد . ولكنه انصرف الى الهشاب المنبسطة ، الى الحقول . قضى النهار كله وهو يجوب تلك الهضاب ، تارة يخرج الى الاماكن المكشوفة وتارة يختبيء في الغابة . وفي بعض الاحيان يفقد صبره وتشتد به الرغبة ، الى حد الحقد ، لكي يرى الناس ولكي يراه الناس ايضا . يروه فيذللوا لجهلهم بهويته . وبعد ذلك لجتاحه ، دونما سبب ، نوبات من الرعب . فيلتف لامد طويل جامدا دون ان يتجرأ على تحريك ساكن . خرير الجدول ينبعث خفيفا ، والبخار يتصاعد من التربة التي سخنتها الشمس والروائح المتحررة للزجة تدوخ الراس . وبسببها او بسبب آخر انتابته موجة من النعاس المحموم . فقد ضيع جزءا كبيرا من النهار ، لساعتين او ثلاث بعد الظهر ، دون ان يتذكر ماذا فعل به . وعندما حاول فيما بعد ان يتذكر اين كان وماذا فعل لم يوفق في ذلك ، ولم يرجع

هذا الهطول الا خرير الماء وصدى صياح الديكة القادم من القرية ليمزق نياط قلبه . تبللت جزمته اللبادية عن آخرها . واخذت الماء فيها تتقلقل وتزلسانه بعض الشيء . لكنه واصل السير على غير هدى دون ان ينتبه الى الطريق ودون ان يختار الاماكن الاكثر صلابة وجفافا .

في الساء لم يقدر الوقت بدقة فهبط على القرية في اواخر الغسق حيث كاد الظلام يعم . ولكن الاشياء والمباني لا تزال بارزة المعالم . بحث عن حمامه بالنظرات حتى عثر عليه فلم ير الدخان يتصاعد منه . الفحم بدده . فطوال النهار لم يخامره شك بانه سيرى الدخان . حتى انه راح يحسب واثقا من ان ناستيونا الآن تحمل الماء . ولقد سخنت السطلة . . . احقا ان ذلك هو الاخلاق بعينه ؟ ولاول مرة في حياة التشرد ، على ما يبدو ، ابتهل لوسكوف الى الله : «يا الهي لا تتركني . يا الهي ، اجعل الحمام يتسخن ، فانت على كل شيء قدير ، والوقت ليس متاخرا بعد . حقق ذلك فقط ثم افعل بي ما تشاء ، فانا موافق على كل ما تفعله» . اتاببته قشعريرة عصبية على موجات طويلة متتالية . ثم تركته بصورة غير ملحوظة بعد ان زعزعت اركانه وكانها توحي له شيئا . ثم اخترق بدنه ضعف مفاجيء . جلس لوسكوف على اول لرمة يصادفها وظل ينتظر حلول الليل .

نبحت الكلاب ثم صمتت . وتهادت اصداء حية منبعثة من البشر ، ومن حين لآخر كان يسمع اصواتا . ولكن ذلك كله يبلغ مسامعه على موجات باهتة لا يعرف احد مصدرها . وكما كان حاله في الصباح الباكر ، تجمدت مشاعره من جديد ، ولم يعد يفكر الا في شيء واحد هو الاهم : ماذا حدث لناستيونا ؟ بيد ان انوار النوافذ استنارت لوسكوف . فقد تصور الساور على المائدة ، والسطلة المشتعلة وظلال النار على الجدار والوسائد المصفوفة بعناية على السرير ، والحصير تحت الاقدام العارية . وتنسم عطر الاعل الذي تالم له الفؤاد بفرحة يائسة . تالم الفؤاد والكتف متلهما . والتاح لوسكوف ببصره عن الانوار واغلق عينيه . وغدا في الظلام الدامس اشبه بجذع شجرة .

بعد ان عدات القرية نهض بعزم في الدقيقة المقررة مسبقا .

ورسم شارة الصليب بحركات قصيرة من رأسه دون ان يستخدم يده لهذا الغرض ، وخطا هابطا الى نهر انغارا . سار على الجليد حتى بلغ المكان المقابل للحمام ، فتسلق الضفة العالية وتوقف عند السياج متأملا . لم يكن ذلك بسبب التعب ، بل بسبب اهمية اللحظة التالية . اجتاز السياج . وعندما اقترب من الباب احس بالدفء ينبعث من الداخل .

دخل الحمام واغلق الباب خلفه وخلع دون استعجال جزمته الثقيلة البطيئة التي مل منها طوال النهار . وبعد ذلك فقط تاهب للضحكة انبعثت بحشرجة حائدة منتصرة . ضبط نفسه بصعوبة كيلا يفتح ويصرخ ويغني ويقلب كل شيء حواليه ليعبر بكل طلاقة وحرية عن فرحته العارمة .

لم يفكر بناستيونا هنا ، بل ولم يتذكرها كما ينبغي . فقد اكتفى بان وجد الحمام ساخنا .

١٤

واخيرا بدأت المتاعب . بدأت فجأة بالرغم من حذر ناستيونا واستعدادها لها .

ففي نيسان ، حالما ذابت الثلوج ، شرع ميخيتش وناستيونا باعداد الحطب . كانا ينجران الجذوع ليس بعيدا عن القرية ، لكي يتمكنا ، حينما تتوافق اوقات الفراغ لديهما ، من اللحاق الى هناك لساعة او ساعتين ليستخدما المنشار على قدر الاستطاع ثم يعودا . وفي الحقب الاحيان يتوجه ميخيتش لوحده عندما تستدعي الحاجة العمل بالفاس . وبعد ذلك تلحق ناستيونا ، في ظلمات مماثلة ، لكي تصف الاحطاب التي يقطعها ميخيتش . الا ان العمل حتى الظهر يسير بشكل سيء . فان ميخيتش ، خلافا لعادته ، يشعر بالتعب سريعا ، ويكاد ياخذ قسطا من الراحة بعد كل حطبة يقطعها . ولم يكن بالامكان الاستغناء عن حطب الجذوع في الماضي ايضا ، اما الآن فالآمال كلها معلقة عليه لاجل الشتاء القادم .

لم ياخذ ميخيتش البندقية معه . فهو ليس بحاجة اليها هنا على بعد كيلومتر واحد من القرية . بيد ان العمل في الغابة استغرق ،

على ما يبدو ، هواية الصيد لديه . فاعد الفراطيش وخلف بندقيته . وذلت مرة ، قبيل الغسق الى الغابـــة ، الملق باب المنبر بمفتاح صرف وقتا طويلا فيه ، وسأل من ناستيونا بغتة :

– الم ترى ، يا بنتي ، بندقية اندرى ؟ بحثت عنها في كل مكان فلم اجدها .

تغشبت ناستيونا وبيدها المنشار عند البوابة حيث كانت تنتظر حماما ليذهبا الى الغابة . كانت تلقى هذا السؤال دوما وقد استعدت للاجابة عليه ومع ذلك بالغتها ميخيتش به . الا ان الوقت غير مناسب اطلاقا للبحث في هذا الموضوع . كرر ميخيتش سؤاله بدون الحاح ظاهر :

– الم تريها في مكان ما ؟

– رايتها سابقا – اجابت ناستيونا بابتسامة مرتبكة خرقاء . واقتربت منه كيلا تتكلم بصوت عال :– لقد بحثنا ، يا ابتي – في حالات خاصة كانت تناديه ، مثلما يناديه اندرى : يا ابتي .

– بحثتما ؟ متى ؟ لمن ؟

– من زمان . كنت اخاف ان اخبرك ، اخاف ان تزعل . بحثنا عندما وافقت المفوض الى كاردا . . . كنت آنذاك زعلانا على بسبب السندات . وبالفعل ، فمن اين لنا مثل هذا المبلغ الكبير ؟ قلت لساني بسبب لجاجتي . فمن اين لنا هذا المبلغ ؟ اما هو فقد لعبته البندقية والح على ان ابيعها عليه ، فبحثنا . . . الفتى باصراره .

– ماذا تقولين ؟ اعجبت من ؟ من الفتى الفتاك ؟ انني لا افهم شيئا .

– رجل في كاردا . انا لا اعرفه . اتذكر انه كان في معلف عسكري . تعرفه كانيا خليستوفا كنة الفاناسي خليستوف ، فقد لعدت معه وكانه من معارفها . ولم يكن من المناسب ان استفسر منها عنه . لقد اتلفنا وكفى .

– ماذا ؟ هل اخذت البندقية معك ؟

– اخذتها . كنت اخشى العودة لوحدي في الظلام . . .

– وبحثتما ؟

– بحثنا .

ظل ميخيتش واقفا على مدخل المنبر ، حيث صعقه النبأ . فالكنس

وجهه وتجمد بشكل غير جميل بسبب توتره : فمه مفتوح ورأسه منحرف نحو ناستيونا ، وعيناه ترمشان دون ان تنظرا شيئا . وسألها دون ان يصدق ما سمع :

– هل تمزحين معي يا ناستيونا ؟ ام انك تقولين الحقيقة ؟

– الحقيقة . كان يجب ان اقولها في حينه . . . ولكنني كنت اؤجلها كل مرة بسبب الخوف .

– وماذا تعتقدين : اذا جاء اندري فهل سيشكرنا على هذه الصدقة ؟ ام ماذا ؟

– عندما يأتي سنشتري غيرها ولا بد . فقد اردت ان احل مشكلة . ولم افعل ذلك من اجل مصلحتي .

– سنشتري . . . – كرر ميغيتش وهز رأسه مرارا . ولعله كان متفقا ليس مع ناستيونا ، بل مع فكرة غير سارة تبادرت الى ذهنه آنذاك . لزم الصمت كي يصل بهذه الفكرة الى القرار النهائي . وتذكر فسأل من ناستيونا وقد ادار وجهه جانبا وقرب اذنه منها كي يسمعها بشكل افضل : – آ . . . وبكم بعتها ؟

حلت الطرق واصعب لحظة في هذه الحادثة .

– تحمل – قالت ناستيونا ودخلت المنزل فاحضرت من الرف الساعة التي قدمها لها اندري في حينه وهي ملفوفة بقطعة من القماش . وعندما عادت كان ميغيتش قد هبط من مدخل المنبر وجلس على درجته . فقدمت له ناستيونا الساعة : – خذ .

مال ميغيتش منحنيا بوجهه عن الساعة ونهض .

– ما هذا . . . ما هذا ؟ – سأل خائفا وانكمش وجهه من جديد وعاد يركز انتباهه .

– ساعة . هذه ساعة – اوضحت له ناستيونا على عجل – فانا لم استلم نقودا لقاء البندقية ، بل استلمت هذه الساعة . انها مبادلة . بيع الساعة اسهل . قال ذلك الشخص انها ساعة تختلف عن غيرها . فهي ساعة اجنبية ثمينة . انظر ، فيها ثلاثة عقارب . – ادارت ناستيونا على عجل زر التشغيل الذي لمسته ، على ما يبدو ، اكثر من مرة ، ودست الساعة في يد ميغيتش : – لاحظ . العقرب الطويل الرفيع يركض بسرعة ، انظر كيف يركض بسرعة . لم ار مثل هذه الساعة مطلقا . كيف تمكنوا من صنع هذه التحفة

الجميلة ؟ . . انها ساعة دقيقة دوما لا تقدم ولا تؤخر – اخذ ميخيتش الساعة مرتعبا كما لو انه امسك بثعبان بدوية . واسند احدى راحتيه بالاخرى واعاد الساعة الى ناستيونا فى الحال – فى الظلام تشع ضوءا . هذه النقاط للمع بضوء ابيض . وكل شىء مرئى فيها – اضافت ناستيونا باعجاب بالغ امس ثم لزمت الصمت . فقال ضوءا بعد ان استعاد هدوءه :

– كيف يمكن مبادلة بندقية بساعة ؟ بلعبة ؟

– بيع الساعة اسهل . . . لكل شخص هنا بندقية . اما الساعة . . . وخصوصا اذا كانت مثل هذه . . . سينتزعونها مع اليد حالما نعرضها للبيع .

– ينبغى ان ننتزع منك عنوة ماذا عن ما فعلت ، لكن تذكرى قليلا ، قبل ان تفعلى دون تفكير . على من ستبيعينها ؟ ومن هو بحاجة اليها ؟ ها هى الشمس للدور . – ثم تذكر ما عرضته ناستيونا من مزايا الساعة فقطب وعبس وقال : «تشع فى الظلام» . ما فائدة هذا الضوء ؟ هل ابحث فيه عن القمل ؟

– سيشترونها اينوكينتى ايفانوفيتش – قالت ناستيونا دون ان تتراجع – انا واثقة من انه سيعجب بها ، فهو يحب هذه الاشياء . سيشترونها حالما نعرضها عليه . فالسلوفى الذى رافقته طلبها منى بالفى روبل – قالت للمزيد من الاقناع – وقد الح فى الطلب . . .

– بكم ؟ بكم ؟

– بالفى روبل .

– لماذا لم تبيعيها اذا كنت قد وجدت مثل هذا الاحمق ؟

– محتمل ان تمنها اكثر .

– ابحثى عن الاكثر . وسنرى كيف ستجدينه . بالفى روبل . . . كان السلوفى يضحك عليك ، اما انت فقد صدقته . كفاية . فلنذهب . – قال فى الاخير – ضيعنا الوقت بسببك ساعتك . المرحتيني ، ولا داعى للمزيد . خذيها ، اخليها عن انظارى لوجه المسيح .

وذهبا . بيد ان ناستيونا ادركت ان لهذا الحديث بقية وان ميخيتش لن يتحمل وسيعود اليه مرة اخرى . فسيظلان معا امدا طويلا ، وليس من السهل اطلاقا التحدث عن شىء آخر بعد كل ما

اثاره ذلك في نفسها . شعرت ناستيونا بالتهيب والخوف مع ان اقطع ما يمكن ان يحدث اليوم قد حدث فعلا ولن يتكرر كما تامل . يلزمها الآن ان تتمسك بافوالها ولا تحيد عنها وان تتظاهر بالبلاهة كالسابق . وتوابها في ذلك ان توقعا مرعبا كالكابوس قد انحسر وتبدد . فقد توفرت المبررات لواحد من الاشياء المطلوبة . ولا اهمية لما اذا كانت تلك المبررات مقبولة ام لا . واذا استمر الحال على هذا المنوال من السرية والخفاء سيكون الامر اسهل . الى ان تحين بالطبع تلك اللحظة الحرجة التي تستدعي فيها الحاجة تبريرا آخر ليس لما ضاع ، بل لما وجد ، للجنين . الا انه لا يزال في الوقت متسع ، مع انه لم يبق مجال للشك في ذلك .

عندما وصلا المكان المطلوب انهمكا فورا بمعالجة الصنوبرة التي وقع الاختيار عليها مسبقا . ضرب ميخيتش جذع الصنوبرة بالفاس عدة ضربات من الجهة الاكثر الحصانا . واخذا يعالجانها بالمنشار من الجهة المقابلة . لم يكن الجذع سميكا . فقد اختارا شجرة سهلة ، ولكن المنشار لم يعمل بيسر فاستنزف قواهما . وسرعان ما ضاقت انفاس ميخيتش وراح يسعل . انتظرت ناستيونا حتى يهدأ ، فجلست على الارض ولاحظت بين اعشاب العام المنصرم عشبة خضراء ياعة ، لمحت بين تلك الاعشاب واختفت ، الا ان ناستيونا انحنت على تلك البقعة وبحثت عنها حتى وجدتها . ووجدت عشيبات خضراء اخرى على مقربة منها . اقتلعت احداها وراحت تقاعبها بيدها وتتامل مقتربة . كما خيل اليها ، من فكرة بعيدة عامة يمكن ان تحيل لها املا ، الا ان هذه الفكرة العنيدة لم تنزل عند رغبة ناستيونا ، بل تملصت منها . كف ميخيتش عن السعال واقترب من ناستيونا فعرضت عليه العشبة قائلة :

— انظر ، ظهر عشب جديد . ولقد رايته لاول مرة هذا العام .

لم يجبها بشيء ، وسحب المنشار الى جهته . لمست ناستيونا لحاء فاته . فقد يفسر كلامها بانها تتملق لحميها في محاولة للتقليل من ذنبها بالحديث عن هذه الاعشاب .

كان النهار صاحيا ولكن دون افراط ، وكان هادئا ناعسا رغم ان الشمس مشرقة في السماء . بدت الشمس ضعيفة باهتة وكانها في الشمس الاخير ، وظل نورها الضعيف معلقا في الهواء فلا يكاد

يصل الارض . وفي مكان ما انبعث صفير سنجاب . والهادئ من الهضبة البعيدة نباح كلب . وسمع صرير شجرة قديمة . بيد ان هذه الاصوات لم تعكر صفو السكون . بل خلقت من تلقاء . حتى بدا وكان النهار لاذ باذيال الصمت والهدوء خصيصا من اجل ان تبزغ الاعشاب من الظلمة وتنتفخ براعم الانجار دون خوف او وجل .

واخيرا طفقت الصنوبرة تحت المنشار وارتعشت قمتها وتجمدت بلالة جهردا مستبتة للصمود ولكن دون جدوى . فقد مالت وهوت مقطعة ما تبقى في اسفل جذعها من نياط . فلز ميخيتش وناستيونا مبتعدين . تهشم اسفل الجذع على الكرمة . التف الجذع في الهواء وهوى تتطاير في الاعالى غصن اخضل من الشجرة واهتزت الشجيرات المجاورة ودوى الصدى وراء النهر . التقط ميخيتش الفاس من الارض وانهمك في قطع الاغصان . بينما راحت ناستيونا ، كالعادة ، تجمعها في كومة واحدة .

بعد اعداد الصنوبرة للنشر جلسا يستريحان . فسألها ميخيتش :

— الا تعرفين ، يا ناستيونا ، اين اندرى ؟

ذلك ما لم تكن تتوقعه . فهي تتوقع كل شيء ما عدا هذا السؤال . كان ذلك مبعثا للرعب حقا . فهتفت مندهشة ولفع الرعب دهشتها بشكل موفق :

— اندرى ؟ من اين لي ان اعرف ؟ ولماذا تسألني ؟

— يعني انك لا تعرفين ، آ ؟

— لا اعرف شيئا على الاطلاق . كل ما اعرفه تعرفه انت . فمن اين لي ان اعرف اكثر ؟ نحن نعيش في منزل واحد على ما اعتقد .

القى عليها نظرة متفحصة مزلمة . تطلع اليها وكانه يستجوبها غير واثق من كلماتها . بل يريد ان يعرف من مظهرها ومن تصرفها ما تخفيه من معلومات .

— ظننت بانك ربما تعرفين شيئا ولا تريدين ان تقوليه . اليس كذلك ؟ خبريني ، يا ناستيونا ، خبريني انا وحدي ، ولا تخفي على .

— بماذا اخبرك ؟ — استعادت قولها فراحت تجيب بنبرة اكبر —

ما الذى استطيع ان اخبرك به يا ترى ؟ ولو كان عندى ما اقوله فلم لا اقوله ؟ اننى اعرف قدر ما تعرف انت .

– سألت مجرد سؤال لا اكثر . . . وسألت لانك فى الفترة الاخيرة لم تعودى على حالك .

– لماذا ؟ – سألت ناستيونا بدهشة حذرة وبحب استطلاع .

– لست على حالك . وربما خيل الى ذلك . . . لكننى لا اتصور مطلقا بانك يمكن ان تبادل البندقية بساعة دون استشارة احد . فانا لم الاحظ عليك مثل هذا فى السابق . وبالاضافة الى البندقية يبدو ان شيئا حدث لك يا بنتى . فانت كانما تخافين طوال الوقت . . . وتستعجلين طوال الوقت . . . وربما تنوين تركنا ؟

– الى اين اتركك ؟ ساعيش هنا الى ان تطردونى بانفسكم – اجابت ناستيونا بصدق . بذلك الصدق المطمئن الذى تعودت عليه – وربما ستنتهى الحرب قريبا ، وسيحدث شىء من كل بد .

– اين هو ؟

– لا ادرى اين هو ، قلت لك لا ادرى .

– انتى الآن اتساءل ولا اسأل منك يا بنتى .

اتهمكا بجر المنشار من جديد . ناستيونا تدفعه الى الامام وتسحبه . ثم تدفعه وتسحبه . وتلقى . خلسة . نظرات على حبيبها كى تتأكد مما اذا كان قد صدقها ام لا . ان مجرد ارتيابه وتصوره بانها تعرف ، لوحدها ، شيئا عن اندرى لا يبشر بخير اطلاقا . فمن الواضح انه سيتطلبها من الآن فصاعدا ، سيتطلبها عنوة حتى اذا صدق بما قالت . فليس التخلص من الارتياب بالامر اليسير ، اذ انه اذا ظهر يبقى قائما بعد ذاته . ثم يسيطر على الانسان فيما بعد ولا يسيطر عليه الانسان . يتعين عليها الآن ان تضاعف الحذر مرات وان تحسب الحساب لكل خطوة تخطوها . كيف لها ان تحسب وان تلتزم بالحذر اذا كان بطنها سيبرز بعد زهاء شهرين . وليس بالامكان التحجج بأية حجج كما فى حالة البندقية . فهذه ساعة تدق بصوت عال وبدون توقف . لم تكن ناستيونا تتصور ما الذى ينتظرها . فان تصورها عاجز عن ذلك . وما سينهال عليها لا يحتمل المقارنة مع اى شىء آخر ، ولا بد من انتظاره باصطباع دون ان تفعل شيئا الى ان ينكشف امام العلا ما

حدث لها . وإلى ان يشيروا اليها بالسبابة ويسألونها : من اين لك هذا ؟ عند ذاك ستزحف وتتملص معتمدة على قواها الخاصة فقط . لان احدا لن يعينها ولن ينجدها . لا احد يعينها سوى قواها الخاصة التي يجب عليها وحدها ان تتلفعهم . كلاكلتهم . فهل ستكلفها تلك القوى ؟ لا تعرف ذلك . ولا تريد ان تفكر فيه قبل الاوان . مؤجلة . مع ذلك . بانها ليست من ضعاف النفوس . وخائفة . في الوقت ذاته . من ان ذلك قد يتطلب . بالاضافة الى القوى والصبر . شيئا آخر لن يكون متوفرا لديها . ربما يتمكن المرء من تحمل العار . ايا كان . ولكن هل يمكن خدع جميع الناس . والعالم كله دفعة واحدة . كيلا يكتشف احد . اطلاقا . حقيقة الامر ؟ وهل يكفي شخص واحد لتطبيق هذه المهمة مهما وفق في حيله وبراعته ؟ اغليست الخطيئة التي يتحملها كبيرة جدا؟ انها اكبر منه . اكبر من باقي حياته الذي يلزمه كي يكفر عن تلك الخطيئة ويحظى بالصلح والغفران .

في لحظة مناسبة ارادت ان تصارح حماها بانها حامل . لكي تتخلص . دفعة واحدة . من ذلك الخوف الشديد . خوفها من الفضيحة المرتقبة . فاذا عظمت المصيبة هانت . ولذا تحمل هو وصبر على ذلك في آخر المطاف . وان بصعوبة وتردد . فسيهل الامر عليها كثيرا . وستتحمل هي الباقي بشكل ما . الا ان ناستيونا شعرت بالاسى لميخيتش . فقد تصورت سلفا كيف سيتجمد مرتعبا ويطاطئ راسه تحت ثقل الافكار المتجهمة مترددا في السؤال عما ينبغي السؤال عنه في مثل هذه الاحوال . كلا . يكفيه ما عاناه اليوم من قصة البندقية . ويكفيها هي الحوار الذي جرى بينهما . ناستيونا تخشى من ان اعترافها سيجعل حماها يصر على ارتيابه ويلتمه بصحة ما قد يخيل اليه الان مجرد تخيل . وهي تخشى من ان ميخيتش يعرفها افضل مما يعرفها الآخرون فلا يصدق باكاذيبها الخرقاء . وعند ذاك ستتوافق شكوك كثيرة جدا فتشير الى انثى وتدل عليه . وهذا ما لا تمتلك حقا فيه . فقد منح عليها اي تلميح وان تهاون في التزام منتهى الحيطة .

نشرا الصنوبرة وهما بالاسراف . فلم يبق لديهما وقت . مال النهار الى الافول حتى للارب خانته . ويزغ الهلال على الجانب

المقابل للشمس في رقعة واحدة من السماء الواسعة . الهلال الرفيع العاد كالسنجل يلمع باصرار غاضب في ضوء الشمس الباهت . وناستيونا تشعر بالخوف كلما ترى الشمس والقمر معا . ولا تفهم لماذا لا يستطيعان ان يلتقيا كما هو المفروض . وشعرت بالخوف الآن ايضا . لكنها لم تضيق جفونها . تطلعت بعينين مفتحتين الى الشمس . وخيل اليها ان اشعة الهلال الباردة تصل اليها وتغمز بدنها .

قبل ان يغادروا الغابة جلس ميخيتش على مقطع من جذع ، فتاهبت ناستيونا استعدادا لاحتمال عودته من جديد الى الحديث عن انفرى . لم تجرؤ على الذهاب لوحدها . فلم تكن والدة قد جعلته يظن بانها تتحاشاه . اشعل فليونه ودخن دقيقتين ثم نهض . وتذكرت ناستيونا انه لا يحب التدخين ماشيا . عادا الى القرية صامتين تشدهما البطن رغبة مبهمة في اكمال الحديث المبتور .

اثناء تدبير شؤون المنزل داهمت ناستيونا . عدة مرات خلال المساء . فكرة محيرة مخيفة هي ان ناستيونا نفسها انسان حاول تضليل ميخيتش فلم يفلح الا في اثارة حذره وشكوكه . وهي انسان يبعث التفكير فيه وتصور ما سيحدث له الرعب والهلع ويرتكب حماقة تلو حماقة وكانه يتعمد في البحث عن هلاكه . وسينقطع حبل مستقبله في الشهور القليلة القادمة بعد ان تمزق حاضره لمئات متناثرة متناقرة . انتابها رعب ثقيل اناخ على فؤادها ليجرب قوة احتماله وكانه لا يريد ان يقتله لمدة طويلة . ولكنه رعب مفتاح مطواع يمكن التخلص منه وابعاده عند الاقتضاء . فهو يتعمد وكانه يقول ان وقته المشروع لم يحن بعد . ثم ينتاب الفؤاد مرة اخرى ويبتعد عنه من جديد مخلفا قلقا مبهما مؤلما . وها هو القلق لا يريد ان يتضاءل . وها هي ناستيونا عاجزة عن السيطرة عليه . لاحظت ان حياتها اليوم حققت انعطافا كبيرا نحو ذلك الذي لا مناص ولا مفر من وقوعه . فالسر الذي يجب ان تمتلكه وحدها وحتى اليوم ، على ما يبدو ، امام اعين اخرى . وليس بالامكان ، والحال هذه ، ان يحافظ المرء على عدوله . لامست

لاستيونا نفسها على ذلك . فربما لم تبتدع الاكاذيب اللازمة . ولم تتكلم بالشكل المطلوب . ولم تتمكن . كما ينبغي . من اخفاء ما يستدعي عناية كبيرة وحرصا فائقا . ولم توفق في اقناع ميخيتش بانها لا تزال هي هي . لنفس تلك الفراشة الصريحة الطيبة . . .

ظلت ناستيونا على اهبة من الجهد وهي تنتظر عودة حبيبها من العمل لكي ترى كيف ستكون معاملته لها وماذا سيقول لها . ينبغي لها ان تبقى جنبه . فحتى في اسوأ الاحوال . اذا كان الحال سيسوء حقا . يقدر الامر اوضح ولعون عليها من العذابات والعذاب الفاضحة المشوشة . كانت تامل بان ميخيتش . اذا دار في باله شيء . لن يصبر وسيذكر ذلك الشيء . وحتى اذا لم يذكره صراحة فستدل عليه تصرفاته بصورة غير مباشرة . فهو انسان صريح غير مخادع . وهو يحب الوضوح ووضع النقاط على الحروف .

غير ان ميخيتش . كما تعلم ناستيونا . يعود من الاسطبل متاخرا . بعد هبوط الظلام . ولذا توجهت ناستيونا . بعد قضاء الشؤون المنزلية . الى نادكا كي تشغل نفسها بشيء ولا تعذبها جزافا .

في منزل نادكا كانوا يتناولون العشاء . او على الاصح تاهبوا لتناوله . امام كل منهم على المائدة كمية من البطاطس التي وزعت حسب الاعمار : امام ليدكا . البنت الصغرى . اربع حبات . وامام بيتكا خمس حبات . وامام وودكا والام ست حبات لكل منهما . وقطعة خبز للفرد الواحد . دعوا ناستيونا لتناول الطعام فجلست قرب ليدكا واكتفت بان صبت لنفسها قدحا من الشاي . فظل ليدكا يثير الشفقة . فقد التهمت خبزها بلمح البصر وانهمكت في تناول البطاطس وهي تسلط نظرات سريعة جائعة على خبز اخويها . نهرتها نادكا كيلا تقص بالبطاطس . واحست لاستيونا . وهي تراقب ليدكا . بالتعب من الفكرة المرهقة المعتادة : متى سينتهي ذلك ؟ متى يتم تصحيح الحياة الطبيعية التي تتوقف على الانسان نفسه وليس على قسوة جهنمية خارجة عن ارادته ؟ متى ياكل الاطفال على الاقل حتى الشبع ؟ فما هو ذنب الاطفال ؟

التهمت ليدكا البطاطس بنفس تلك السرعة المسعورة . ونفت

عنها صرخة مستغربة عندما لم تجد شيئا آخر لعابها . ظلت يداها معلقتين في الهواء وراحت عيناها الجاحظتان تبحثان هنا وهناك .

لم يكن أحد يريد الالتفات الى حيرتها . فالام وزعت الطعام بالفعل كي يعمل كل على حصته فقط .

– اشربي شايك واذهبي الى الفراش – حثتها امها فشرعت البنت باحتساء الشاي طائعة .

لم تتحمل ناستيونا فنهضت وتوجهت الى ركن المطبخ حيث لاحظت رغيف يوم لحد مغطى بمنشفة . جذبت بانتظاع طرف صغير من الرغيف ، مع انها تعلم بان نادكا يمكن ان تثور لذلك ، وقدمته الى ليدكا كي تتمكن هذه من ترويض الجوع وتخفف من انفعالاته على الاقل . لزمت نادكا الصمت . ولكنها قالت بزعل وتحد ساخر قليلا بعد ، عندما احتضنت ناستيونا الطفلة وحنت على بدنها الصغير النحيل المرتعش :

– الا تريدين تبنيها ؟

– لماذا آخذ منك ؟ ربما سالد انا قريبا . فانت لا تحبينني .

اجابت بهذه الصورة واسفت . فما الذي جعلها تجيب على هذا النحو ؟ وفيما بعد ، عندما تلاحظ نادكا شيئا ستذكر هذه الكلمات ، وستتذكر هذه الكلمات باللذات على مرفاة الطفلة قبل الآخرين . وربما لاحظت الآن ، من الصوت ومن الثقة والتحدي اللذين اجابت بهما ، ان هذا الجواب ليس مجرد رد بسيط ، فهو ينطوي على مغزى .

– لماذا لم تلعبي في السابق اذن ؟ – سالت نادكا بلهجة مسؤولة تماما .

– لم اكن راغبة .

– انظروا : لم تكن راغبة . انتظرت الى ان تمر الحرب ، اليس كذلك ؟ ما اوحاكن جميعا ! لماذا لم تهتممن في اذني بان الاستعدادات للحرب جارية . فلو كنت اعلم بذلك لما جهلت بهم كل مرة ولاجلتهم فترة من الزمن .

ضحكت ناستيونا متخيلة نادكا وهي تنتظر خمس سنوات قبل اندلاع الحرب واربع سنوات حتى انتهائها دون ان تسمع لاحد

بالتقرب منها . لا زوجها ليتيا ولا غيره . وقالت ناستيونا ذلك لنادكا فلهلت هذه ايضا واضافت موافقة :

– كيف استطيع ذلك ؟ من اين لي الصبر الكافي ؟ لو كان الامر بيدي لحبلت بواحد كل عام . وتبقى ثلاثة شهور لطفل آخر . فانا خصبة احمل من اول لقاء . كل شيء عندي جاهز دوما . وليس مثل بطنهن – لم تحمل فوخزت ناستيونا – ولو لم اكن حفرة لتحت دار حضانة لوحدي : الد فارضع . ثم الد فارضع . ولن يلحق بي اي حريم . هل سمعت بالحريم ؟ حدثني عنه ليتيا من احد الكتب . ما قيمة النساء اذا كان رجل واحد بحاجة الى الكثيرات منهن ؟ فهو يتبختر امامهن مثل الديك ويختار هذه اذا اراد ويترك تلك مكتئبة حزينة . ولو تبختر امامي راعي النساء الراسمالي هذا لمست عجرفته بقدمي ولراى مني شر ما يمكن ان يراه . حقا . اية نساء تلك اللواتي يحتاج الرجل الى قطيع منهن كي ينجبن له بعض الاطفال ؟ فانا وحدي استطيع اكثر منهن . – كانت نادكا تسخر من نفسها متباهية . فهي قد ادت واجبها النسوي . تلك حقيقة لا جدال فيها . فيما مضى ربما كان تباهي نادكا يجرح شعور ناستيونا . الا انها هذه المرة شعرت بالارتياح لسماعه .

داعبت ناستيونا الطفلة حتى نامت . وارتاحت ناستيونا لوجود ليدكا نافية في حضنها . فقد خيل اليها ان الجنين الذي بداخلها يستجيب لذلك ويشعر بالغيرة فيستعجل في هذه اللحظات اكثر مما في اي وقت آخر .

عادت الى المنزل فرات مشهدا لم تتوقع رؤيته ابدا . كان ميخيتش يدرب سيميونوفنا على السير بمكازين . اعد المكازين من زمان . ولكن سيميونوفنا رفضت استخدامهما رفضا باتا . بيد ان ميخيتش تمكن اليوم . بمعجزة على ما يبدو . من اقناعها . كانت سيميونوفنا تتعلم . فبعد ان لمرزت المكازين تحت ابطيها راحت تلقي بهما الى الامام دفعة واحدة . .كارس معقودة الذراعين . لم تتحاش السقوط . فتهبط بثقلها على قدميها المربطتين الخارجين . وتتشبث بكل ما يقع بين يديها وتتاوه وتندب حظها العاثر . وكان ميخيتش يرشدها قائلا :

– حركيهما على التوالي . الواحد بعد الآخر . فلماذا لا تفهمين ؟

لا داعي للقفز . لقد انتهى زمان القفز . كفاية . البحث بدون رجلين ولكنهم يسيرون . اما انت فرجلاك لا تزالان حيتين . ويمكن الاستعانة بهما قليلا . تعلمي الخطو في البداية . وبعد ذلك يمكن ان تستعجل .

– يا الهي – وقولت سيسيونوفنا بانين – لماذا تعذبني في اخر ايامي ؟ لعلني انت على يا مريم العذراء . وقول لهذا العجوز الاحمق بانني سأذهب الى القبر بدون عكازيه . لا تضعهما حتى في التابوت على الاقل – التفتت الى ميخيتش مهاجمة – فلا تجلب على العار هناك . عجيب : استطاع ان يرفعني من دكة الفرن وقال : تعالى . الى اين ؟ الى اين ؟

– اجلسي لتتراحي طالما تعبت – اجلسها على التخت – هل تؤلمك قدماك ؟

– كيف لا ؟ تؤلمانى بالطبع . يا الهي . . . نار حامية تخرج منهما . ومع ذلك يسألني : تؤلمانك ؟

وضعت نلسيونا الساور قرب الفرن الصيفي ووجهت كوع مدفئته نحو مدخنة الفرن . وعمت باشعال الصباح . لكن ميخيتش اوقفها قائلا بان الكيروسين يكاد ينفد وينبغي الاقتصاد فيه . لتعمل المدفأة المتصلة بالفرن . وزعلت نلسيونا . فقد تصورت بانها لو لم تبدأ باشعال الصباح لاشعله حموها بنفسه بعد لحظة . ولكنه اعترض عليها عبثا . لم يسخنوا المدفأة منذ زهاء شهر . منذ ان استطال النهار . ولكنه تذكرها وذهب لاحضار الاغصان الجافة . وربما تذكر ايضا النقاش الصامت المتشدد الذي جرى بينهما .

وشوش الساور وطقطق الحطب في المدفأة . انبعث منها ظلال اللهيب الطويلة الساخرة وانطبعت على الجدران والنوافذ . وتململا المنزل واتعش . جلست سيسيونوفنا بوجه متجهم ساهم وانحنت لتفك رجليها بحركات ذاوية من يديها . فناداها ميخيتش قائلا :

– ماذا يا عجوز . هل تواصل ؟

– اتريد ان تلقني على ؟ – سألته بصوت متعب تخنقه العبرات .

– من يدري ؟!

– هيا . اطلق على ولا تزال بحالى .

همت بالنهوض بتصميم حالد ملهور . فى البداية تزحزحت من على التخت ونهضت للميلا على رجليها المحنيتين كما كانتا وصار جالسة . ثم راحت تعدل قامتها بالتدريج ضاغطة على ركبتيها بيديها . دس ميخيتش المكازين تحت ابطيها من جديد . واستدارت ناستيونا الى الجهة الثانية استعدادا لتلقف حماتها فيما لو سقطت . الا ان سيميونوفنا سرعان ما تمكنت هذه المرة . ويا للدهشة . من ان تتخذ طريقة الخطو فى هذا السير الجديد عليها : فقد استندت الى احد المكازين وتقلت المكاز الثانى بخطوتة الى الامام ثم استندت اليه . ولاحت فى صوتها ، كما فى صوت طفل اتقن هذه الحرفة لاول مرة ، نبرة السعادة اللجوجة المتباهية :

– ابتعدا . اتركانى . شاهدنى بنفسى .

سارت فى الغرفة من ركن الى آخر وصرفت وقتا طويلا فى الاستدارة ثم عادت الى موقع التخت وجلست متاوهة بارتياح . ضحك ميخيتش بصوت مكتوم وهو يرافبها وكتفاه ترتعشان وشاربه يتلألأن . وقالت سيميونوفنا مواظبة بصوت متعب ودون ان تلتفت اليه :

– لا باس . فقدماى صالحتان للمشى . واذا دربتهما على المشى يمكن ان اقف عليهما .

– هكذا اذن . – قال ميخيتش مرحا – والا فان رجل السليمة لا تكفى وحدها لشخصين ، ولن نسير عليها بعيدا . اما الآن فلدينا ثلاث ارجل . اثنتان يمكن علاجهما . والثالثة سليمة .

– آه ، لو رآنى اندرى اتمكن لضحك على . . . حقا ، انها عصية مضحكة .

– لا يجوز لنا ، يا عجوز ، ان نبقى على دكة الفرن اطلاقا – قال ميخيتش بلهجة خصوصية واثقة ، دافئة ومتشددة ، فيها قصد وقصد كما خيل لناستيونا – يجب ان نتحرك ولو بمكازين .

احست ناستيونا بان هذه الكلمات تنطوى على مغزى خفى مكتوم له علاقة بحديث اليوم . فهذا الحديث لم يتبدد جزافا بالنسبة لحميها . فقد فهم شيئا وصمم على امر . وهو امر حمله فورا على

فرغام سيجبرونا على استخدام المكانين . افلا يعدها للاستغناء عن ناستيرنا قريبا ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

– وعندما يأتي الصيف سنتخلى وجلاك وربما سنتركين المكانين . – قال منجما العجوز . فاجابته :

– جيدا ، يا ليت .

– هل تتذكرين كيف كنت تصممين الهندسة قبل الآخرين ؟

– اتذكر . . . كيف لا اتذكر ؟ . . . ولكن ما الداعي لذكر ذلك يا فيودور ؟ لماذا تثير احزاني ؟

لم تنسى ناستيرنا . فالعجوزان لم يسميا بعضهما البعض بالاسم الاول من زمان . وقد نسيت ان اسم جدها فيودور . فهذا الاسم لم يعد الا صدى عابرا لشبابها الغوار البعيد . التفتت ناستيرنا الى العجوزين فوجدتهما صامتين منشغلين بالذكريات .

وفجاة اكتنفها غيظ علوي غامض لا تعرف مصدره . وشعرت بانها وحيدة تعيسة لعينة ، وغريبة ضائعة ، وهالكة عبثا . فاختنقت بعبراتها وكادت تنتحب بمرارة من اعماق الفؤاد ، ولكنها تمالكت نفسها . فالبكاء ممنوع . اذ انه قد يفصح عن شيء له علاقة باندري . وانتهزت الفرصة الذاتية عندما توجه ميخيتش الى ركن المطبخ فلحقت به على عجل وسألته بهمس متسارع :

– الست زعلانا علي يا ابتي بسبب البندقية ؟ الست زعلانا ، آ ؟

– بسبب البندقية ؟ – كان لا يزال غارقا في عالم الذكريات فلم يفهم كلامها في الحال – كلا ، يا بنتي ، لست زعلانا . لما تسأل البندقية ؟ . .

وكان هذا الجواب المبتور قد خاض القلق في فؤادها التالف الحائر .

١٥

جاء فوسكوف الى الحمام آخر مرة في اواسط نيسان سائرا على جليد هش غير مأمون . اخذ الكيس الكبير من تحت الحصطبة وتقله الى الكوخ . وجد فيه بطاطس وبضعة رؤوس من البصل وراسين

من الفجل وطبا يحتوي . كالمرة السابقة . على دليل الحصن وسمه زهاء عشر ليطسات . ورغيف خبز ملفوفا بقطعة قماش . كما وجد في قطعة قماش اخرى . قليلة مما يخصص للف اللحم بمثابة جوارب . جزمة جلدية عتيقة بداخلها قطعة من الجلد وخيط مشمع وابرة لسكافية لترقيع الجزمة . وبالاضافة الى ذلك وجد في الكيس قميصا قاتم اللون وقطعا صغيرا لجز الصوف وبقية من قلم كوبيا وقليلا من الملح ومن اوراق التبغ وكسرة من صابونة سوداء وقنينة صغيرة من العرق المنزلي اثارت دهشة اندري . كان يتعين على اندري فوسكوف ان يعيش بهذا المتاع لمدة لا يعلمه الا الله . ولكن لا اقل من شهر ، حتى تصل ناستيونا على قارب بمياه الفيضان . عندما افرغ الكيس خيل اليه ان محتوياته كثيرة . ولكنه بعد ثلاثة ايام تعين عليه ان يحسب الحساب لكل حبة من البطاطس وكل حفنة من الدقيق . كان يخلط التبغ بالطحلب الجاف مناصفة . ومع ذلك ارغم نفسه على تدخين هذا الخليط المقرف لا اكثر من ثلاث مرات في اليوم ، بل ومرتين فيما بعد ، صباحا ومساءا .

وقّ جليد انقرا وازوقّ كالعليل بعد ان كان صلبا متينا في الشتاء . ولاحت ثغرات ذات جليدها عند الضفاف . وليس عند الضفاف وحدها . واسودّ الدرب عبر النهر وتنا بعد ان ذاب جانباه . وراحت الغربان تجوبه وهي تنعق متنمرة . وفي هواء الربيع الصافي بدت اشجار الشربين الحمراء في الجزيرة كالحة متوهجة وكانما اللفتها عمدا نزوة شريرة . مع ان من الواضح ان الاشجار هناك . في مهب الريح المتواصلة . تلاقي صعوبة في النهوض باستقامة وبلا عيوب . وفي كل مكان وكل غابة . حتى في اجمات البتولا النيرة . تبدو الطلبة بين ذوبان الثلج وظهور الخضرة اكثر الازمان كآبة وأسى . حيث تتوتر المشاعر البشرية الى حد اللوعة والجوع ولا تريد السكوت على الخواء والسواد والعفونة التي تكتنف مطلع ربيع الشمال ولا اثر لها في غربته .

خلع فوسكوف اخيرا الجزمة الشتوية البغيضة وارتدى الجزمة الجلدية الخفيفة المريحة للقدمين وصار يمشي كثيرا . فالسير والتحرك لا على التعيين هما افضل حالة ترتاح لها نفسه . والافكار تنبعث الناء المسير . ويمكن اشغال الفكر بما يصادفه في

الطريق . كان ياخذ البندقية معه ولكنه لا يطلق النار منها ، بل ولم يكن هناك ما يستدعي استخدامها . فالوحوش في نيسان – ايار تلتزم الحذر اكثر مما في اي وقت آخر . ولا توجد هنا اماكن لتزاوج الطيهوج والارنب . والطيور عموما قليلة في هذه البقاع الخالية من الحقول .

كلما اقترب الصيف واشتد الدفء شعر موسكوف برغبة متزايدة للبحث عن الثلج ، عن بقايا الشتاء التي ظلت قابعة في الزوايا النائية المظلمة . وكان يعثر على بقايا الثلج المتوارية الكفرة الرطبة فيقف امامها ليودعها بفكر متحجر كليل وهو على ثقة وراسخة بانه لن يرى ثلج الشتاء القادم . كان يعد نفسه ليسير في الحلقة الاخيرة التي يعرف بانها ستنغلق قريبا : فقد عاش خريفه الاخير وشتاءه الاخير ، وهو يعيش الربيع الاخير ، وامامه آخر صيف في العمر . عندما يتطلع موسكوف الى الثلج الغائب يشعر بصلة قربى لحافظة سره : فقد عاشا هنا في وقت واحد ، والثلج او الجليد هو الشيء الاخير الذي قدر له ان يودعه ، لما ما تبقى فسيبقى من بعده . حدد موسكوف لنفسه المنعطف الاخير الذي تحل بعده مهلة قصيرة لوجوده . وهذا المنعطف هو اليوم الذي يتحرك فيه جليد نهر انغارا فينتقل انذرى الى الكوخ العلوي . اعد هذا الكوخ ونقل اليه بعض الحاجيات التي يمكنه الاستغناء عنها الآن وفرش التخت بالحصان التنوب كي تجف حتى ذلك الحين فلا تفصح لمن يراها عن وقت اقتلاعها . ومنع موسكوف نفسه من التفكير بالانتقال حتى ذلك اليوم ، فانشغل بالذات ، في عيد النهر واتمامه وانتعاش كل ما حواليه يدخل ماواه الاخير ويطلق العنان لنفسه لورا كي تغرق في خضم الدهشة المرعبة حيث سيرى مياه الفيضان من فوق . وسيحقق بذلك هدفه النهائي من وجوده هنا ، وهو الهدف الذي رسمه عندما فر من الجبهة . انشغل بما له هذا الهدف بعيدا جدا ، ولكن ما هو يبلغه بسرعة كبيرة ! ولم يكن قد ابتدع لنفسه هدفا آخر . كان يتصور ان الصيف بعيد عنه على مدى عمر كامل ، وها هو العمر يقصر ويقصر ، وها هو الصيف على الابواب . فماذا بعد ؟ سيخرج قنينة العرق التي وضعتها له ناستيونا في الكيس وسيتجرعها متطلعا الى النهر

الخطاف الفولاذ . دليل تحقق امنيته . سيتجرع المرق وينسحل للكر بنيا مينا . وسيخلط في بوتقة الانصهار . الالم بالمار . بالامل والاستمرار . باليأس والرعب . وسيصب هذا الخليط الحرق على روحه . وسيختمر لديه شعور بسيط واحد . وهذا كالنافذة المنيرة : انا موجود . ولهم كل ما سيحدث غدا . اليوم انا موجود . كان يعرف تماما انه سيفعل ذلك . فكان يخشى هذا اليوم ويفرح له مسبقا وينتظر بلهفة باردة حلوله من كل يد .

كان نومه متقطعا . وصارت الليالي المنيرة بضوء القمر ثقيلة . فيستيقظ في توجس ثقيل بلا سبب ويغادر الكوخ . في هذه الاوقات يشتد الم صدره الجريح اكثر من المعتاد . وكلما كان ضوء القمر اشد سطوعا كلما ازداد قلقه الخانق . كان . في تصوراته عن الآخرة . يرى البحر الدائم بدون يزوغ ولا افول . يراه جامدا في السماء الواطئة المسطحة كسقف الدار . وينعالى منه الدخان لسبب ما .

كان يتوجه عادة الى شاطىء النهر ويجلس في ظلال الليل ويتطلع طويلا الى الجليد ويحسده على اصراره اللامجدي ويصاب بعدوى هذا الاصرار . وحتى في الليل . حيث يشتد الصقيع . كان الجليد يستنفد قواه . فالماء ينخره من تحت ويحركه . وكان وكامه يتساقط ويتحطم بشكل اصابع متناثرة . ويلمع البحر تتشقق الكتل فينبعث منها صفير عابر كالزفرة . وتترجرج وتتاوه القشرة السميكة الرقيقة على فجوات الجليد . فجوسكوف يترجى كالوحش ويتجاوب مع كل نأمة وكل نفس . تعلم اخضاع جميع احاسيسه لاحساس واحد والتغلغل الى اعماق ليست في متناول الانسان . فيخيل اليه انه يسمع ضوء القمر يطرد على الجليد فيكرر نغما خفيفا رنانا مستديما بشكل حلقات بطيئة . ويركز انتباهه فيرى مجرى النهر الجبار يخترقه من الاعلى لمع جليدي اخضر مكتوم . او يرى اشارة ما على الماء فيتابع سيرها وتحركها فيلمح النقطة التي تصل اليها في اللحظة التالية . كان في ساعات الليل تلك يحيش بالحدس وحده ولا يفكر بشيء . ويقوده حدسه هذا عند انبلاج الفجر الى الكوخ ويلقي به في يم الكرى .

تعود استكمال نومه نهارا . حيث يرقد في مكان ما من الغابة تحت لفحة الشمس ويتطلع الى السماء بلمع دقائق . وسرعان ما

ينصب من خوالها النوراني اللانهائي ليخط في النوم . وليما بعد يستيقظ جالما مرتجفا فيتلفت الى ما حواليه متذمرا : الى اين الآن ؟ هذا السؤال يواجهه طوال الوقت . وفي الغالب الاحيان يعجز دوستوفسكي عن الاجابة عليه فيسير على غير هدى . لمجرد السير لا اكثر .

كان يمشي ويتشمم ويتفحص ما حواليه ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال . ويشرع احيانا بملاحقة شخص وهمي . ويتصور ، من اجل تسلية متحيرة لا معنى لها اطلاقا ولا تبلغ حتى مستوى تسلية الصبيان ، بانه يلاحق ذلك الشخص حتى يكاد يمسك به ، او . على العكس ، يهرب منه فيخطو بحذر ويتحاشى الاماكن المكشوفة ويختبئ في اجمة التنوب . وبعد ان يمل من التسلية يضحك على نفسه ، فيطلقه بصوت عال حاقد وبصراحة منذرة متوعدة . وفي هذه اللحظات تتبلد ذاكرته فيرفض التصديق بانه قاتل في الجبهة وعاش بين الناس ، ويعتقد انه كان دوما وحيدا مثلما هو الآن يتسكع دونما عمل ودونما واجب ، وان هذا المصير بالذات قد اعد له منذ البداية .

انه جائع دوما ، فيتصور كل ما حواليه جائعا نهما مثله . حتى الهواء يؤذيه ، ذلك الهواء الخاص الواخز ، فهو كثير جدا على الانسان الوحيد . فدوستوفسكي يشرق ويختنق به ، شاعرا بان التنفس الملحاح المفرط يستنزف آخر قواه .

في اليوم الاخير من نيسان استعد لجولة في اعالي النهر حيث يمكنه الرمي بالبندقية . استعد لتلك الجولة كما ينبغي : فبالاضافة الى البندقية اخذ الفاس ، وكذلك الكيس احتياطا ، وكلاهما ناقصان في البيت . النهار وحده لا يكفي لمثل هذه الجولة في تقديراته . فقد رغب في التحويم حول اماكن السكن والتطلع الى البشر . والقرية اليه تبعد بها لا يقل عن ثلاثين كيلومترا . لم يكن يعرف على وجه التحديد هل سيذهب اليها ام لا ، ولكن الرغبة في الذهاب موجودة ، وقد حل اجل مطلق يدفعه الى تذكير نفسه بوجود البشر والى اللامهم بوجوده هو ان امكن . ربما لم يكن راغبا في اللامهم ، ربما اراد مجرد التطلع اليهم عن كثب وسماع اصواتهم البشرية وفهم ما يتحدثون عنه وما يعايشونه ، وملء الفراغ الفجوج المتشدد في

وخيلته ، ثم العودة الى ماواه . لم يجرؤ على الذهاب الى قرية ريبنايا حيث يحتمل ان يراه احد ويتعرف عليه . والافضل ما يصلح لهذا الغرض قرية لا تعرفه ولا يعرفها . فالحظ يغلب الكفر كما يقال .

خرج مع انبلاج الفجر . وقبيل الظهر بلغ الشاطىء المقابل للجزيرة الصخرية التي اصطاد فيها السمك شتاءا . برزت الجزيرة عارية خرقاء. الآن وسط الجليد المزرق الذي نثرته انعمة الشمس من فوق والمياه من تحت . بيد ان غوسكوف رغب في الذهاب اليها دون ابطاء ، رغب في ذلك من اجل المغارة التي بات فيها اثنا. الصيد وحالفه الحظ بقضائها . فلو لم يبق فيها آنذاك لما كان مضمونا ما اذا كان سيحالفه الحظ ام لا . استهوته تلك المغارة بتسلط باطني خاص ، تسلط محظور ومحبب اليه ، استهوته كذلك لاجل سر يمكن ان ينكشف او يخبأ هناك . لا يزال غوسكوف يعتقد بان المغارة لم تعترض طريقه صدفة . فالقدر هو الذي جعله يعثر عليها . وفي الاونة الاخيرة صارت تستهويه على الدوام الاماكن الخالية المنزوية التي يصادفها في الغابات حتى اصغرها واقلها منفعة . فيتوقف فجاة امام جحور الثعلبان وينبشها بحثا وكانما يفكر في امكانية الاستفادة منها ، ويهبط في الحفر الصغيرة ويجلس هناك ليتاكد مما اذا كان بالامكان الاختباء فيها . ويقف طويلا قرب الحفر السيئة الكبيرة التي لا يزال الجليد يسبح في مائها ويحدق بالانحدار الشديد لجوانبها ويحاول ذهنيا قياس اعماقها ، ويتطلع الى ما تحت جذور الاشجار الضخمة الساقطة المقلوبة ويحلم بالعثور تحتها على وجار دببة فارغ ، ويحب السير في المنخفضات ، واثناء مشيه يخطى عادلة يلتقط فجاة ويختبىء وراء شجرة ويتطلع الى ما حواليه ويمس بدنه وسط اجمة متشابكة منزوية وكانه يختبر نفسه جزما جزما ، لطمة هنا ولطمة هناك ، على امل التلاشي كما في طفولة الاخطاء . ولا بد للمرء الحيرى في الجزيرة الخالية المهجورة من ان يحبه . فليه يتجمع بشكل موفق للغاية كل ما يبحث عنه حبة حبة .

الشاطىء المقابل للجزيرة واسع مكشوف ، وقد جف الماء الذي خلفه عليه ذوبان الثلوج . وبزغت الاعشاب الجديدة عليه

كصبغة خضراء فاتحة شفافة تنبع من الارض . وخيم على النهر دوى متناقل مكبوت ينبعث من تساقط الجليد . وفى القريب العاجل ، بعد ايام قلائل ، سيتحرك الجليد محطما القيود وسيندفع الى الاسفل مع التيار . فكل شىء حواليه يدل على التراب تلك اللحظة الرنانة . وكل شىء حواليه ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر ، حتى يخيل للمرء انه حالما يتحطم جليد نهر انغارا يحل الصيف دون تأخير ، ويستيقظ فورا ، دفعة واحدة ، بالاخضرار والازدهار والحر ، وينطلق مندفعا دون تلفت الى الوراء . وفى الحال يجىء مصير جديد آخر ، مصير مشبع بالانطلاق الحاسم . وفجأة احس لوسكوف ايضا بنفاد الصبر : يجب القيام بشىء ، يجب الاسراع الى جهة ما ، يجب الانشغال بعمل ما . التهم طعامه على عجل واغترف ماء من فجوة مترجرجة وسط الجليد واخذ السير .

فى الطريق اصطاد زاغا واسف على البارود الذى انفقه عليه . لكن لوسكوف يعلم ان التعب سيأخذ منه مأخذه عند المساء ، ويتبغى له ان يواصل السير غدا . فلا بد ، اذن ، من تناول طعام دسم .

لم يحاول الاقتراب من القرية التى رآها عند انحناءة النهر والشمس مشرقة ، بل تجنبها واستدار باتجاه الجبل ، وحمل نفسه على الابتعاد عنها رغم التعب والارهاق . لم يعد يخاف الوحوش من زمان ، ولكنه يحب رائحة فى ترك آثاره للبشر . وفى الصباح التالى عندما توجه نحو المنازل ، قام بادىء ذى بدء بدورة كبيرة على السفح فاستدار حول القرية وهبط عليها من طرفها الشمالى .

ها هو من جديد يسمع صياح الديكة وذلك الدوى الخفيف المبهم والمتقطع المتواصل الذى يخيم على كل نزل بشرى . حتى الديكة هنا ، ويا للعجب ، تصيح على غير ما فى الامانوفكا ، فهى هنا تنرد ولا تجار باهل اصواتها كما فى مسقط راسه . ذلك هو تأثير اختلاف البقاع . ففى الغرب ، فى دروب الجبهة ، حينما تسنى له سماع صياح الديكة كان يلاحظ كل مرة انها هناك اضعف من ديكة انغارا واكثر حرصا وتحفظا وربما اكثر تمايلا ، بيد انه

تاكد الآن من ان الديكة على نهر الدانوب ايضا تصايح باصوات متباينة .

صعد نوسكوف من السفح فراى بين اشجار البتولا حظيرة سياجها العلوى متموج ومنكوب في احد اركانه . ولعل النساء ينين هنا السياج ابان الحرب . فالميمان موزعة كيفما اتفق بارتاد وبدون ارتاد ولقد دقت بسامير او ربطت ربطا الى الاشجار . فمالت وتدلت ولم يكن الوقت . على ما يبدو . يتسع لاصلاحها . وعندما ينتهي موسم البذار سيضطرون الى اصلاحها . مد نوسكوف عنقه وتطلع الى اليسار حيث ينتصب على مسافة كيلومتر منه او اكثر آخر منزل في القرية . وراح يفكر بكيفية الاقتراب من القرية لكي يرى مسا يجرى فيها . كان خائفا . ولكنه يتحرق شوقا الى اختبار نفسه عبر المخاطر . انه يريد اقتراف شيء ما ليرعب نفسه والآخرين . بهذا الدم الفاسد المتجمع في عروقه يتسخن شيئا فشيئا . وتشابكت في صدره رغبات متعارضة غير محددة . انه لا يفهم السبب الذي دعاه للمجيء الى هنا . على مسافة ثلاثين كيلومترا . فهو لم يات لاجل الوقوف امام هذا السياج والعودة من حيث جاء . كلا . يجب العثور على ما جعله يتحمل مشاق هذه الجولة المرهقة .

طلاطق لحصان على مسافة قريبة فارتعش نوسكوف . ورأى وراء شجيرات البطمة في الحظيرة . راى الآن فقط . بقرة ضخمة وقطا، بيضاء سوداء كبيرة على بياض او . على العكس . ببياض بيضاء عل سواد . ولم يلاحظها سابقا لانها وقطاء كاشجار البتولا المتعبة امامه . وعلى مقربة من البقرة عجل حول ابيض مثل لبنه وله من العمر ثلاثة او اربعة شهور . وعلى منبت القرنين في راسه تتوهان قصيران . فرح نوسكوف لعثوره على ما يشغل به نفسه وراح يراقبهما . كانت البقرة تبحث عن شيء ما في الارض مع ان قطعة العشب التي لم يبزغ في الواقع انما يضاهي اخضاء قطر الندى . ولعل العجل ادرك هذه الحقيقة الفضل من امه فحاول ان يغرز بوزه في ضرعها الا انها ماعت ورفسته برفق وابتعدت عنه . ولجرى العجل محاولة اخرى . وعند ذلك استدارت نحوه وابعدته بخطمة خفيفة من جبهتها السوداء المطعمة .

تابعهما نوسكوف بنفس الاهتمام المشحون الخاص الذي ابداه

بالسر الحول في باحة الاسطبل قبل شهر عندما ذهب لرؤية ابيه . فما عاد الاهتمام اكثر حدة وتركزا . ويبدو ان ذلك ليس عبثا ، فقد شعر بانه لن تتهيأ له الفرصة في المستقبل ابدا كي يتعامل مع ماشية اليفة تابعة للانسان . فصار ، بعد ان افترق عنها من زمان ، يميل اليها بشدة تتزايد بقدر ما يتعين عليه ان يبتعد عنها . هذه الخسارة ليست الافدح بالمقارنة مع خسائره الاخرى ، الا انها مؤلمة قاطعة . فهناك شيء ما في نفسه لم يسمح له بالسكوت عليها والرضوخ لها .

بديهي ان البقرة تمكنت بالصدفة من اصطياد رضيعها من الحوش . فما من ربة بيت تسمح للرضيع بالنجول في مثل هذا الوقت . ومهما ماتت البقرة فستعود اليوم الى المنزل بدون لبن . ابتسم لوسكوف راضيا . فقد خيل اليه انه هو الذي دبر هروب العجل . ولو لم يات هو الى هنا لكان من المحتمل تماما ان يظل العجل في البيت . ولكن طالما خرجت من البيت يا عجل فلا تتراجع : المرز بوزك والرضع وحتى اللبن حتى آخر قطرة ، فسيكون لصاحبتك ما تتحدث عنه في المساء .

بيد ان الوقت حان للتوجه بهدوء الى القرية ، حيث ينتظره العمل الذي جاء من اجله ولا يعرف ماهيته بعد . لعل من الحكمة الانتظار حتى يتصرم النهار وبعد ذلك فقط يمكنه ان يذهب الى هناك حيث لم يدعه احد ولا ينتظره احد . الا ان لوسكوف لا يريد الانتظار . لا تزال اللجاجة تدفعه وتدلعه الى الامام . فقد اشتدت وقفت اكثر نحيلا وشراسة . لوسكوف يعرف انه لن يجازف عبثا ولن يرتكب آخر الحماقات . وهو يامل بان الوقت سيتسع له كي يختار مهما حدث . فهو ليس سهل المنال ولن يستسلم دون مقاومة .

سار بحذر على امتداد الشياح وتوقف مرارا وهو يتطلع الى ما حواليه . وسرعان ما تكشف طرف القرية امام انظاره . وحالما رآه سمع اصوات الاكورديون . تذكر لوسكوف منذهنا ان اليوم ليس يوما عاديا ، فهو عيد اول آيار . ما اعجب هؤلاء الناس . انهم يحتفلون بالعيد ويمرحون وكان رحى الحرب لا تدور . علقوا علما احمر واخرجوا الاكورديون من حافظته . وفي المساء سيحتفلون من

منزل آخر منشدين والصبين منطلقي الاسارير . كلا . يبدو ان هؤلاء الناس لن يطاطئوا الرؤوس لاية مصيبة . انهم يمرحون الآن في الاماتوفكا ايضا . لم يتعرض فوسكوف للياس والقنوط . ولم يشعر بالضيق . فما نفع الضيق الآن ؟ لقد انتابته دهشة مرتابة : انهم يحتفلون بالعيد . كما كانوا يحتفلون به قبل الحرب . وكأنها لم تنشب وليست ثائرة . ولا يهمهم اطلاقا انه هو . فوسكوف . يتسكع قريبا منهم . فهو غير موجود بالنسبة لهم .

وفهم فوسكوف الآن كيف تمكن السجل من مغادرة الحوش حرا طليقا . فالناس في عيد اليوم . وهم يمرحون ولا يعباون بالشواغل الصغيرة . التفت فوسكوف الى الوراء فراى البقرة تتقدم ببطء نحو غابة البتولا ولم تعد بعيدة عن المكان الذي تركه لتوه . واصل سيره . ثم التفت من جديد وهو يتطلع باتجاه الى السجل وقد راودته فجاة فكرة قاسية . وقس السجل شيئا غير منظور بقامتيه الخلفيتين وكان احدا لدغه او وخزه . وقفز الى جانب ثم هدا وراح يهز ذيله بتكاسل . والقى فوسكوف نظرة على القرية — كان الدرب منها الى الحظيرة خاليا — فعاد ادراجه بعزم وتصميم .

ارتفعت الشمس عاليا . وتعلق في الهواء الحار الصافي رنين خفيف نشيط تشا بطبل الاطفال وملأ السكون . وحالما اختفت القرية عن الانظار خفت الاكورديون واختلطت جميع الاصوات في مجرى واحد . رحب عريض ولانهائي . حاول فوسكوف ان يوقف نزوته فتوقف لحظة قرب السياج الواطيء الذي صمم على اجتيازه واصاخ السمع من جديد وتطلع الى ما حواليه الا انه قفز عبر السياج على عجل خوفا من التراجع عما عزم عليه . التقط لحسنا في الطريق وهبط على البقرة من الخلف . عندما شعرت البقرة بوجود انسان ادارت راسها صوبه وحملقت فيه بعينين واسعتين بليليتين وبريقتين الى درجة جعلت عيني فوسكوف تدمعان . هش البقرة بالقضيب موجها اياها نحو الجبل عبر ثغرة في السياج . فسارت طائعة . والتصق السجل بامه . بيد ان البقرة توجهت يسارا الى القرية حالما خرجت من الحظيرة . ومن حسن الحظ ان اشجار البتولا حجبتها عن الدرب فتمكن فوسكوف من اعادتها . فاحرنت

وصدر عنها خوار عال مسرور استجاب له العجل بخوار قصير . فاضطرب توسكوف واستعجل اكثر .

وجهها نحو الجدول الذى سار على امتداده حابطا فى الصباح . وهو يعلم بانه لن يصادف اليوم احدا هناك . فى تلك البقعة الخالية . غير ان البقرة لم تكن راغبة فى الذهاب الى تلك الجهة بالذات . فراحت تميل ذات اليمين وذات الشمال كى تتخلص من الانسان وتعود ادراجها . اما العجل الذى احس بالنوايا السيئة فلم يعد يتخلف عن امه . تثاقلت اقدام البقرة . وانتفخ جنباها وسال اللعاب من خطمها . وراح توسكوف يلهث هو الآخر . واكتست البندقية على ظهره فخذلها واخذها بيده . واقفى زهاء نصف ساعة فى الغابة . بينما لا يزال الجدول بعيدا .

كان الانسان والبقرة يتوقفان بعد كل محاولة لخدع بعضهما البعض فيتبادلان نظرات حاقدة . وكانت البقرة تخور متألمة وقد نبعت قطرات من العرق وسالت على جسمها البيضاء .

وبعد ان اخذ الاعياء من توسكوف مأخذه فكر فى الحيل عن نحو آخر . خلع حزامه وترك البقرة وشأنها وراح يتعقب العجل خلسة . من الافضل . طبعا . القيام بذلك بعيدا عن القرية ولكن ليس فى الامر حيلة . ثم ان العجل هو الآخر لا يريد ان يستسلم . فلى آخر لحظة كان يحرن ويتملص . وكان توسكوف يركض وراءه قافزا كى يمتطى راس العجل فى انشوطة الحزام ولكنه يخلق فى ذلك . اختلط الانسان بالحيوان واحتاج فصار مستعدا لان يضغط على الزناد كى ينهى دفعة واحدة هذا القنص الاحمق الذى طال امده دون جدوى . الا ان الخوف من الافتضاح حال دون اطلاق النار .

ومع ذلك حالفه الحظ : فقد تمكن اخيرا من محاصرة العجل فى اجمة كثيفة . حاول العجل ان يتخلص من الشجيرات المتشابكة وعند ذلك استطاع توسكوف ان يلبس الانشوطة على رقبته . جرى العجل وجثا على ركبتيه ثم نهض وتقافز وتراقص فى محاولة للتملص . الا ان الانسان يعرف كيف يتحكم بالحيوانية فى مثل هذه الاحوال . فقد امسك بذيله بيده الاخرى واداره وسحبه من بين الشجيرات . انتحب العجل من الغيظ والرعب . فسحبه الانسان واكفأه الى الجدول قبل ان يتمكن من الانتباه على نفسه . ولبثتها البقرة لتخور

راكضة . وصدر عن العجل خوار حزين ، وانبعثت من حنجرته المخنوقة اصوات مبحوحة مكتومة شبيهة بالبكاء .

توقف فوسكوف قرب الجدول ليلتقط انفاسه . فلم يعد قادرا على التحمل . ربط العجل الى شجرة وحاول طرد البقرة . ولكنها لا تريد ان تنصرف . فهي تهرب قليلا ثم تتوقف ، وحالما يبتعد فوسكوف تهرع من جديد الى العجل فتشمه وتلحسه وتداعبه براسها وكانها تطلب منه بان يطلق رباطه ويهرب ما دام في الوقت متسع . وبتاثير ملاطفة الام السليمة الخالية اخذ العجل يئن مترنحا . لقد خارت قواه وضعف بدنه – خارت ذاكرته وضعف فهمه وحسه ، خار كل شيء فيه .

التقط فوسكوف انفاسه فاخذ مقود العجل وسحبه من جديد . وصمم على عبور الجدول مؤملا بان الجليد سيمنع البقرة من العبور . ولكنه لم يمنعها . فقد تبعتها دون تردد وداست على الجليد وانفرجت قوائمها ، فهوت بصورة خرقاء بقائمتيها الاماميتين المنفرجتين الى الجانبين وبذلت جهودا يائسة لكي تنهض ولكنها لم تتمكن فزحفت على ركبتيها . والاصح انها تزحلقت على الجليد نحو الضفة الاخرى . عندها فوسكوف باخمص اليندفية ليمنعها من العبور ولكنها قفزت قفزة مستميتة الى الامام فبلغت الضفة .

ابتعدوا عن القرية لا اقل من ثلاثة كيلومترات . وتحوطا لاسوا الاحتمالات سحب فوسكوف العجل مسافة اخرى الى سفح الجبل واختار مكانا جافا ومنزويا فربط العجل الى شجرة من جديد . وقفت البقرة وراحت تراقب عن كثب كل حركة يقوم بها الانسان . احتدم غضب حانق مطاجيء في صدره فامتشق الفاس من زناره وهجم بها على البقرة . فولت الادبار بصخب وهي تجرجر قوائمها المتشابكة المتعثرة المتالمة وتحطم الاغصان في رکضها . ولكنها توقفت حالما توقف . لم يكن هناك اي مجال او حيلة للتخلص منها . عاد الانسان لدراجه فراى العجل رابضا . خارت قواه فلم تعد قوائمه قادرة على حمله . ادار العجل راسه مرتعبا نحو الانسان الذي اقترب منه وسدد اليه ، بسرعة وتصويب ، ضربة فورية من مؤخرة الفاس على جبهته المسدودة ، فان الراس وهوى وانفصل من سير الحزام . وفي تلك اللحظة ندت صرخة من البقرة من خلفه . لين فوسكوف وهجم

على البقرة ناويا قتلها هي ايضا ، ولكنه توقف عندما رآها والدة لا تنزعزح من مكانها . فتكليه اليوم جريمة قتل واحـــدة ، والا فسيلص ويذبح .

طوال الفترة التي سلخ فيها العجل الذبيح كانت البقرة والدة في نفس المكان دون ان تحيد ببصرها عن الانسان ، فجعلتـــه بدوره يتابعها بنظراته خائفا . كانت بين حين وآخر تخور بأنين خفيف . وشعر غوسكوف بالغثيان من رائحة اللحم الطازج الذي لم يفقد بعد نبض الحياة . اقتطع من لحم العجل الفخذين واضاف اليهما شريحة اخرى ودسها في الكيس ، اما البالي فغباءه ، كما تفعل الدببة ، تحت الاوراق اليابسة ووضع فوقه الحصانا . وقبل ان ينصرف القى نظرة اخيرة على البقرة . طاطات راسها وتطلعت اليه بنفس النظرة الثابتـــة ، فراى في عينيها تهديدا بالخطر . وهو خطر آخر غير منبعث من البقرة نفسها . انه الخطر الذي يمكن ان يحدث . واسرع غوسكوف منصرفا .

في طريق العودة بات الليل في غابات التايغا مقابل الجزيرة الصخرية . فهذا المكان لا يزال يستهوى غوسكوف بالحاح شديد غير مفهوم . ولكي يصل اليه في الساعة سار متثاقلا بآخر ما تبقى لديه من قوى . في منتصف الليل استيقظ على دوى متقطع قادم من جهة انغارا . كان جليد النهر يتحطم . لم ينتبه غوسكوف لذلك ولم يفرح . فما في الكيس ارهق كل اعصابه وجرده منها على ما يبدو . فهو لا يعرف لحد الآن هل اجهز على العجل من اجل لحمه فقط ، ام لارضاء لشيء استحوذ عليه منذ ذلك الحين بتسلط وصلافة .

وبعد اسبوع ، عندما انتقل غوسكوف الى الكوخ العلوي ، سمع ذات مرة في وضح النهار اطلاق رصاص متقطعا متكررا من جهة اتامانوفكا . وادرك بان الحرب انتهت .

١٦

انتهت الحرب .

وصـــل من كاردا رســـول على صهوة جواد وللفظ حانين

الكلمتين منادياً باعلى صوته . فاجتاح اللمانوفكا الرعد الذي طال انتظاره . وهاجت القرية وماجت .

كان نسطور . كما هي العادة . اول من التقط البندقية . واستجاب له الآخرون فالمطلع رصاص لم تسمع بمثله اللمانوفكا منذ ان وجدت . تعالت الصرخة صارخات مزلزلات عارضات على الملأ الفرحة والاسى والصبر المرهق الذي طلع في الحال . وتراكض الاطفال الى هنا وهناك متصلين للنبأ الذي كان اكبر من قابليتهم على الاستيعاب واكبر من كل ما عانوه حتى الآن . ذلك النبأ الذي لا يعرفون ماذا يفعلون به والى اين يحملونه . ثم ان الكبار تحيروا ايضاً . فالمشاعر الانسانية البسيطة التي تعودوا على الاكتفاء بها ليست كافية لهذه المناسبة . فالناس بعد ان ذرفوا الدموع وتعانقوا واعتزوا للنبأ في اللحظات الاولى لم يتحملوا تلك الفرحة وراحوا يتنقلون من ركن لآخر بذهول وارتباك . فيلتفتون ويلتفتون من جديد ويصيخون السمع لشيء ما . ويتوقعون شيئاً ما . وينتظرون اوامر ما . جاء نسطور فامر بتعليق الاعلام . ومع ان نسطور لم يعد يتمتع باية سلطة بعد ان سلم مقاليد رئاسة التعاونية قبل شهر الى مكسيم فولوخين . الا ان الناس انصاعوا لامره وراحوا يبحثون عن كل قماش احمر اللون . عثر بعضهم عليه ولم يعثر البعض الآخر . بيد ان القرية تزينت . على قدر الاستطاع . بافضل ما لديها . استخرج الناس اجمل الحلل التي حفظوها طوال سنين وارتدوها . وراح الاطفال هنا وهناك يركضون على البوابات وعلى سطوح المنازل اعلاماً اعدت كيفما اتفق . وشدت الغانيا سومونوفا قميص ابنها الاحمر الى وسع طويل بعد ان تيتم منذ الخريف المنصرم ولكنه ظل محتفظاً بطوله . اسرع اليها نسطور على حصانه وصاح بها كي تنزل هذا العلم . الا ان الغانيا ما كانت لتفكر بالانصياع لاوامره . ولزمت نوبة حراسة عند البوابة كيلا ينزل احد العلم .

وحتى النهار الذي بدا كالحاً منذ الصباح ابتهج والفرح . فقد لبدت الغيوم في السماء وتنشطت الشمس ولسعت ساكبة ضوءاً مرحاً فرحاً على كل ما تحتها .

عندما لمع الرصاص في القرية كانت ناستيونا تصل مع

فاسيليسا الحكيمة في حراقة حقل الحمص على الدرب خطبة منبسطة ، حيث تسير احداهما وراء الاخرى في خط واحد . ادركت فاسيليسا الحكيمة قبل الجميع حقيقة الامر فاسرعت لملاقاة امنة الخيل . وحلت ناستيونا حلوها في الحال . وصلتا الى اتاماتوفكا في مضمار الاحصنة حيث كانت القرية تثور وتضطرب . اطلقت ناستيونا سراح الخيل عند البوابة وهرعت الى المنزل منفعلة لاهثة فانظرت فلق العجوزين : نهضت سيميونوفنا من على المصطبة مرتعبة لملاقاتها ، واستدار ميخيتش بشدة من النافذة . فقد كانا منفعلين للنبأ السعيد وكانا ينتظران نبأ آخر . وفي الحال انتبهت ناستيونا على نفسها عند العتبة : فالى اين هي مسرعة ؟ وماذا تريد ان تقول لهما ؟

– سحقا لعلمة الرصاص . . . – اخذت توضح ما لا يحتاج الى توضيح . واضافت بلهجة عنوانية مخطئة وكان احدا قد لاطمها : – . . . وفهمنا .

– يا الهي ! – ابتهلت سيميونوفنا ورسمت شارة الصليب على صدرها لعلم الايقونة – احقا انتهت الحرب ؟ لا بد وان يخبرونا الآن اين ابننا اندري ؟

– لا بد ، يا عجوز ، لا بد . – قال ميخيتش والقى بنظرة حذرة على ناستيونا .

– سوف يشرّحون الجميع ويرسلونهم الى اهلهم . . . الى امهاتهم وزوجاتهم . . .

– لا يمكن ان يسرحوا الجميع على الفور .

– لماذا ؟

– الله يعلم ماذا يمكن ان يحدث . فلا يجوز البقاء بدون قوات مسلحة .

لزمت سيميونوفنا الصمت ثم تذكرت قائلة :

– في الحرب الثانية لم يعلنوا السلام كما اعلنوه الآن . ولم يكن احد يعرف انتهت الحرب ام لا . . . طردوا الالمان ثم تحاربوا فيما بينهم وتقاتلوا بشدة اكبر . ويمكن القول انه ما كان هناك سلام اطلاقا . حاربوا من اجل الكومونات وحاربوا من اجل التعاونيات . ولم نعرف الهدوء ولا يوما واحدا .

انزوت ناستيونا في غرفتها الجانبية واستبدلت ملابسها . كان فؤادها الذي تطاير فرحا وهي في الطل لا يزال غارقا في تلك الفرحة رافضا في الخروج الى الناس . ولكن شيئا ما في داخلها منعها من ذلك . وراح يكرر قائلا ان هذا اليوم ليس يومها وان النصر ليس نصرها وانها لا تمت له باية صلة . ان لاي انسان مهما كان صلة بالنصر . لما هي فلا . لا تدري ناستيونا الى اين تول . فاضطجعت على حافة السرير وللمست بطنها كعادتها . ولكن بذهول وحيرة وبدون اي احساس . فقد لمست بداخل ذلك المكان وهدانا لا اكثر . وتهادت صيحات من الشارع . ومرق احدهم وهو يستحث جواده . وانشد رجل غريب مقطعا من الغنية :

على الحصان الحديدي
نجوب كل الحقول
نحرث ونزرع ونجمع المحصول

هرعت ناستيونا الى النافذة : هل من المعقول ان احدا تمكن ان يصل من الجبهة اليوم ؟ سار على قارعة الطريق رجل نحيف فارع القامة لا تعرفه ناستيونا . سار وسط حشد من الاطفال بلدمين عاترتين وصديري مفتوح وراس مكشوف . وصحت ناستيونا مبغيتش في غرفة الاستقبال يوضع لسيميونوفنا قائلا :

– انه من كاردا . . . ذاك الذي جاء بالنبا . لقد سقوه خمرا بالمناسبة السعيدة . فلم يرفض . . . وهل يمكن الرفض في هذه المناسبة . . .

– ايها . . . انا . . . س ا – جار الرجل فجاة وتوقف ناشرا يديه الى الجانبين كي يحافظ على توازنه – اشتركوا جميعا في النشا . . هرة ! الموت لهتلر ا – واعقب ذلك بشتمة بذيئة جاءت سجعا مع العبارة الاخيرة . وهز راسه هزة شديدة وكانه يتخلص من صيحته . ثم تمايل وواصل الانشاد :

خطانا سديدة
ولن نسمح للاعداء

كان هذا الصباح وتلك الاغنية التي جاءت بالصدفة ، مناسبة لهذا اليوم ، ليوم النصر ، قد وخزا بمزيد من السعادة قلب ناستيونا المتفائل المتألم الذي راح يخفق بشكل متقطع ويتقافز ويبحث عن شيء ما . خرجت ناستيونا الى العرش وتطلعت عبر الشباك فشاهدت حركة في الطرف العلوي للشارع ، ولكنها لم تكن واضحة في صرفة السائرين فلم تحسن النظر وعادت ادراجها الى المنزل . تذكرت انفري مرضا ، ولكنها تذكرته بغضب غير متوقع : فبسببه ، بسببه لا يحق لها ان تتمتع كالآخرين بفرحة النصر . ثم فكرت ناستيونا بان حاله ستتكون اسوأ بكثير عندما يسمع بان الحرب انتهت ، وسيتألم لنفسه ، ثم عادت الى رشدها فرق قلبها في الحال ، ومع ذلك اسفت له بشعور محض غاضب ، واسفت ، لجأة ، برغبة في الذهاب اليه كي تكون معه اليوم . وبدا لها اليوم بالذات ان يكونا معا . وافق شن طبقة ، بعيدا عن سائر الناس ، بعيدا عن العيد الذي يخص الجميع ولا يخصهما معا . «لماذا لا يخصني انا ؟ » — رفضت بغيظ مدافعة عن نفسها لتعيدها الى حظيرة البشر — الم اعمل طوال الحرب ؟ الم اجد واجتهد ؟ الم ابذل جهودي كالآخرين كي يحل هذا اليوم ؟ سانهض واذهب اليهم ، سأذهب اليهم في الحال » — راحت تستحث نفسها دون ان تتزحزح من مكانها وكأنها تنتظر دفعة حازمة ترفعها وتوجهها نحو الناس .

وجاءت تلك الدفعة فعلا . فقد سمعت وقع سنابك ثم صوت شخص يرفف حصانه قرب النافذة . انه نسطور الفوار الذي لا يقر له قرار . مال من على السرج وطرق زجاج النافذة بشدة وصاح بلهجة خشنة :

— ايه ، يا لعوات ويا احياء ! اذهبوا لحضور الاجتماع في المكتبة ! اذهبوا لحضور الاجتماع الاحتفالي العاشر ! يا ميخيتش ، اين انت ؟ هيا يا لاستيونا !

— ماذا ؟ — نهض ميخيتش والتقط من النافذة ببطء — لماذا تهدر وتصيح ؟

– اذهبوا لحضور الاجتماع الاحتفالي الحاشد . بمناسبة عيد النصر . امر عاجل . وخلوا معكم الى مبنى المكتبة كل ما لديكم . فالجميع يشاركون في اعداد الوليمة . خذ عرق الطرسون معك يا ميخيتش ولا تبخل به . اقول خذ العرق معك . مفهوم ؟

– مفهوم ، مفهوم – دمدم ميخيتش – انت لا تهتم بهذا العرق .

بيد ان نسطور لم يسمعه . فقد لكز حصانه وانطلق بهذا البصر .

هزت سيميونوفنا رأسها خائفة وقالت بلهجتها الشينية :

– انه وحش كاسر . كل ابناء آل الخابوف يحبون الضجيج والصياح . ولكن هذا يشبح ويشرخ اكثر الكل .

وقال ميخيتش مخاطبا ناستيونا وانزلقت ابتسامة حزينة متأملة على شاربيه المتهدلين :

– اذهبي يا ناستيونا . – ثم فكر قليلا وكرر بمزيد من الحزم : – اذهبي ، وسأتي انا ايضا فيما بعد . فالبقاء في البيت اليوم حرام . اما العرق فهو موجود . احضريه . انه وراء الخشب على اليمين في السرداب . احضريه ، فليشربوا ويحتفلوا ، واحتفلي انت ايضا . اذهبي .

فتدخلت سيميونوفنا قائلة :

– تريد ان تطعميهم الشراب ، وماذا ستفعلين عندما يأتي اندري ؟

– عندما يأتي اندري سنجد شرابا . من يدري متى سيأتي ؟ اما عيد هذا اليوم فلن يتكرر . انزلي يا ناستيونا الى السرداب واحضري الشراب .

انه عرق منزلي عادي اعد من الحبوب الوافرة قبل الحرب ، ولكنه يسمى منذ القدم بكلمة طرسونه المقتبسة من اللغة البورياتية . ناستيونا تعرف بمكانه . فقي اواخر الشتاء شاهدت ، وهي تجرف البطاطس ، سمادة بارزة من الارض كالتل وتحت تحتها خابية مخبأة ليس عنها ، ليس عن ناستيونا ، وليس عن اي شخص آخر ، بل خبأوها لمجرد ان لا تلحظها الانظار لحين من الزمن ولا تثير شجن النفوس عبثا . وفيما بعد صبت ناستيونا

هربا من الغابة في قنينة صغيرة ودستها في كيس اندرى . فهى يمكن ان تزله عن الرجل بعض الوقت وتعينه في محنته وتحجب عن عينيه ما يعانيه . فما الذى يسليه ؟ والى اين يولى هربا من الكآبة والمصيبة ؟ انه وحيد دوما . وحيد طوال الاسابيع والشهور . اما هى فستذهب الآن للاختلاط بالناس . افلا تستحق ذلك ؟ لا بد وانها تستحقه !

اصرت سيميونوفنا على رايها . فصبوا كمية من العرق من الغابية التى لم تكن مدينة اصلا فى علبة خباوها فى الحال . وصبت ناستيونا الباقى فى صفيحة اللبن كيلا تخدع الناس بمظهر الغابية الكبيرة . حملت الصفيحة وخرجت من البوابة فتوقفت لتشد حيلها وتطلعت بحذر الى جانبى الطريق على التوالى كما تفعل المجانز .

لم يكن الشارع قد شهد مثل هذا الهرج والمرج من زمان . تلع المكتبة وسط القرية على بعد ثلاثة احواش عن منزل غوسكوف . ومن هناك تهادت اصوات منفعلة عالية ، ووصلت رائحة الدخان . واستجابة لاضطراب البشر هاجت الكلاب وماجت نابحة . وتصايحت الديكة مطبطبة باجنحتها ، وقوقأت الدجاجات وزعقت الخنانيص واصطفقت الابواب وصرت خوخات الاسيجة . والى جانب هذا وذاك راح الاطفال يتراكضون اسرابا اسرابا . وفرق ، فوق هذا الصخب والضغط والضجيج صوت علب متميز آخر ، يرن ويتداخل ببهجة وصفاء كصفاء الزجاج . وهو صوت تعرفه ناستيونا جيدا ، ولكنه منسى او ضائع . رفعت راسها باحثة عن مصدره ، فرات على سطح السقيفة القريبة ثلاث سنونوات جانحات فى صف واحد ، منهمكات فى التغريد وفى نثر النغمة رقيقة . عاد السنونو للدن . عاد فى الوقت المناسب : اليوم بالذات ، لا قبله ولا بعده . عاد السنونو اللطيف لفضاء الصيف فى الاراضى التى احبها ولبناء الاعشاش ووضع البيض والتفريخ . وها هى حياة السلام تعود الى ارضها بعد ان اقتلعوها منها كما تقتلع العشبة . عادت مرحلة عذبة مفرحة ، ولكنها ، على ما يبدو ، حياة سلام حقا . شىء لا يصدق : فقد نسيها الناس ، واكتنفتهم المصائب والرعب . السنونوات تغرد وتجد واعدة شاكرة ، وترتل آياتها البلورية

الرقيقة ، وربما لا تعلم بان الحرب وضعت اوزارها . من يدري ؟ لعلها تعلم بهذا النبأ العظيم ، ولعلها عادت مسرعة عسى لكي يسمع الناس نشريدها فيرفعوا رؤوسهم ويدركوا بان نهاية الآلام قد حلت اليوم .

منذ تلك اللحظة رقص فؤاد لاستيونا لمجتاحها ضعف سعيد احمق ، ودهشة حساسة راضية بكل ما تراه ، بتلك السنوات ، والاكثر من ذلك استولت عليها رغبة بان تبين انها ليست اسوا من الآخرين وانها لا تخشى احدا على الاطلاق .

امام المكتبة ينتصب منزل اينوكينتي ايفانوفيتش الكبير عاليا بشرفاته بسطحه المنحدر ، وعيش في نصفه الجورزان اينوكينتي ايفانوفيتش ودومنا ، والنصف الآخر المخصص لابنهما المتبنى فاسكا (فهما لم ينجبا اولادا) لا يزال فارغا منذ ربيعين ، بعد ان جند فاسكا حينما كبر وارسلوه الى الجبهة . ظل هذا النصف فارغا ولكن دون ان يفقد معالم الحياة . فهو مؤثث دافئ ، وعلى رف احدى النوافذ مزهريات ، وعلى جانبي كل منها ستائر . وليس بالامكان ان يعرف المرء على وجه التحديد اي نصف من المنزل اختاره الجورزان الآن . فالناس نادرا ما يزورانهما . ولا يبدي اينوكينتي ايفانوفيتش ترحابا بالضيوف مع انه يعيش في بحبوحة ولديه القدر الكافي من الطعام والشراب والملابس . كان يعيش دوما في بحبوحة ونعمة سابغة ، فقد ولد لمثل هذه العيشة بالذات ، ولا تناسبه اية عيشة اخرى ، كما لا تناسب البقة الصغيرة رجلا كبيرا فارع القامة .

عندما مرت ناستيونا بالمنزل صر مزلاج البوابة فانفتحت وظهر اينوكينتي ايفانوفيتش انيقا متصابيا في سترة عسكرية زرقاء داكنة مشدودة بازرار معدنية لماعة ، تلوح من تحتها على الرقبة للوشي يافة القميص الجانبية ، وفي بنطال جديد بنفس اللون وقد دس اذياله في جزمة جلدية ليست جديدة ولكنها جيدة مطلية بطبقة كثيفة من دهان ذي رائحة مقبولة . فرحت ناستيونا بمجيء اينوكينتي ايفانوفيتش فرحها بقريب لها ، وخطت بضع خطوات لملاقاته باسمة سعيدة بمظهره المتسم بالبسالة ، وقالت بصوت عال :

— طال انتظار النصر ، يا اينوكينتي ايفانوفيتش !

- طال لتحقق - اجاب برزانة وسألها : - الا توجد اخبار من زوجك ؟

- كلا - اجابت بضحكة قصيرة وتطلعت بشجاعة الى عينيه - كلا . لا كلمة ولا حتى نصف كلمة .

ثم فكرت قليلا واضافت :

- الا تعرف انت اين هو ؟ خبرني .

ارتعد اينوكينتي ايفانوفيتش وقال متمتما :

- من اين لي ان اعرف ؟ انك تهذرين يا امرأة .

- اذا كنت تعرف فقل لي ولا تخف علي . - اضافت بنفس الضحكة القصيرة المرتابة - اما انا فساخبرك . ساخبرك من كل بد ، يا اينوكينتي ايفانوفيتش .

انيرت الاضواء في باحة المكتبة ، والطعام يغلي في قزانين . فقد سمح مكسيم فولوخجين ، الرئيس الجديد للتعاونية ، بنحر خروف من خرافها بمناسبة عيد النصر . وجلست نسوة على جذوع الاشجار وانهمكن في تقشير البطاطس . احتشد الناس فلم يبق محط رجل . فقد اجتمعت القرية كلها . في المبنى نصبوا الطاولات في صف واحد وغطوها كل بما جاء به . وتجمع الكثير من القليل الذي احضره كل منهم : كرنب وخيار في آنية عميقة ، وجبن ولبن رائب في قلل وسمك طازج وفجل مفروم ومخبوزات وبيض ونصف كمكة بتمار البطمة - لم يبخلوا بشيء ، احضروا كل ما تبقى لديهم . بعثوا جماعة من صغار الاولاد الى الغابة لاحضار نسغ البتولا كي يشربوه اذا لم تكفهم كمية الشراب الموجودة ، وجلست جماعة اخرى من الاولاد الاكبر سنا على ضفة النهر تصطاد السمك . وكلما اصطادوا بنية او بوربا بل وحتى زميرا صغيرا نقلوه على القور حيا ووضعوه على المائدة ، فيلبط عليها ويلفز تارة الى الصحون ويقع تارة اخرى على الارضية . النوافذ مفتوحة وعلى رف احداها راح الحاكي يصيح باعلى صوته ، ووقفت قربه ليدكا ابنة لادكا وهي تضغط بمفتاح تشغيل الحاكي الى صدرها . وانهمكت لادكا ايضا في تقشير البطاطس . اقتربت منها ناستيونا وجلست امامها القرفصاء واوقفتها عن العمل وقالت بضحكة مختنقة بالعبرات :

– طال انتظار النصر ، يا نادكا . آ ؟

الا ان نادكا اشاحت ببصرها دون ان تجيب .

والتفتت ناستيونا من ليزا فولوخينا وعانقتها .

– ماذا بك يا ناستيونا ؟ – دمدمت ليزا المشغولة قرب الفزانين والتفتت الى ناستيونا بوجه عادي محمر من النار – هل انت مسرورة ؟

– مسرورة .

– وهل تنتظرين اندرى ؟

– بالطبع .

قبلت ناستيونا مكسيم ولفت يديها حول عنقه على الملأ ، فصاح مرتبكا ومسرورا :

– هل من مزيد ؟ من يرغب فليتقدم ما دامت ليزا راضية .

– سأريك كم انا راضية . – قالت ليزا ملوحة بالدفة في وقت معا . – لن اسمح الا لناستيونا ، وحتى لها بالدين ، الى ان يصل اندرى ، ولن يسمح لغيرها .

راحت ناستيونا تحتر نفسها بين الناس وتهمس بصوت متزلف مرتعش ، وهي تبتسم ابتسامة غامضة كمن خمر بذنبه او تلهفه كانسان لمير سوى ، وتقول بصيغة تتراوح بين الاستفهام والتذكير : طال انتظار للنصر ؟!ه – ولم تستطع ان تقول اكثر من ذلك . بيد ان كل شيء في هذا اليوم كان على ما يرام . فقد عانقت الآخرين وعانقوها ، وسالت دموعها وردوا عليها بدموعهم ، وحاولت ان تضحك فاستجابوا لها . لقد نسيت نفسها وغدت عرضة لمرض نفساني نادر ، وخانتها مشاعرها المتعودة على الحياة البسيطة المفهومة والتي ارهقتها ونهشتها دوامة محمومة تحملها على البكاء والاسى تارة وعلى الضحك والفرح والاشراق تارة اخرى وعلى التجمد من الرعب والفظاعة تارة ثالثة . – خانتها مشاعرها التي تحيرت وانسحقت نهائيا اليوم حتى توجهت منصاعة الى هناك بعد ان غدت في الآونة الاخيرة ، عادة ، حذرة متحفظة تعرف كيف تجيب ولا توجه الاسئلة . وفيما بعد شعرت بالاحراج لانها لم تنتبه حتى الى لزوم مساعدة النسوة ، بل تناولت ما اعده الآخرون . كانت تتذكر انه خيل اليها ، لسبب ما ، ان هذا اليوم هو آخر

يوم يمكنها ان تجتمع فيه الى الناس ، ولهذا ستبقى وحيدة ، وحيدة تماما ، في فراغ مطبق لا امل في الخلاص منه .

جلسوا حول المائدة . واحتل مكسيم فولوخين مكان الصدارة عن جدارة واستحقاق كجندي عائد من الجبهة وكرئيس للتعاونية . وجلس الى يساره نسطور بالطبع ، والى يمينه وسول كاردا الذي يطلق عينيه بين الدينة والدينة ويمرر راسه على كتفه ليضعه في مكانه كل مرة .

نهض مكسيم فرنت الميداليات على صدره وبدا كلامه بصوت رفيع تعتر داخله . فخيم السكون على الحاضرين :

– ايها الناس ! لست خطيبا من الخطباء ، حبذا لو استمعنا الآن الى شخص آخر يجيد الكلام . ولكن ما يمكن ان نقوله ؟ ما الذي يمكن ان نقوله اذا كنا قد انتصرنا ؟ لم يبتدع احد بعد الكلمات التي يمكن ان تقال في مثل هذه المناسبة . لقد صمدنا ، بذلنا قصارى جهدنا وصمدنا ثم زحفنا وانتصرنا ظهر الوحش الكاسر ، ظهر هتلر اللعين . كنت انا هناك ، وانا اعرف فظاعة ما حدث . الفؤاد يغلي . . . – واستنشق مكسيم الهواء ملء صدره وزفره مرتعشا – كلكم تعلمون . جميع رفاقي من المحاربين الذين ظلوا على قيد الحياة يتوقون للعودة الى الديار كي يدفعوا عجلة حياتنا الى الامام . لقد تكبدنا خسائر جسيمة . ففي الاماكن التي اجتاحتها الحرب ارتفعت الارض كلها بسبب القبور . اتسعت الاراضي وتقلصت الايادي . والقول الحق انه ما كان يوسعنا ان نصمد هناك لولاكم ، لولا الذين ظلوا هنا . فالرجل يحارب والمراة تطعمه . الرجل يسلط غضبه على الاعداء والمراة ، على بعد آلاف الكيلومترات ، تجعل هي والعائلة هذا القلب يرق ولا يتحول الى صخر . لولاكم لما حققنا اي شيء ، ولما كان هذا اليوم . بلادنا شاسعة هائلة ، ومع ذلك لا يمكن الاستغناء عن قريتنا اتامانوفكا . فنحن حاربنا هناك وانتم ساعدتمونا من هنا . انهضوا يا ناس ولننظر بعيون مفتحة الى يومنا هذا ونحفظ ذكراه الى ابد الآبدين . لم يشهد التاريخ مثل هذه الحرب ، ولم يشهد بالتالي مثل هذا النصر . فلنشرب نخبه الآن .

ونهض الحاضرون وتعالى طرق الاقداح ، وتناولوا جميعا بحسرة

واحدة وجلسوا صامتين . مدت ناستيونا قدميها لتمس به قدح نادكا الجالسة قربها . الا ان نادكا كانت قد اخذت قدميها قبل الجميع . كانت هذه المرة صامتة . ويا للعجب . فلم تدخل في نقاش مع احد بل راحت تتطلع بانتباه الى ما حواليها وكأنها لا تفهم ما حدث ولا تدرك السبب الذي اخل بنظام ايام الطلاب المعتادة . كانت حياتها ، شأنها شأن اية حياة اخرى ، بحاجة الى السلام . ولكنها الآن ، بعد ان حل السلام ، تفكر بقلق مرعب كيف ارتست في هذه اللحظات بوضوح لا رحمة فيه سعادة البعض وتعاسة البعض الآخر .

تجرع رسول كاردا قدحه وانشد من جديد :

خطانا سديدة
ولن نسمح للاعداء
ان يدوسوا اراضينا

والبته احدى النساء بدقة :

— اوي ، انه سكران . فكيف سيذهب الى منزله ؟

وقالت امرأة اخرى :

— الا يكذب علينا . . . بان الحرب انتهت ؟ انه سكران جدا ، ومن يدري ماذا يخيل اليه . . .

— انا اكذب ؟! — سمعها الرسول وحاول النهوض ، حتى نهض بشق الانفس ، ولمعت الدموع في عينيه ، وسأل مسلطا على الجميع نظرة يائسة مستطلعة مستنكرة : — انا اكذب ؟ ماذا تقولون ؟ كيف تقولون ؟! — صاح بجهد اقوى فاختنق وراح يبحث عن صوته فلم يجده في الحال : — من يتجرأ على الكذب ؟! هل تفكرون فيما تقولون ؟ لقد اسرعت اليكم . . . لكي تعلموا . اسرعت اليكم وتركت امل . وهذا جزائي . . . هل يوجد انسان لديه القدر الكافي من الحقد والدناءة كي يكذب في مثل هذه الحال ؟ ماذا تقولون ؟!

حرعوا اليه يهدئونه :

— كلا ، انك تقول الحق . . . كل شيء واضح .

— حقا من الذي يتجرأ على مثل هذه الكذبة ؟

– كان صاحيا عندما جاء بالنبأ . وهنا سقوه بالمناسبة حتى سكر .

– لماذا تتهمون الرجل عبثا ؟ . . لقطع عشرين كيلومترا ، فهل هذا بالامر الهين ؟

– صبوا له ، فليشرب ، وليطمئنا نحن الذين لا نعرف الخجل . حقا اننا لا نعرف الخجل . . .

شرب الرسول وسامحهم ، واخذ يحدثهم كيف سمع نبأ النصر وكيف وافق على السفر الى اتامانوفكا ليخبرهم به .

فسأل مكسيم بصوت عال كي يغطي على الضجيج :

– هل الجميع عندنا يعرفون بالنبأ ؟

– طبعا . كيف لا ؟!

– لعلمة الرصاص وصلت حتى الى آذان السوتي .

– والجد ستيبان ؟ – تذكرت ليزا فجأة وهتفت متحمسة : – انه يصلح عطلا في الطاحونة منذ يوم امس . الجد ستيبان لا يعرف بالنبأ !

– الم يسمع اطلاق الرصاص ؟

– كيف يسمع اذا كان الطرش تماما ؟

– حقا ، الجد لا يزال يحارب .

– يجب لرسال شخص لاحضاره . عيب يا جماعة .

وتسلسل الرسول من جديد راكبا في الضباب الى الطاحونة لكي يؤدي واجبه حتى آخر شخص في القرية ، حتى الجد الطحان . ولكنهم اجلسوه واقنعوه بان يبقى . وقفز نسطور الذي ظل حصانه مسرجا ينتظر في الباحة منذ ان لمتطاه طوال النهار . ولحق به شخصان . وصاحت النسوة عليهم من النافذة :

– لا تلولوا له شيئا هناك . احضروه فقط .

– اربطوه واحضروه .

– لا تربطوه والا سيموت .

جلسوا حول المائدة من جديد ، وصبوا في الاقداح . صبوا هذه المرة جعة مركزة اسرع ابنوكينتي ايفانوفيتش الى منزله لاحضارها. لم يكن قد احضر شيئا كالآخرين . فقد انتظر اللحظة المناسبة واعلن بان لديه جعة لكي يعلم كل شخص ان تلك هي جعة

اينوكينتي ايفانوفيتش . كانت الجمعة ممتازة حقا : مسكرة مدببة ذات طعم عسل . امرت النسوة من امجابهن بها وتسطفن وللسطن ورحن يتذكرن كيف كان يجرى اعدادها قبل الحرب . وكيف كانت موائد الولائم والاعياد تنوء بما عليها . ومن ايـة منازل كانوا يبدأون جولاتهم المرحة . وصاح مكسيم منطلق الاسارير يوجه السحر وبده الجريحة ترتعش :

– سنمرح . يا نسله . سنمرح . فكل هم الى فرج . وستكون الامور على ما يرام . سيعود الرجال قريبا . . .

– من الذى سيعود ؟ – سالت فيرا اورلوفا الارملة الشابة التى ظلت مع طفلها الوحيد . سالت بصوت واطئ . ولكنه واضح سمعه الجميع . فاجاب مكسيم متلعثما :

– أ . . لا بد ان يعود احد . . .

– على عكسى – نهض اينوكينتى ايفانوفيتش وافاد : – يجب ان يعود ستة اشخاص . ومن بينهم . . . – وراحت نظراته تبحث عن ناستيونا بين الحاضرين – اندرى لوسكوف الذى ضاع كل اثر له .

– ومن غيره ؟

– لماذا تسالون ؟ افلا نعرفهم ؟

الا ان اينوكينتى ايفانوفيتش عدد اسماءهم . فتكلمت نادكا فجاة بعد ان انتهى اينوكينتى ايفانوفيتش . تكلمت دفعة واحدة بتشدد وغضب كمن انفلت من عقاله :

– ورجل . لماذا لا تحسبه ؟ ام انك لا تجيد العد اكثر من ستة . ايها المحاسب ؟

– لم احسبه لانك تعلمت لتشارا بالوفاة . – ليس التنويش على اينوكينتى ايفانوفيتش بالامر اليسير . فهو يعرف بم يجيب .

– وما قيمة الاشعار ؟ عليك ان تحسبه . فسياتى . انا اقول : سياتى – احتدت نادكا وهى تخاطب الجميع متحدية – سترون بانفسكم . ولا تاملوا بانه لن يعود . سيعود وسيلوش حسابك . فالافضل ان تحسبه فى الحال . ليس ستة . بل سبعة . فل سبعة .

– اذن لسيالي رجل ايضا – قالت ليرا اورلوفا بصوت مكتوم دون ان تنظر الى احد .

– لا ادري بخصوص رجلك . اما رجل فسيعود .

وتكلمت النسوة بارتباك :

– محتمل . . . حدث مثل هذا في كاردا . فقد عاد زوج عديلة ناستاسيا . . .

– يقال ان احدى الزوجات في براتسكويه استلمت اشعارين يؤكد احدهما ان زوجها قتل بشكل ويؤكد الثاني انه قتل بشكل آخر . ولكنه عاد بعد ذلك حيا . . . فهل يمكن التصديق باشعارات الوفاة ؟!

في تلك اللحظة احضروا الطحان الجد ستيبان . ادخلته نسطور من الباب موجها البندقية اليه وقد ربطوا يديه الى ظهره . اقترح احدهم هذه الطريقة دون تفكير فنفذها نسطور بحماقة . نظر الجد بالمقلبة وسلط على الحاضرين نظرة بلهاء من عينين صغيرتين غائرتين تحت حاجبين كثيفين دون ان يعرب عن دهشته او خوفه . وكأنه يتوقع ان يرى هنا ما رآه .

رفع نسطور رأسه وافاد مخاطبا الصور النصفية المعلقة على الجدار وليس الحاضرين :

– تلبية لامركم احضرنا العنصر الهارب . وجدناه مختبئا في الطاحونة .

– انت لاحق يا نسطور – قالت نادكا التي انتبهت قبل غيرها – كيف لم نهتد مع هذا الاحمق حتى الآن ؟

– يا جد ! – صاحت عشرات الاصوات متماسكة .

هرعوا اليه ، فكوا رباطه ، ورفعوه على الايدي ثم اجلسوه ، وتدافعوا حوله كي يتمكن كل منهم ان يصيح في اذنه :

– يا جد ، انتهت الحرب !

– يا جدي ، يا عزيزي ، اين كنت ؟

– بدأنا نعتقد . نسيناك . فلا تزعل . الجميع مجانين .

– جلسنا ، وافتقدنا احدا ، وسألنا من هو الغائب ؟ الجد غائب . يا الهي !

للت ذات اليمين وذات الشمال براسه الكبير الاشعث ولمع

بصمت وهدوء الى انه يلهمهم ويسامحهم وهز راسه برصانة وحكمة . تطلعت اليه النسوة المختنقات بالعبرات واتحدن جوقة واحدة . فبعد ان اخبرن آخر السان عن انامانوفكا بما حدث . صدقن عن اخيرا بان الحرب انتهت .

١٧

انزل الجميع قواربهم الى الماء وبدأوا يستغسلونهـــا روبدا روبدا . ما عدا ميخيتش الذى بدا وكانه يتصيد فى عدم الاستعجال. فقد انبطح قاربه وحيدا مقلوبا على الضفة دون ان يثير بعد . لقد صبر ناستيونا ، ولكنها لم تجرأ على حث حبيبهـــا . فلا يجوز ان يحزر بان القارب يلزمها لغرض ما . ومع ذلك لم يعد بوسعها ان تبقى مكتوفة الايدى الآن وهى تجهل احوال اندرى . لم يعد بوسعها الا تحرك ساكنا فى حين ان الطريق الى رجلها لم يعد مفتوحا . خيل اليها انه طالما وضعت الحرب اوزارها فان امرا ما سيتقرر الآن فى مصيره ، وفى مصيرها بالطبع ، ولذا ينبغى الالتقاء بالرجل دون تاخير ومعرفة ما ينوى فعله والوجهة التى سيتجـــه اليها . فخلال هذه الاسابيع الطويلة كالاعوام والتى لم يلتقيا فيها كانت ناستيونا مستعدة اكثر من مرة حتى للتحليق اليه بجناحين كى تهدئه وتهدئ نفسها . خيل اليها ان اندرى الآن ، حيث يتلمح الصيف عن كل جماله وحيث البجعات الاعشاب من الارض وسبعت الغابات بالخضرة وتخلص نهر انغارا من الجليد وراح يجتلب الناس بجريانه وزرقته الساحرة ، وحيث تنمو النفس البشريـــة اكثر استجابة وايجابية مما فى اى وقت آخر ، الآن بالذات يمكن ان لا يتحمل اندرى ويقدم على فعلة تؤذيه وتؤدى الى هلاكه . ثم ان احلامها مقلقة مشوشة غير قابلة للتفسير . فتارة ترى فى المنام شخصا يطاردها ، شخصا مجهولا خطيا ، وهى تفرق فى الضحك وتنكمش راكضة باقصى السرعـــة وتلقى بنفسها على السرير كى تختبئ تحت اللحاف . وتارة ترى انها تتكلم مع البقرة مايكا ، والبقرة تجيبها بفطنة وذكاء ، وتارة ثالثـــة ترى نفسها ، وهى

المراة المتزوجة تعلم السباحة في النهر بنتا صغيرة هي ناستيونا نفسها عندما كانت تعيش في الطفولة بضواحي اركوتسك . وما الى ذلك . كانت ناستيونا تستيقظ بسبب هذه الاحلام وتبقى واقفة امدا طويلا بلا حراك وقلبها يخفق بشدة واضطراب . وهي تفكر باندري وحده وتحبه حبا مريرا مفعما بالحنان . كانت تحبه باسف وتاسف له بحب . والدمج هذان الشعوران في فؤادها باحساس واحد لا ينفصم . لقد اسقط في يدها . فهي تلوم اندري . وخصوصا الآن . حيث انتهت الحرب . فيخيل اليها انه كان من الممكن ان يبقى حيا معافى مثل كل الذين ظلوا على قيد الحياة . وهي اذ تلومه احيانا بشدة تبلغ حد التغضب والحقد والفنوط . تتراجع ايضا بياس وفنوط : فهي زوجته . وما دامت زوجته فهي لما ان تتخلى عنه كليا وتصلي على رؤوس الاشهاد بانها بريء منه . او ان تظل معه حتى النهاية ولو الى المقصلة . فليس من قبيل الصدفة ان يتحدثوا عن الرباط المقدس بين الزوج والزوجة . والامر اصعب على اندري بالف مرة . فهو مصرض لنيئة بشعة خبيثة . ثم انه لا يريد اخبار احد ولا الظهور لمام احد كيلا يخلف من بعده ذكرى السوء . انه مذنب . ولا احد ينكر ذلك . ولكن اين يجد الآن تلك القوة التي تعيده الى المكان الذي فاز منه نحو الجهة التي لا يجوز الفاز اليها . انه مستعد لدفع اي ثمن لقاء هذه القوة . ولكن اين هي ؟

كلا . لا بد من رؤية اندري باسرع ما يمكن . ومعرفة ما ينوي القيام به .

انتفخ بطن ناستيونا . وعندما عرته قبيل المنام بدا واضحا تماما انها حبلى . صمتت بطنها برقة وهدوء فاكتفتها السكون . وبعد ان ارتاحت قليلا في هذه المرحلة الاولى . اكتنفها سكون اعمق مطبق فحملت وعرجت بخفة الى جو ما . الى وحدة داخلية واهنة نسيت في صدرها وفراغها كل الموجودات ورات ولمست كل ذرة من كيانها . ورات كذلك الجنين الذي يتحول بالتدريج الى طفل . واخذت مشاعرها تلمسه وترسم لها كل ما فيه — باية هيئة يولد وبای الحاح متواصل كسول يمتص منها نسغ الامومة . وراته . كما اراد اندري . ذكرا . فالامر ذلك بحسب الفرق لديها :

فلو كان انثى لظل هناك امل بميلاد آخرين ، اخوة واخوات لها من جهة الاب والام . اما الذكر فلعله يكون هو الطفل الاخير . الا ان تلك التاملات خطرت على بالها فيما بعد . عندما عادت من الاستبطان الغيبي الرهيف الذي كانت تستمع فيه الى نفسها من كثب ، وفهمت بادراك غامض ، بعد عودتها ، اين هي وماذا يجري لها . كانت تخشى ساعة النضاج حملها . ولكنها ، رغم خوفها ، تتمنى ان تحل تلك الساعة باسرع ما يمكن . فهي لن تغتبط عند ذاك الى بذل جهد لسحب بطنها وانحنائه . ولن تغتبط الى التلفت والتخوف مما اذا كان احد سينتبه الى انها ليست وحيدة وانها تحمل جنينا في احشائها . ثم ان انتظار تلك الساعة ارهق ناستيونا وانهبها . بدنها مكتنز ، ولن يدرك احد انها حبلى شهرا آخر في الغالب الظن . وبعد ذلك ستنزل العاصفة فورا . ويخيل لناستيونا باطراد ان قوة ما تجتذبها الى فوهة ضيقة وستظل تضيق عليها الخناق الى ادنى قدر من التنفس ، ثم ترمي بها الى مكان ما في آخر لحظة مختنقة متحشرجة بين الموت والحياة . ولم تتمكن من القاء نظرة على تلك الحياة الجديدة ، فهي ، في نظرها ، مغلفة بظلام دامس كظلمة القبور .

تعين على ناستيونا ان تبتدع حيلة لتعبر النهر . فذهبت الى مراقب المولدات الشيخ مانفي في قمرته الواقعة على الضفة المرتفعة الجميلة على بعد نصف كيلومتر عن القرية من طرفها العلوي . الشيخ مانفي هو شقيق اينوكينتي ايفانوفيتش ، ولكن العلاقات بين الاخوين فاترة جدا . اينوكينتي ايفانوفيتش يتمتع بمنزلة رفيعة ، فهو شخصية متعلمة بارزة ، يدرك مكنون السياسة . ولد غادر القرية مرارا قبل الحرب فسافر الى ارجاء بعيدة واطلع على الحياة هناك . اما اخوه الاكبر مانفي العجوز فلا يلوي لسان احد على مخاطبته باسمه واسم ابيه معا ، مانفي ايفانوفيتش ، كما هي العادة عند الروس عندما يعربون عن احترامهم لمحدثهم . فهو غاية في البساطة والتواضع والنزاهة . واذا كان قد غادر اناماتوفكا مرة فلمسافة لا تتجاوز كاردا . عاش بمعزل عن التعاونية الزراعية ، ولكنه يبدي مساعدته دوما للفلاحين اثناء موسم الحصاد ، ويحب خصوصا جني العصى الذي يقوم به الفلاحون عادة

على مضض . كما يهوى العسل فوق اكوام القش الضخمة اثنـــاء التكويم .

ذهبت ناستيونا الى الشيخ ماتفى بعد ان تذكرت انه طلب من مكسيم فولوفيتين يوم امس ان يرســـل له فتى ليوم واحد كى يساعده فى نقل الحزامات وضبها على الماء لموسم الصيف .

واوضح الشيخ ماتفى آنفاكى قائلا :

– لم تعد لدى القرى الكافيـــة . ولن استطيع القيام بذلك لوحدى . ويخيـــل الى ان من غير اللائق ان اكلف احـــدا بدون ترخيص . فانتم مشغولون بالبذار . وعندما يأتى موســـم الحش ساعمل معكم ان شاء الله . وساسدد هذا الدين .

بالامس لم تبد ناستيونا اى اهتمام بهذا الكلام . اما اليوم فقد اسفت لانها لم تعرب عن استعدادها لمساعدة الشيخ ماتفى . فقريبا كان يرسلها ان تجد وسيلة لبلوغ ما تريد . فكيف لم تفكر بذلك فى الحال ؟ صحيح ان ناستيونا التى لا تجيد الســـباحة تخشى العمل فى النهر . ولكنها لا بد واذ تتمكن بشكل ما من ان تتجاوز خوفها وتتحمل ليوم واحد . فهل هذا ما يتعين عليها الآن ان تخاف منه ؟

جاءت الى الضفة قبيل المـــاء حيث هبطت الشـــمس وراء نهر انغارا . فى تلك المنخفض المنبســـط عند الافق والذى تلمع فيه اندريفـــكوفه . كان ظل خفيف واضح المعالم يغطى نصف النهر . بيد ان التيار هناك اشد والوى مما فى النصف المضاء . وفى نور الشـــمس كان الماء يلمع ويترجرج بسطوع يخشى الابصار . وكانه يتلهى ويلف ويدور ليفيد حركته بنفسه . كانت الاســـماك تسبح كثيرا بهجة وسرور واعجاب وغرور . فصغيرها يتقافز باستمالة فى الهواء الضوء تلو الضوء ويخلف على الماء دوائر ودرجات كالسلم السحرى . وكبيرها يفجر الماء بعيدا من الداخل فيصدر عنه صوت هادئ كمن يتمطق بارتياح . وفى اسفل الضفة المرتفعـــة كانت هناك بقايا من الجليد المتخذ الوسخ السوق . تسيل منها قطرات شقت طريقها وسط الرمال والصخور . وتجوب الشاطئ طيـــور صغيرة سريعة لجوجة مقصورة ذات اذناب طويلة مدببـــة . وهى تسمى فى اماكن طفولة ناستيونا بطيور الذهرة . بينما يســـمونها

هنا بابى فصادة . وكذلك السمكات التى تجوب مياه الشاطئ اسرابا تسمى هناك بالقراع ، بينما تسمى هنا بالابراميس . تكريما لسمك الابراميس المعروف فى بحيرة بابكال والذى لا يعيش فى نهر انغارا . وعندما سمعت سمكات الابراميس خطوات ناستيونا خاضت الماء بصخب وقاصت فى الاعماق وقامت بنصف دورة ، ثم سبحت قليلا مع التيار واتجهت نحو الشاطئ من جديد بعد مرور الانسان . ومرقت الخطاطيف فوق راس ناستيونا بخفيف شديد ، وفاحت رائحة الرطوبة التى تزكم الانف ، وبللت بتكاسل موجة ضعيفة انبعثت تلقائيا من الداخل ، فالهواء ساكن مولت ، وتهادى خرير الماء من بعيد ، من الراس العلوى لجزيرة العروج . كان الظل يتقدم حتى لتكاد العين ترى زحفه ، وحالما غابت الشمس هب النسيم ، وكانه يغلق باب النهار ، ثم سكن من جديد . وجرى النهر كله من الشاطئ حتى الشاطئ بسرعة اكبر . فان ناستيونا تعتقد منذ الطفولة ان التيار فى الظلام اسرع واشد مما فى الضوء .

انهمك الشيخ ماتفى فى اعداد التوارب ، ولديه منها ، بوصفه مراقبا للعوامات ، لوحة صنعها بنفسه جميعا . وعلى حصى الشاطئ استقرت العوامات الجاهزة للنقل وهى تلمع بطلائها الطازج - ثلاث بلون احمر واثنتان بلون ابيض . هبطت ناستيونا على الدرجات المحفورة فى التربة والمغلفة بالاخشاب كالسلم وحيت الشيخ ماتفى وتطلعت الى العوامات باهتمام كبير . وسالته فى الحال :

- ماذا ايها الجد ، من الذى يعده مكسيم لمساعدتك ؟

- من ؟ . . - غسل الشيخ يديه بدون استعجال ومسحها ببنطاله ونزل من القارب - مكسيم ذكى . قال لى خذ من تتمكن من اقناعه ، اما انا فليس لى حق ان اعين شخصا لمثل هذا العمل . - تنحنح والحنى يبحث عن شىء ما فى الارض وقال موضحا : - ضيعت القنيلة . ابحثى عنها انت ايضا ، فنظرك حاد . القنائل المرطبة نادرة جدا هذه الايام . كانت بيدى الآن . ولا ادرى اين ضيعتها .

عثرا على القنيلة تحت مقعد القارب ، فاخذها العجوز ودسها فى جيبه .

– انا بحاجة الى مساعدة في نصب عوامتين فقط . اما البالبات فساضبها بنفسي . ولكني لا استطيع نصب عامتين بدون مساعدة . احداهما قرب الجزيرة ، فالماء هناك خبيث ويصعب على العوامة ان تصمد امامه . والثانية ، بيضاء ايضا ، مقابل المنحل وراء القرية ، عند الراس الاجرد . اعتقد انك تتذكرين موقعهما في العام الماضي . لما الصبر فساتقلها لوحدي بالتدريج . على ان اذهب الآن لاقناع احد بمساعدتي ، والا فسيصل زورق المفتشين اليوم او غدا . ولا اريد ان اكون اسوا من غيري .

– خذني معك يا جدي ، وساساعدك على قدر الستطاع – قالت ناستيونا والقت نظرة لترى على العوامات فشعرت بالخوف من العوامتين البيضاوين الاكثر . تطلع اليها الشيخ بحذر ولزم الصمت حائرا هل يصدقها ام لا . ثم قال :

– لم لا ، اذا كنت لا تمزحين ؟ فمن آخذه يا ترى ؟ هل ستتعبين معي حقا ؟

– بالطبع يا جدي ، ولكن اسمح لي فيما بعد ان استخدم القارب لوقت قصير في العصر . فانا اريد ان اقتطع للحصان صفصاف في الجزيرة . وقاربنا لا يزال على الضفة حتى الآن .

– ساساعدك في تقطيع الصفصاف ، فتلك قضية بسيطة .

– كلا ، يا جدي ، لا داعي لذلك ، سافعلها بنفسي على مهل . – قالت ناستيونا مرتعبة واضافت كيلا يلاحظ رعبها : – على كل حال ، سنرى فيما بعد . . .

– كما تشائين . فانا مستعد لمساعدتك . تلك قضية بسيطة . من اين بعثك الي الله يا بنتي ؟ – ضيق الشيخ عائدي ، من فرط التوفيق غير المتوقع ، جعلته المخلوقة بحاجبين ابيضين باهتين وبرموش بيضاء ايضا ، وتنهد بارتياح : – اما انا فكنت افكر متحيرا : من يمكنني ان استعطفه ؟ الجميع مشغولون . وطالما ستتعبين معي فلنذهب من الصباح الباكر . فلا تنسي نوما لغدا . هل ستاتين ؟ الا تخدعينني ؟

– ساتي يا جدي من كل بد . ساتي مع طلوع الشمس ، بل وقبلها . ولكن لا تقل لمكسيم انني اقترحت عليك بنفسي . قل له

انك انت طلبت مني ذلك . فانا لا اريد ان اذهب للحراثة فما . مللت منها . وساستريح قليلا .

– بالطبع . بديهي اني سافول له كما تامرين .

صرفت ناستيونا النهار كله في النهر . شرعا بالعمل حالما انبلج الفجر . والهواء منعش بارد والسكون مطبق ناعس لا يسمع فيه الا خرير المياه عند الضفاف البعيد وحفيف الجريان الذي لا تكاد الاذن تميزه . بدا النهر فاترا كئيبا . وعند الضفتين ارتعشت المياه متموجة . وفي رواق واسع وسط تلك الارتعاشات الخفيفة جرى الماء لساعا كالزيت . استقلا قاربا كبيرا عريضا كالفلنش . بيد انه يتطلب قوى هائلة لدفعه وسحب العوامة الثقيلة الخرقاء من خلفه . في البداية سحباه بالحبل الى اعلى النهر . ثم جلست ناستيونا في مقدمة القارب . بينما جلس الشيخ مانفي في مؤخرته لتحريك المجداف الفردي . ابتعدا عن الشاطئ . ومنذ ذلك حاولت ناستيونا ان لا تتطلع الى الماء . فوجهت انظارها الى قعر القارب عند اسفل قدميها وهي تخشى التفكير بان من اللازم بعد قليل ان تنهض بكل قامتها وسط القارب وتقوم بعمل ما لساعدة الشيخ مانفي .

تعذبا كثيرا في جذب هذه العوامة الاولى . فقد افرطا في الجنف وفوتا المكان المطلوب وتعين عليهما ان يعودا اليه . فبات بالفشل كل محاولاتهما للرجوع ولو قليلا ضد التيار في وسط النهر . بل ومن العبث الامل في ذلك . فالماء هنا يجري بسيل قوي متدفق وعنيف . وهو يصفع القارب ليتطاير رذاذا الى متنه . لام الشيخ مانفي نفسه على حماقته واعلن استسلامه . جذفا نحو الشاطئ الايسر . الاقرب الآن . والذي تتحرق ناستيونا شوقا للنزول عليه ولكن بدون العوامة وبدون الشيخ طبعا . ومع ذلك عندما اقتربا من الشاطئ ارادت ان تبتدع عذرا وتبقى على هذا الشاطئ وتقنع الشيخ مانفي بان يعود اليها قبيل المساء . وعند ذاك بوسعهما ان ينبتا هذه العوامة اللعينة . لكنها تعرف ان ذلك غير ممكن . وبعد استراحة قصيرة اتجها الى اعلى من جديد . وجذفا قليلا في طريق العودة تحوطا . ثم القيا . قبل الاوان بعض الشيء . حجر الاسناد فاضطرا الى سحبه وتحريكه كي يتزحزح من

مكانه وحمله التيار الى الموقع المطلوب . كان عمل ناستيونا يتلخص في الجذف لتثبيت القارب حسب توجيهات الشيخ ماتفي . وبعد ان نصب الشيخ العوامة كما يجب تنفس الصعداء واشعل سيجارة . واعترف قائلا :

– هذه العوامة هي الاثقل . وانا انيرها واطفئها عادة قبل الاخريات . انظري الى الماء الغوار الشرير . فهو يهجم ولا يسكن وقته .

وبالفعل كان نصب العوامة الثانية اسهل . ووافقت ناستيونا على الساعة في نصب العوامة الثالثة . فالوقت كاف . الا ان الشيخ رفض واطلق سراحها وقال مرحا ومرتاحا :

– كفاية . انتهينا على اثنتين فقط . اما الباقيات فلا اجد صعوبة في نصبها . لهذا ساتركها لوحدي بالتدريج . فاذهبي الى اين اردت طالما النهار لم ينقض بعد . هل تريدين ان اساعدك ؟

– سافعل بنفسي يا جدي .

– كما تشائين .

عرض عليها قاربا آخر خفيفا وسريعا . الا ان ناستيونا ظلت في القارب الكبير . فقد تعودت عليه خلال النهار وصارت تخاف من القارب الاصغر . فالقارب الخفيف الذي ينصاع لاية موجة ولاية هبة من الريح يثير مخاوفها . اذ ربما تهب الريح الجنوبية او تحدث مصيبة اخرى وتفسد الامور . فالمجلسة من الشيطان . والانسان يجب ان يموت على الارض . واقفا او سائرا . بالصدفة او بدونها . ولكن على الارض من كل بد . حيث تتواجد الصلاة المعتادة تحت القدمين . وحيث الهواء يسمى بنفسه الى التغلغل في الرئتين . لم تر ناستيونا بحرها الا مرة واحدة قبل الحرب بزمن طويل . وحالما تتذكره . حتى الآن . يقشعر بدنها .

انزلت الشيخ قرب قرنه ورفضت احتساء الشاي معه وتوجهت لعبور النهر في الحال . وعندما ظلت لوحدها واقترب اخيرا . بعد فراق طال حوالي شهرين . ذلك اللقاء الذي سعت اليه بكل الوسائل . بالحق والباطل (باي حق ؟ بالباطل وحده !) . اكتفت لناستيونا رقبة مترددة حائرة في تاجيل هذا اللقاء وترك الامور على حالها . فما الذي يوصمها ان تقوله الآن لاندري ؟ انتهت

الحرب وعاد الى القرية مقاتل آخر هو النصير السابق لوفا سوليين . وهو رجل كهل صموت التحق بالخيالة منذ البداية . وخدم فيها طوال الحرب سالما للخيول . وقبل ثلاثة ايام لوفسا ميخيتش . هي ناستيونا . على الكتابة الى التحريات والسؤال عن مصير انفري . وسلم الرسالة بنفسه الى ساعي البريد . سيميونوفنا تسير على قدميها بشكل افضل وبدون عكازين . ولعل دفء الجو هو الذي ساعدها . قدرة سيميونوفنا على المشي امر جيد بالطبع . ولكن ناستيونا كانت ترتاب في ذلك وترى فيه فالا سيئا بالنسبة لها . وماذا بعد ؟ البطن . . . سيراه بنفسه . ثم انها تجرات مؤخرا وباعت الساعة على اينوكينتي ايفانوفيتش . باعتها بثمن بخس طبعا . وسعدت بثمنها فوق السنفات المستحق . فقد حل موعد التسديد ولم يكن لها في الامر حيلة .

وماذا سيقول هو ؟ ماذا عساه ان يقول ؟ ستنظر اليه وستفهم كل شيء بدون كلمات : كيف كانت احواله في الفترة التي تم يلتقيا بها . وما الذي ينوي فعله . لا يمكن ان تستمر الامور على هذا الحال طويلا . فيجب اتخاذ قرار ما والاتجاه الى وجهة ما . ولكن اي قرار واية وجهة ؟ . . القصاص قريب . قريب جدا . ولا فرق اذا كان قصاص الناس او الله او النفس . فلا شيء يضيع جزافا في الدنيا .

الشمس لا تزال مرتفعة . والهواء الطلب يكتنف النهر . فالنسيم يهب من جهة الشمال . ناستيونا تنتعش دوما عندما ترى الريح في الصيف تهب بعكس التيار . اذ يخيل اليها ان النهر يتياره المرخي الجبار يجب ان يسحب الهواء ايضا وراءه .

جفت بدون استجمال . ولكنها شمرت بآثار الجفافين الثقيلين خلال النهار بعد الانقطاع الطويل . فقد تغير ساعداها . وتغضب الظهر من تلك الحركة المتكررة المتواصلة ودبت فيه القشعريرة . وتتهادى الى الاذنين حفيف لذيذ من سطح الماء الممزق . ينبعث رقيقا متناغما كرنين نواقيس صغيرة هالكة . كما ينبعث من الجنف صوت آخر ثقيل هو صوت الماء الذي يغلفه المجدافان بصرير واني . ومن منتصف النهر تبدو الرؤية شاملة بعيدة كما في الاعالي . كان كل شيء يسبح ويتمايل — المنازل

والغابات والسماء والحقول المحروثة على الهضبة والشاطئ . كل شيء بدا مزعزعا وقرانا على اساس من الرمل . وفي اعالي الجسو تعلق باشق كنقطة صغيرة فوق النهر وراح يتطلع ويتأمل . شعرت ناستيونا لاول مرة في حياتها . دون موجب اطلاقا . بالعطف على هذا الطير الغادر . فهو ايضا يعاني من ضنك العيش . وخيل لناستيونا في الأونة الاخيرة على الصوم انها لا تمتلك حقا في لوم احد . لا من البشر ولا من الوحوش ولا من الطيور . فكل منهما يعيش حياته الاسيرة خارج ارادته وهو عاجز عن تغييرها .

تنبهت بالطرف السفلي للجزيرة . ثم صارت الى اعلى على امتداد الجهة الاخرى المستورة عن القرية . وهناك لمرزت مقدمة القارب في ارض الشاطئ . ولم يبق عليها الا ان تعبر المجرى وهو ضيق القعر بثلاث مرات من المسافة التي قطعتها . بيد انها توقفت ليس بسبب التعب . فقد داهمها خوف آخر . خوف نفساني . احست ناستيونا في دخيلتها تشابكا وتشويشا اختلطت فيهما فرحة اقترابها لقاء اندري وخوف من هذا اللقاء . خوف من التطلع الى الغور السافح بالظلام . وتعين عليها ان تعمل النظام والترتيب في مشاعرها وتوجهها في وجهة واحدة ثم تواصل السير . جلست تتطلع الى الماء عبثا وابتسمت ابتسامة متصنعة متكلفة موجهة الى داخل فؤادها لعل الاطمئنان يتسرب منها اليه كثيفا كالزيت . بيد انه لم يتسرب الى هناك ولم يظهر له اثر . ولم يتبدد القلق والاضطراب . ظلت ناستيونا جالسة بدون تلك الابتسامة التي اختفت ولم يبق منها الا قناعها على الوجه . وتذكرت كيف باعت الساعة على اينوكينتي ايفانوفيتش . ولو تذكرت شيئا آخر لربما هدأ من روعها . اما قصة الساعة فليس يوسعها ان تهدئها .

راح اينوكينتي ايفانوفيتش يقلب الساعة بيديه طويلا ، ويقربها من اذنه ومن عينه ويلقي على ناستيونا نظرات متفحصة ثاقبة . كان واضحا ان الساعة اعجبته . وهو راغب في الحصول عليها . الا ان رغبته اشد في معرفة سرها وايضاح الكيفية التي وصلت بها الى هنا وعن طريق من . فربها من عينيه بالفات لكي يرى ما اذا كانت عليها آثار ما . كتابة او اشارة تدل على مصدرها او توضح شيئا بخصوصها . ولكنه لم يعثر على اي اثر . تمالك

اعصابه وانتظر قليلا وشاغل نفسه وناستيونا ثم سأل في الاخير وكانما عرضا :

– من اين لك ؟ هل بعتها انذرى ؟

جواب ناستيونا جاهز ، فقالت وكانها ، هي ايضا ، تلعب لعبة اللف والدارة :

– من اين له ؟ . . انا اشتريتها له ، لانذرى ، في كاردا العام الماضي . والآن نحن مضطرون لبيعها . ليس لدينا ما نسد به ليمة السنات . عندما يعود انذرى سيشترى لنفسه ساعة اخرى . لقد تاسفت مرارا لاني اشتريتها .

– بكم اشتريتها ؟

– بالفين .

كانت تخشى ان تقول له ، كما قالت لميخيتش ، انها بادلتها بالبندقية . فحالما يمسك هذا براس الخيط يسحب الشلهلة كلها .

هز اينوكينتي ايفانوفيتش راسه وقال :

– لا املك مثل هذا المبلغ الضخم . عجيب امركم . دفعت الفين على الفور ، وكانك تدفعين روبلين . ومع ذلك تتظاهرون بالفقر . ومن الذي باعها لك في كاردا ؟

– لا اعرفه . اعتقد انه عسكري ، فقد كان يرتدي معطفا عسكريا . اعجبتني الساعة جدا ، فاشتريتها دون تفكير . بعت البلوز والشال وجمعت كل ما عندي – لمعت ناستيونا في كذبها وتطلعت الى وجه اينوكينتي ايفانوفيتش دون خوف او وجل – ولو عرضها على الآن فهل يمكنني ان اشتريها ؟ كلا ، بالطبع .

– لا املك الفين . فلست غنيا مثلك – قال اينوكينتي ايفانوفيتش وهو يتظاهر بالفقر ويبحث عن وسيلة للتاثير على ناستيونا دون ان يحيد بنظراته المتلصصة عنها – يمكن ان اجد الفا بمنتهى الصعوبة ، ولن اجد اكثر .

فكرت ناستيونا وقالت متنهدة :

– لذن خذها بالف . فهل من ايبها هنا ؟ اما في كاردا فاضيع نهارا ، بل وحتى نهارين . ليس لدي وقت الآن .

عد لها اينوكينتي ايفانوفيتش الالف ولكنه لم يصدقها . فقد لاحظت انه لم يصدقها . ما كان ينبغي لها ان تعرض عليه

الساعة . ولكنه لم يكن هناك من تعرضها عليه . فلى انا ماخوفكا لا يوجد شخص غيره يمتلك تلودا . زد على ذلك ان شيئا ما دفع ناستيونا اليه بالذات ، ولما عنها . فهو يحب التنسم وتلقى آثار الغير ومعرفة كل ما تمكن معرفته اكثر من الآخرين وقبل الآخرين . خذ وتنسم ، انني اقدم لك بنفسي لطمة تفرح منها رائحة الكل والسلق . فتنسم بانفك الطويل ما استطعت . وسوف اقدم لك لطمة اخرى في القريب العاجل . ولا اخاف منك .

في حين كان يتعين عليها ان تخاف منه . فهو ليس ملاكا من الملائكه . كلا ، يبدو ان كل ما تفعله ينقلب ضدها .

١٨

ناستيونا تعلم ان اندرى الآن في الكوخ العلوى ، ولكنها لا تدرى ماذا تفعل بالقارب : فاما تهبط به وتخبئه في الجدول ، واما نتركه عند الشاطئ مقابل الجزيرة . وهو غير مرئى من تلك الجهة . وعلى هذه الجهة لا يمكن اخفاؤه اذا جاء شخص ما . فالافضل اذن ان يبقى دون اخفاء . الا يحق لها ان تأتى بقاربها لقضاء حاجة ما وراء النهر ؟! من اجل تطبيع الفصان الصفصاف ، مثلا ، كي يستخدمها حوضا في صنع السلال والاقفاص . والصفصاف هنا اكثر مما في اى مكان آخر . كان ميخيتش قد اعرب مرة عن رغبته في الذهاب الى الجزيرة لاحضار تلك الاغصان . صحيح انه قصد الجزيرة وليس ابعد منها ، لكن الامر سيان تقريبا . ستقول لميخيتش انها لطمت الصفصاف من الجزيرة ، وسيدهش ، ولن يكون لديه سبب للاعتراض . فهو الذى اعرب عن تلك الرغبة ، وقد ارادت هى ان تفعل ما يسره . لم ما الذى يجعله يعترض اذا كانت هى قد فعلت معروفا ؟ لقد صارت ترى الريبة والشكوك في كل مكان حتى عندما لا يوجد ادنى اثر للريبة والشكوك .

الا ان احدا كان يتعقبها هذه المرة . فعالما سحبت مقدمة القارب الى اليابسة والقت نظرة عجلى على ما حواليها وسمعت الطقطقة غير العالية خرج شخص من الشجيرات الكثيفة المطلة على الماء الى

اليسين . لم تنتبه ناستيونا اليه ولم تلاحظ كيف ظهر ، بل سمعت فقط طقطقة الحصى من خلفها فالتفتت مرتعبة وراءه متحفزا على القارب يحرك مقدمته بهزات شديدة على حصى الشاطئ . فزعت منها صرخة ، ولكنه بادرها قائلا وهو يتوجه اليها محنى الظهر قليلا

– كيف تتركين القارب على هذه الصورة ؟ يمكن ان يحمله التيار بعيدا .

كان ذلك الشخص هو اندرى . هرعت اليه ناستيونا بقلب متطاير من الرعب والفرح وهى ترتعش بشدة وتتاوه ، ولكنه لم يسمح لها بمعانقته ، بل اندفعا بسرعة الى ما وراء الشجيرات حيث لا يمكن ان يراهما احد من جهة النهر وعانقها هناك فصمرها بشدة بين ذراعيه وتلاحقت انفاسه وهو يتطلع الى محياها .

– كنت اعلم انك ستاتين اليوم ، عرفت ذلك منذ الصباح – لتتم بلهفات سريعة وضاقت جلوله لانه يراها عن كثب – سمعت فى الصباح اصواتا على النهر وعرفت صوتك . وايقنت بانك ستاتين . فصرت انتظر طوال النهار . وبعد ذلك رايتك قادمة .

ضغطها بشدة اكبر . فدفعته وابرزت له بطنها :

– على مهلك يا دب ، والا ستسقطه . الا ترى ؟

– موجود ؟ – سال بايجاز وقد اسكرته هذه الفرحة .

– فهل تعتقد باني ملأت بطنى عصيدة ؟

ضحك بدوى متقطع كمن نسى الضحك من زمان ولم يعتد بجيده ، واخذ يتلمس بطنها حذرا براحته العريضة الطويلة الاصابع لكى يتاكد من مرونته . وشعرت ناستيونا بالارتياح لهذه اللمسات فتنهدت براحة وعمق . وقال هو :

– غير واضح بعد .

– كيف ذلك ؟ . .

التقطت راحته ووضعتها على الثدى الذى يدل على مكان وجود الجنين . وسالته :

– واضح ؟

– يخيل لى انه موجود .

– يخيل اليك . . . انك انت نفسك خيال لا اكثر . اما هو فموجود . وانا اعرف انه صبى .

– تعرفين . من اين تعرفين ؟ – قال مندهشا .
– للتراهن . انا اقول صبي واذا فزت في الرهان تمنحني صبية .
– فليولد هذا اولا .
– سيولد . فلماذا لا يولد ؟ هل سمعت يوما بان طفلا بقي هناك ؟ – اثارت هذه الكلمات شعف ناستيونا نفسها فراحت تقهقه .
ولكنها بردت عندما تطلعت الى اندري باسمان . وخف انفعالها السعيد الذي اثاره لقاؤها المباغت معه قبل الاوان . كان ماء وجهه قد ذهب ، ونحل فكاه قرات ، حتى عبر لحيته ، كيف تهدلت وجناته عليها . وتجمدت عيناه وهما تنظران من الاعماق بالم مبهم . ولم تعد اللحية تبدو سوداء ، بل كالحة مبقعة جعلتها الخصل المجعدة الشعثاء اكثر تشويشا . كان راسه مشرئبا وكانه يحدق دوما في شيء امامه او يتسمع اليه بانتباه . ولعل الامر كذلك فعلا . كان قد فقد مؤخرا شعر راسه وحلقه عشوائيا . فقد تدل بخصل شعثاء غير متساوية . وعيناه ، عيناه هما اللتان ارعبتا ناستيونا اكثر من اي شيء آخر . فقد تغيرتا وتبدلتا منذ اللقاء الاخير لدرجة كبيرة وامتلاتا بالكآبة والاسى وفقدتا اي تعبير ما عدا الانتباه . . . لاحظ اندري طلايها وهي تتطلع اليه فقال مرتعشا :
– ماذا ؟ الا اعجبك ؟
– اندري . . . – غرزت ناستيونا وجهها في صدره كيلا ترد على سؤاله ، ومن هناك ، من اعماق الصدر همست له بصوت مختنق بما كانت تعتبره اهم شيء الآن : – اندري ، انت لا تعرف بعد : الحرب انتهت .
– اعرف ذلك . – قال بهدوء .
فابتعدت عنه ناستيونا على عجل :
– من اين تعرف ؟ من قال لك ؟
– سمعت طلقات الابتهاج .
– آ . . . اجل اطلقنا الرصاص .
– عيناي واذناي حادة جدا الآن . . . ارى واسمع عن بعد كبير – قال ذلك وكانه يريد تحويل مجرى الحديث ، ولربما يريد

التفاخر فعلا – وانا احسد نفسي بنفسي . في الصباح كنتما لتطفان بعيدا في المجرى الرئيسي للنهر . اما انا فعرفت ان القارب يسير . سمعت ذلك من هناك . من الكوخ على الهضبة . وحالما اقتربتما من الجزيرة عرفتك .

– لم استطع ان احضر لك شيئا . – قالت ناستيونا شاردة اللحن ببطء والتراب . – ما عدا قطعة من الرغيف والبيض . خشيت ان ينتبه احد لذلك .

– لست بحاجة الآن . لعابات التايغا ستطعمني . انا بحاجة الى كلة يا ناستيونا . فالبعوض سيهجم قريبا ، وسيفترسني اذا بقيت بدون كلة .

– الكلة . . . حقا ، كيف نسيت الكلة ؟

– احضريها في المرة التالية .

– ساحضرها بالطبع . . .

اخذت تفكر بكيفية الحصول على الكلة . كلته هو ، القديمة المصنوعة من شعر الخيل ، تمزقت من زمان . وليس في المنزل كلة احتياطية . يجب العثور على كلة . فالبعوض هنا اسوأ من الوحوش المفترسة . واندري هو الانسان الوحيد الموجود هنا . وسيهجم البعوض كله عليه .

كانا لا يزالان والقين يراوحان الواحد قرب الآخر ، وعلى جانبهما اشجار بتولا فتية متفتحة بنفس ارتفاعهما . انبتت اوراقها واتسعت بعد ان كانت براعم ملتوية ، ولكنها لا تزال صغيرة شاحبة في ضوء الشمس بعروق متخضبة صيفية .

لاح نهر انفارا من وراء اشجار البتولا . ولم تكن القرية مرئية ، فقد حجبتها الجزيرة . وحنت الشمس على تلك الجهة فسلطت عليها اشعة مائلة مركزة . الشاطئ هنا واسع جميل موشى باشجار البطم والبتولا المتزعة هنا وهناك على مرجه الاخضر . وهو ينحدر بشكل لا يكاد يلحظ نحو الماء وينبسط صامتا وكأنه مهجور او مهجور . وانشغلت في نبش الاعشاب طيور صغيرة صامتة بظهور مخططة بالطول وزوزوس مرتفعة . ومن بعيد ، من جهة هذا الشاطئ ، راح وفراق ينعق من زمان بصوته الرتيب وكأنه يتوقع ان يجد من يجيب بلهفة سئم عمره استنادا الى

وثورته . كما هي العادة الغالبة في هذه الانحناء . فوادت ناستيونا ، منذ ان كانت في النهر ، ان تحسب تلك البلية ، ولكنها خافت من انقطاع الوثوقة . اما الآن فواضح انها لو حسبت لبلغت مائتي عام او اكثر . وسألها اندري وهو يتلفت بدون سبب :

— هل تريدين ان نذهب الى الكوخ ؟

فقالت ناستيونا مترددة :

— انه بعيد ولا بد . واذا تركت القارب . . . وربما يختطفه احد .

— من الذي يختطفه هنا ؟ . .

هبطت ناستيونا الى القارب واخذت من مقدمته صرة الطعام . لكنهما لم يذهبا الى الكوخ . بحثا عن مكان مناسب فنثرا على قسمة دائرية منزوية قسمها الى نصفين جذع ابيض صلب كالعظم ، وجلسا عليه . سلمت ناستيونا الصرة لاندري ، ففتحها على مهل وهو ينظر بعيدا الى الامام ، ولكنه عندما رأى قطعة الخبز لم يتمالك نفسه فغرز فيها اسنانه . حاولت ناستيونا ان لا تنظر اليه وهو ياكل بنهم ، فانزلقت من على الجذع ومدت بشكل مريع رجليها اللتين تخشبتا في القارب . كانت ترفع راسها بين الحين والآخر وتنظر خلسة الى اندري وهي منعصفة متعجبة ليس له ولا لجرعه ، بل لان هذا الرجل البهدل الاشعث الذي يلتقط الآن فتات الخبز الساقط على لحيته ويأكله انما هو ذلك الذي قهر الليالي من اجله وتسمى الى السماء بكل ما لديها من جهد وطاقة . يا الهي ، ما اكثر تقلبات المشاعر البشرية وما اشد غموضها ! وما اكثر تبدلها ولجاجتها ! فهل صمت هي اليه بالذات ، الى هذا الانسان ؟ وهل هو الذي عانت الامرين من اجله ؟ احقا هو المتسلط عليها بكل ما في ذلك التسلط من رهبة ورغبة ؟ شيء لا يصدق . يبد ان ناستيونا اوقفت سيل افكارها : فالم يسأل نفسه هو ايضا على هذا النحو عندما رآها لاول مرة بعد الجبهة : الى من هرب يا ترى ؟ ولاجل من الترف فعلته تلك ؟ وما امون عبور نهر انغارا بالمقارنة مع ما فعله ! انقبض قلبها باسى واكتئاب . فلا امل في مخرج . هذا الانسان لا يعرف شيئا عن نفسه ، انه يخشى نفسه ولا يثق بها .

اما الوقواق فواصل وقوفته دون ان يغير نبرات صوته ، واصل حسابه موزعا الاعمار الطويلة على الاشجار والنهر والحصى . تهادى خرير الماء امام الجزيرة ولمعت بيوت العناكب المبكرة على الاشجار في اشعة الشمس المائلة الواطئة . وسبحت العين في خضم الخضرة الساطعة وانسحبت عليها غشاوة رقيقة خضراء . وتبردت الانفاس بعطور ندية فواحة . وهبطت على القمة من الاعلى فراشة ظلت ترتطم امامها طويلا بالشجيرات الكثيفة دون ان تتمكن من العودة من حيث جاءت . بيد ان منظر النهر ظل مرئيا عبر الغصون . ولاحت ضمن هذا المنظر حتى مؤخرة القارب من تحت الشاطئ . تطلعت ناستيونا الى هناك مرارا ليس بسبب خوفها على القارب ، فهي خالية اصلا ، خالية من توقع شر مستطير لا مفر منه .

فرغ اندرى من طعامه ، فسألت ناستيونا في الحال كيلا يتجه الحديث وجهة اخرى :

— انتهت الحرب فما الذى سيحدث لنا يا اندرى ؟

— لا ادرى . — حرك كتفيه فمال ذلك على ناستيونا ، اذ خيل اليها انه قال «لا ادرى» ببالغ الهدوء واللامبالاة وانه لا يريد ان يدرى .

— فمن يدرى سوانا ؟ يجب القيام بشىء يا اندرى .

— ما الذى تريدين منى ان افعل ؟

— لماذا تقول «تريدين» . . . لست انا التى اريد . . . ولكن . . . هل ستفعل شيئا ام لا ؟ عليك انت ان تقرر .

استدار نحوها ولزم الصمت لحظة فانتقى الكلمات الاولى وقال بلهجة متشددة :

— ماذا نفعل ؟ عليك ان تلدى ، وهذا بالذات هو ما يجب فعله . يجب ان تلدى مهما كلف الامر . ففى ذلك حياتنا كلها . افعل ما تشائين ، ولكن اعلمى ان عليك ان تلدى . وهيئى نفسك لذلك . — بدا بلهجة متشددة ، بل وقاسية ، لكن صوته ضعف وتغير . ولاحظت ناستيونا على الدوام ان صوته غالبا ما يتغير . فهو يقسو ويغلظ دون مناسبة ، ثم يتحول فجاة الى نبرة التشكى الذى يكاد يقرب من البكاء . وقد يكون سبب ذلك هو الصمت الطويل والوحدة ، وقد يكون له سبب آخر . سأل اندرى

وواصل كلامه :- بالنسبة لى . ما الذى يجب علي ان افعله ؟ لا بد وانك فكرت اكثر من مرة بانني لو بقيت هناك لما حدث لى مكروه . لا تنكرى . فانا اعرف ذلك . وهذا ما اعتقده انا بنفسى . فالآن . بعد انتهاء الحرب . لا يبدو التفكير على هذا النحو غريبا . اما اثناء الحرب فربما ما كان ليحدث لى مكروه . ولبقيت على قيد الحياة وعدت سالما . - مال نحو ناستيونا وقرب وجهه منها وضيق جفونه اكثر من المعتاد فغبا عينيـــه وهمس بصوت فظيع مخنوق ابح :- ولكن ماذا لو حدث لى مكروه ولم اجلس معك هنا كمـــا اجلس الآن ؟ لا احد يعلم . لكننى جالس معك . فلا تسالينى ولا تذكرينى لافعل شيئا . فانا لا استطيع ان افعل الا شيئا واحدا - عدل قامته واشار بيده الى اسفل - تعال . لا تقاطعينى . انـــا اعرفك جيدا . وانا اثق بك . الم اقل آنفاك : حتى الصيف ؟ ها هو الصيف قد حل بسرعة . فهل مر زمان طويل على مجيئك الى في العاصفة الثلجية ؟ اما اليوم فقد جئت على الماء . الهلاك امر سهل ، يا ناستيونا . ولا مفر منه . خلال هذه الشهور الاربعة عشت هنا حقبة تعادل اربعين عاما بكاملها . بالاضافة الى الثلاثين عاما السابقة من عمرى . اقول ان الهلاك امر سهل . لكننى اريد ان اعرف بانى لن اعلك عبثا . واريد ان اثق بانى لا ازال نافعـــا لك . ولك ستاتين الى هنا ليس من اجل . بل من اجلك انت . لكى تهـــون الامور عليك .

فقالت ناستيونا معترفة :

- اننى لا اعرف الآن لاجل من جئت .

- يمكنك ان تعتمدى على كل شيء وتنسيه . ولكن يجب ان تلدى . فالطفل خلاصنا . ولك انت ايضـــا خلاص غير بسيط في لغتنا هذه . ضميرك يؤنبك وانت قلقة . وعندما تلدين طفلا ستهون عليك الامور . وسينقذك الطفل من الشرور . هل هناك ذنب على وجه البسيطة لا يغطيه طفلنا ؟ ليس هناك مثـــل هذا الذنب يا ناستيونا . اجل . انتظرتك طوال الوقت كى اقول لك : استمعى . حولى قلبك الى حجر وتمردى لنفسك في صمت واخلاقى الذنيئة ولا تسمحى ما سيقولونه عنك . انا اعلم بانك ستضطرين الى السير على الجسر المستمر . . . فاصغى ، يا ناستيونا . ولا

تشرى به . لذا فقد صبرك تعالى الى . تعالى . سانتظرك . سأعيش من اجلك ، وليس لدى هنا غرض آخر . واذا آذوك جئا سأبيدهم جميعا ، وساحرقهم جميعا ، ولن اسامح حتى مع امى التى ارضعتنى . . .

غاص راسه بين كتفيه وهو يتطلع متلفتا ، بعينين مهووستين ، الى الجانب الآخر من النهر . فخاطبته ناستيونا مرتعبة :

— اندرى ، يا اندرى !

التفت اليها فانزلقت نظرته عليها دون ان يراها ، وابتعد قليلا ليتخلص من نوبة الهياج الداخل الفائق ، وصمت امدا طويلا . ولم تكن ناستيونا ، هى الاخرى ، تعرف ما يتعين عليها ان تقول . الا انها تذكرت فجاة ، ويا للسخرية ، انه ليس لديها ما تقطع به اغصان الصفصاف التى جاءت من اجلها . فلم تاخذ معها لا سكينا ولا فاسا . كلا ، فى ضفيرة كل منهما يلمع اكثر من شخص واحد بيدين ورجلين وكيان كامل . وكل من اولئك الاشخاص يسحب الواحد منهما الى جهات مختلفة ليلقطونه الى اشلاء متناثرة حتى يودوا به الى التهلكة . اما هو ، المسكين ، فيقول ان نفوس الغير دهاليز مظلمة ، وكانه يعرف ولو قليلا عما فى نفسه !

يردت الارض تحت ناستيونا فنهضت وجلست على جذع الشجرة . تزحزح اندرى فاقترب منها ، ولكنه لم يعانقها كما توقعت بطرف ، بل راح يميل الى الامام والى الوراء كرقاص الساعة . انحسرت الشمس عن الضفة وزحفت الى النهر . حطت ذبابة على مؤخرة الفارس وراحت تلفز محركة ذيلها بعصبية ، ثم حلقت واختفت وظهرت من جديد بعد لحظة واخذت تحص فى الماء بسجدات سريعة متلاحقة . ومن جهة مشرق الشمس ظهرت خطوط خفيفة من سحب بيضاء . وانتاب ناستيونا القلق من احتمال تبدل الطقس .

— قد نذهب الى منطقة لينا — قال اندرى فجاة ، فسالت ناستيونا مستغربة :

— الى لينا ؟ لماذا ؟

— كان عندى صديق من تلك المنطقة . حاربنا معا . اسمه كولبا كيخونوف . — شرق بكلامه وكان شيئا اطبق على حنجرته ، فكرر

قالا : – كوليا ليفونوف . صحيح اننا كنا في مفرزتين مختلفتين ، انا في الاولى وهو في الثانية . وكانت المفارز تلعب للاستطلاع حسب الدور . فلم نتقابل كثيرا . وعندما يحالفنا الحظ لليلا نلتقي جميعا . كان اعزب . . . وكان من المحتمل ان يصير انسانا جيدا . فهو متواضع طيب القلب . وذكي قادر على اداء كل المهمات . وكريم يستغني عن آخر قميص لديه ، وعن آخر ارغفته . وعلى خده اثر جرح يناسبه تماما وكأنه نقرة صغيرة . فقد فرزوا في وجهه مفرقة اثناء عراك في الطفولة . وقد اتفقنا ، انا وهو ، على ان يذهب الذي يبقى منا حيا الى اهل القتيل ويحدثهم عنه . هو من اهالي نهر لينا وانا من اهالي نهر انغارا . فنحن الاربع والسبعون ليست بعيدة جدا . كان غريب الاطوار بعض الشيء . فعندما سالته : ولماذا قتلنا كلانا ؟ قال : لن نقتل كلانا . الا اذا التقى ماء لينا بماء انغارا . – لنجتمع اذن على جبل وننهد طويلا : – فقلت له . وكأني اعرف الكثير ، انهما يلتقيان في البحر ، فقال : البحر هو الموت . انهما يعيشان طالما يسير كل منهما في مجراه . اما البحر فهو الموت . وبعد الموت سنلتقي نحن ايضا . وعندما عدنا من حملة استطلاعية عند الفجر اخبروني بانهم جاءوا بكوليا قتيلا . الا يتعين علي ان اذهب الى اهله واحدثهم عنه ؟ – واصل كلامه دون توقف – فانا اعرف واتذكر اين دفن . اذ دفنته بنفسي . يجب ان انفذ ما التقنا عليه . . .

– كيف تلعب ؟ – سالته ناستيونا بطرف .

– سالظاهر بانني قادم من بعيد . فريته صغيرة . وسابقى هناك برهة لاحدثهم واعود . عندما دفناه لم ابك ، فليس البكاء من الامور الجائزة هناك . ولكنني تذكرته مؤخرا فسالت دموعي . فانا لست حجرا بلا شعور ، يا ناستيونا . حبذا لو كنت بلا شعور ، فذلك اهون . الفكر والفكر حتى الجنون ، والافكار كلها شائكة . . . تخزني وتلسعني . . . الفكر في تسليم نفسي لاتلقى العقاب الذي استحقه . وكلما زادت العقوبة سيكون ذلك الفضل ، ما دمت استحقها . وبدلا من ان انتحر فليغلق المكلفون بقضيتي ملفها بسرعة . سيزدون واجبهم وسيكون ذلك الفضل لي انا ايضا . – تجمدت ناستيونا في محاولة لعدم تفويت اية كلمة يقولها ، ولكنه رفع

راسه وهزه بحزم دليلا على الرفض القاطع : – كلا ، لن اسلم نفسي . لست خائفا على نفسي ، وربما سيكون من السعيد ان اصطدم رميا بالرصاص . فهم سيدفنونني على الاقل . اما هنا فلا احد يهيل التراب على . كلا ، لن اسلم نفسي ، فانا لا اريد ان اجلب العار عليكم . ثم انهم سيزدرونك اذا علموا انك ولدت لي طفلا . انا استحق العقاب ، ذلك قضية واضحة ، وانت ؟ ما ذنبك انت ؟ عندما تلدين يتلقى الطفل هذا العار ويحمله طوال حياته . كلا ، لن اسلم نفسي . تسالين : ما العمل ؟ افلا اعتبر انا نفسي بهذا السؤال : ما العمل ؟ فلننتظر قليلا ، ولا بد من ان تنكشف الظلمة . قد اذهب الى لينا فيما بعد ، وقد لا اذهب ، يتعذر الوصول فالثلج . فانا ، يا ناستيونا ، اخشى الابتعاد عنك ، ولا استطيع العيش الا بقربك . استيقظ في الصباح وافكر : ماذا ؟ هل نهضت ناستيونا من النوم الآن ام لا ؟ اتجول في النهار وافكر : اين ناستيونا الآن ؟ هل تذكرني بكلمة طيبة ؟ واقول : اصبري ، يا ناستيونا ، اصبري . واعطني لسانك . فالله يعلم ماذا يحدث لو اخبرت احدا . انك في الواقع لست زوجة لي . فالزوجة تعيش مع زوجها في بيت . انك ، بالنسبة لي ، العالم كله . وكل شيء متوقف عليك وحدك .

– لا تقل ذلك ، يا انوى ، لماذا تتكلم بهذا الشكل ؟ – التصقت به وامتلأ قلبها بفرحة متعثرة قليلة كشخص ضل السبيل فلا يعلم هل هو الشفق يسود السماء الآن ام الفجر ؟

– طال صمتي واريد ان اتكلم . هل تتذكرين كيف حفلنا الغجر الاستنتامات وراء النهر في مولد الرسول ايليا ؟ اعتقدنا بان الحشيش في مرجنا قليل فتوجهنا الى هناك . الجسر خانق والذباب يؤذينا ، ولا مجال لتحريك الحشن بطلاقة ، والارض متموجة وعرة . والاسوأ من ذلك اننا لم نكن نعرف هل يجب ان نحش ام لا . فاليوم عيد ، ولكن الناس لا يميتون ولا يعملون . والرعد يكاد يدوي كما هو المعتاد في مولد الرسول . هل تتذكرين ذلك ؟

– اتذكره ، كيف لا ؟ كان هذا في آخر صيف ليل الحرب .

وفي ذلك الصيف تركت دورة المحاسبين وشغل اينوكينتي ايفانوفيتش مقعدك .

– اجل . كنا نحاضرين على بطئنا البعض ، ولا ندري لماذا . تطلعت اليك وفكرت : ماذا عساي ان اقول لها حتى تنتصب ، ثم اسقط نظري عليها وارفه عن نفسي . وانت ايضا رمقتني بطرف العين وشفتاك مزمومتان . لم يتصور احد منا ان بالامكان ترك هذا العمل الى الشيطان والعودة الى القرية . كلا ، بقينا صامتين مهمومين لاهثين . وفجاة تساقط المطر وتاذا رفيقا دافئا من كل الارجاء بدلا من الزوبعة المتوقعة . تساقط المطر ولا ندري من اين . فلم تكن هناك ولا سحابة واحدة . في البداية كانت السماء صافية كالبلور . وفيما بعد عتمت واكفهرت . توقفنا وتطلعنا الى بطئنا البعض . هل تتذكرين ؟ وكنا مسرورين جدا لتساقط المطر ولاننا وحيدين ، انا وانت ، ولان الوقت لم يكن كافيا لندخل في شجار . وخيل الينا ان شخصين آخرين ، غيرنا ، كانا هنا قبل لحظة ، اما نحن فنلتقي لاول مرة . حدث هذا التغير المفاجيء لدينا كلينا ، وليس لدي واحد منا فقط . ولا ادري ما السبب . فهل من المعقول انه المطر وتوقف العمل ؟

– ثم ذهبنا الى حقل الحصى . . .

– ذهبنا الى حقل الحصى فيما بعد . التقى كل منا بالبعض وتعانقنا . والمطر لم يكن بليلا ، حتى لكانه يغرب قبل ان يصل الى الارض . كان كضباب الباخر . ولعله هو الذي سحرنا . ثم دعيتني انت الى حقل الحصى . كنت مستعدا لاتبعك الى اي مكان . ذلك ما اتذكره جيدا الآن . . .

– اندري ، هل نحن اللذان نجلس هنا الآن ، ام الآخران اللذان كانا يحتسيان الاشتابي ؟

انتقلت عليه فكرة بعيدة فمال راسه على كتفه وقال متاملا :

– لا ادري . ربما شخصان غيرنا وغيرهما . كانت هناك حرب . . . وكان كل شيء . كلا – انتظري قليلا – انا نحن ، نحن البالغان الآن ، يا ناستيونا . والا لما تذكرت . نحن . فلم يتلاش ذلك بدون اثر . وما كان بيننا ليس سهلا على الدوام ، فقد كانت هناك اشياء طيبة ايضا ، اليس كذلك ؟

– لماذا تتذكر السينات ؟

– يجب ان تتذكر كل شيء يا ناستيونا ، كل شيء . ولكن السينات كالصورة فلا موجب للكشف عنها دون سبب .

– وهل تتذكر ؟ . .

غرقت في عالم الذكريات الساحرة التي لامست شغاف قلبها برقة وحنان . فلم تعد تلاحظ شيئا : لم تلاحظ ان اندرى مهد مشعت نور . فهو حبيبها الذي عرفت معه حياة الفرحة والسرور . الحياة الوحيدة السعيدة ، على ما يبدو ، بالسعادة والهناء . ولم تنتبه ناستيونا الا بعد ان هبطت الشمس ، قبيل الغليب ، على الغابات في الجانب الثاني من النهر ، وتكثف الهواء واسودت الخضرة وبردت . اهتز امام عيني ناستيونا قصن شربين لا تعرف عصفوره ، وتناثرت براعمه الحمراء القبيحة ، كالثآليل ، عن وريقات ابرية انيقة . جلس اندرى الى جانبها وتمالك انفاسه المتعبة . وانتبهت هي على نفسها وقالت مرتعبة :

– يا الهي ، لا يجوز لي ان اعود الى البيت بدون الحصان الصغير . هل معك سكين يا الان ؟

– نعم .

– فلنذهب بسرعة .

لم تلتفت الى مغزى سؤاله وهو يردعها ، ولم تفهمه الا بعد حين :

– خبريني ، يا ناستيونا ، الم يقتل احد من ابناء القرية منذ ان ظهرت انا هنا ؟ الم تصل اشعارات بالوفاة ؟

– منذ ان ظهرت انت ؟

– نعم .

– لا اعتقد . كلا ، لم تصل . آخر اشعار وصل في الخريف بخصوص لولوديا سوموف .

– عجيب .

كان يبحث لنفسه عن جريرة اصغر . فراحت ناستيونا تفكر : لماذا ؟ ولاي غرض ؟ الاجل نفسه فقط ، ام انه يفكر بشيء آخر ؟

١٩

بعد بضعة ايام جاءته ناستيونا من جديد ، مستخدمة حيله المرة فاريهم الذى انزله ميخيتش الى الماء فى آخر المطاف . بينما المطر يتساقط منذ الصباح رذاذا باردا غزيرا ، فتوقف العمل فى الحقول . ارادت ناستيونا ان تحرث بستانها الذى لم يفلحوا فيه حتى الآن سوى تمهيد التربة للخيار ، ولكن المطر حال دون ذلك ايضا ، فتبللت دون جدوى وتعكر مزاجها . وكيلا يضيع النهار كله جزافا عزمت على الذهاب اليه لتسلمه الكلة التى حصلت عليها بشق الانفس ، ولتحمل اليه لفيفة التبغ المستخدم فى طرد البرغش والبعوض ، ولتزيل عن روحها قيدا من قيود الكآبة . فرحت لعدم وجود ميخيتش فى المنزل فلا داعى للايضاحات ، وزعمت لسيميونوفنا بانها ذاهبة لصيد السمك . فسيميونوفنا متذمرة طوال الوقت : «الجميع يصيدون السمك ، اما نحن فلم نر ذيل سمكة من اغارا فى هذا الموسم» . وقالت ناستيونا انها «ذاهبة» دون ان توضح هل ستستخدم القارب ام لا . فهذه الكلمة تحتمل المعنيين . ولم يتسن الوقت لسيميونوفنا كى تجيب ، لم تتمكن لا من منعها ولا من السماح لها . فقد انصرفت ناستيونا على عجل وتوجهت الى النهر بخطى متسارعة . الجذافان فى مدخل الحمام ، وهناك ايضا عدتان لديمتان لصيد السمك ملفوفتان على عودين خشبيين . اخذتها ناستيونا وهبطت بسرعة الى الماء ودفعت القارب . وبدلا من ان تتجه الى اعلى راحت تجلف بشدة دافعة القارب الى الاسفل مع التيار . وبعد خمس دقائق ، عندما اختفت القرية عن الانظار وراء حجاب المطر الضبابى المتزجزج ، استدارت بالقارب فى عرض النهر .

ظل المطر يتساقط بهمس متفم مكتوم وهو ينثرز فى ماء النهر الذى بدا بلون الفولاذ الرصاصى الكابى . ولاحت الجزيرة عالية مرتفعة كانها سحابة منخفضة او بقعة وسخة . وكانت الماء عالية هى الاخرى ، ولعل من الافضل القول بانها لم تكن موجودة اطلاقا . فقد انزلقت الى مكان مجهول ، كما تنزلق الشمس ، وحلت محلها عتمة الغسق . تذكرت ناستيونا انها كانت تسير هنا فوق الجليد وسط العاصفة الثلجية الشديدة الرطبة فى آذار . الزمن يمر ، اما

هي فلا يتغير شيء في حياتها . انها تبحث في الشتاء والصيف عن الاحوال الجوية السيئة لكي تصل الى نفس المكان ولنفس الغرض . انها ترتدي مشمعا فوق البلوز ، ولكنه مشمع محكوك من زمان ولا يحميها من المطر . فالماء يسيل على ظهرها بعد ان يتجمع ويتدفأ . وهي تشعر بالتقزز من مسيلاته الدافئة . وعلى لوحي الكتفين التصق البلوز المبلل بالجلد ، فأثار تقززها ايضا . وهي تحرك ظهرها بين الحين والآخر ، وتحكه بقطبة الجبين ، ليضطرب جلدها .

عبرت نهر انذارا وبحثت عن الجدول حتى عثرت عليه وادخلت القارب فيه ودفعته مسافة بعيدة الى اعلاه وتركته تحت شجرة بتولا باسلة حانية على الجدول ، بحيث تستر القارب عن الانظار وتحميه من فائض الامطار . اخذت معها لفة صيد وتركت اللفة الثانية في القارب . وعندما نزلت الى الشاطئ لتفقد الصفداء ، فقد وصلت ، وخيل اليها انها وصلت بلمح البصر . ولكنها اخذت معها اللفة لانها تعرف ان عليها ان تعود فيما بعد . فقد انقلبت الامور لديها رأسا على عقب . لا يجد الانسان صعوبة في العودة حسب آثاره ، فالصعوبة في السير الى الامام . اما هنا فبالعكس . هل يتمكن انذرى من العودة الى حيث اتلف حياته ؟ وهل تتمكن هي ، ناستيونا ، ان تعود الى ما كانت عليه قبل ستة شهور ؟ كم ستكون عسيرة عليها العودة في النهر اليوم . فان انذارا نفسه سيبدو لها اعرض بخمس مرات ، وسيبدو لها المجذافان اثقل من ذي قبل ، كما ستبدو لها نفس المياه اكثر صقعا ورعبا . ماذا لو رفضت العودة وظلت هنا في المكان اللائق بها ومع الشخص الذي يجب ان تبقى معه كيلا تتظاهر وتمثل وتخادع وتكذب ، وكي تعيش بحرية وطلاقة على سجيتها .

هبطت الى النهر من جديد وفكت اللفة على الشاطئ الصخري حيث المجرى سريع مستقيم . الآن بالذات موسم الصيد بهذه الصنة . فبعد اسبوع او اسبوعين عندما يغدو ماء النهر دفئا وياخذ حرارة الطبيعي لن تصلح للصيد . في العام الماضي تمكنت ناستيونا ، بعد ذوبان الجليد ، من صيد السمك مرارا على شاطئهم ، فعادت الى البيت ببنيات وبوريات . ميليتشي ، شأنه شأن سائر الشيوخ ، لا يعترف الا بالسلال المخروطية وسيلة لصيد السمك ، ولهذا

اصرف من الانواع الاخرى لصيده . اما هي ، ناستيونا ، فتكفيها اليوم سمكة واحدة ، اصغر بنية لفز الرماد في العيون . فالامر الاهم هو وجود عذر تحتج به ، وليس مهما اذا كانوا سيصدقون به ام لا . فكل شيء يسير الى نهايته في جميع الاحوال . نبشت ناستيونا التربة الذائبة وقلبت الجذوع المرمية على الشاطئ الترابي الاسود الذي برزت من تحته جذور الانجار فعثرت على ديدان شكتها على الصنارات والقت بالعدة الى الماء بنقل الحجر الذي شدتها اليه . يا الهي ، ابعث لي باسماك كبيرة وصغيرة . عندما اصرفت ناستيونا فكرت بانها اذا لم تصطد ولا سمكة واحدة يتعين عليها ان لا تنتزع بقايا الطعم من الصنارات ليكون ذلك شاهدا على انها مارست صيد السمك حقا ، ولم تنشغل بعمل آخر . فان خيال ميخينتش يمكن ان يتصور اي شيء .

ظل المطر يتساقط سلا رتيبا . وخيل لناستيونا انها تسمع همسيس سقوطه على الارض وكانه انين متلاحق . كانت الاعشاب الرفيعة الياسة تتلألأ بحبات ، وعلى الاشجار ترتعش الاوراق مرتجفة ، وعلى النهر خيم ضباب مطبق بليل كما في الخريف . تسلسلت السماء وتموجت ، او خيل لها انها تسلسلت وتموجت امام العينين اللتين لا تطيقان الدراع . لم تكن ناستيونا قد رات الكوخ العلوي فسارت على غير هدى . سارت في البداية على حافة الشاطئ في درب عتيق مهجور دلت عليه رقعات طولية عارية وسط الاعشاب ، ثم استمارت نحو السفح . كانت تتصور بانها ستعثر في المحال على الاماكن التي عمل الناس فيها سابقا . بيد ان الفسحات كثيرة على السفح ، ولم يكن واضحا هل هي فسحات دائمية ام هي حقول مهجورة ؟ سارت من فسحة الى اخرى ، ومن هذه الى ثالثة ، وهي تصعد الى اعلى ، ومع ذلك لم تر الكوخ . مجال الرؤية في المطر ليس بعيدا ، فهامت على وجهها امدا طويلا قبل ان تعثر على نبع وتسير في مجراه هابطة حتى رات امامها مباشرة ، وراء غابة الحور المتخلخلة ، سطح الكوخ الاسود المتهرئ من الامطار والزمن . وكما في المرة السابقة طرقت ناستيونا على النافذة وصاحت في المحال كي يعرف انثوى صوتها ولا يرتعب . هرع اليها هذه المرة ايضا وادخلها الكوخ وساعدها في خلع ملابسها المبللة . بيد ان

الحديث اليوم سار على غير ما سار عليه في اللقاء الاخير عندما جاءته ناستيونا بعد انقطاع طويل وتلاقيا على الشاطئ .

ناستيونا هي المذنبة في ذلك . فعندما استمعت الى اندري انسافت له وصدقت بان كل شيء هو بالفعل كما يقول وانه ليس لديهما الآن اي مخرج آخر غير اختباله هنا وسكوتهما هناك - سكوتها بلسان مصطكة ، حيث تخترق هي الايام ، كما تخترق صخورا صنتة ، نحو مخرج غامض مجهول قد يؤدي الى الخلاص . ولكنها حالما تظل لوحدها ينتابها اليأس والقنوط ويعز في فؤادها الم فظيع : فماذا يفعلان ؟ ماذا يفعلان وبماذا يأملان ؟ فالحقيقة لا بد وان تظهر ، وليست هناك قوة بقادرة على حجبها . ستتهشم عبر الصخور في اعماق واسرع بقعة وسط نهر انغارا وستظهر من الماء شجرة ناطقة . اليس من الافضل لاندري ان يغادر مخبأه ويسلم نفسه ؟ المزمنون يعتقدون بان الساء تفرح لتائب واحد اكثر مما تفرح لعشرة عباد صالحين . والناس لا بد وان يفهموا ان الذي انحدر الى منزلق هذه الخطيئة لا يصلح لاقتراف الخطيئة فيما بعد . عندما رات من جديد وجه اندري المتهدل الاشعث لحد القبح وكأنه مكسو بالطحالب ، وعينيه الغائرتين الحادتين المعذبتين بالآلام ، وقامته المحدودبة المرتابة ، وملابسه الرثة ، ووجدت نفسها ، بعد المطر ، في كوخ معتم رطب يملؤه الهواء الفاسد الخانق برائحته المرة - عندما رات ذلك وتحسسته اخترق كيانها كله الم جديد . وسألته دون ان تتمكن من اخفاء انفعالها :

- الا تغفى الكوخ ؟

- لا يوجد فيه فرن للتدفئة - اجاب بطرز بعد ان شعر بتغير مزاجها .

وقالت ناستيونا بكآبة مريرة جعلت عروق دماغها تغلي وتثور واحالت بدنها الى كيان خاو تصفر فيه الريح :

- اندري ، اليس من الافضل ان ننهي هذه الاوضاع ونخرج الى العالم ؟ انا مستعدة للذهاب معك الى اي مكان حتى الى الاشغال الشاقة . فاينما نذهب اذهب . انني لا استطيع ان اعيش على هذه الصورة بعد الآن . وانت ايضا لا تستطيع . تطلع الى نفسك . باي

حال انت ؟ وكيف تبدلت ؟ من قال لك بانهم يعذبونك رميا بالرصاص ؟ الحرب انتهت . . . وفي كل بيت عائم . . .

تكلمت على عجل ولاحظت كيف يبتعد عنها وجه اندري ويكسى بابتسامة شريرة جامدة مستغربة . وقال :

– تريدين ان تتخلصي مني ، آ ؟ هيا ، واصلي مساعيك .

– اندري ! – خاطبته مرتعبة .

– ستتخلصين ، يا ناستيونا – واصل كلامه وهو يقلب صوته ويحوره ويضفي عليه مسحة من التهدلة والنزاسة – بالطبع ، تعبت ، فكم يمكنك ان تتحملي ؟ أليس عندي ضمير ؟ على ان افهم ذلك بنفسي . ستتخلصين ، يا ناستيونا ، ولكن ليس بالشكل الذي تعدين له . تقولين انك مستعدة للذهاب معي ؟ – قال بمزيد من السخرية فقدا صوته القوي : – انت تعرفين بانهم لن يوقفوك بجواري امام جدار الاعدام . سيعطفون عليك . اما علي فلا . سيعطفون عليك بسبب بطنك على الاقل . وستذهبين ، يا عزيزتي ، لوحدك وتريحين ضميرك . فما اروع ذلك .

– كفاك هذرا يا اندري ، اسكت . كيف لا تشعر بالخجل لمثل هذا الكلام ؟

– ساخلصك ، يا ناستيونا ، مني بنفسي . قريبا ، قريبا جدا ، ولن يطول انتظارك . فانا لا انوي تعذيبك بهذه الصورة طوال حياتك . انني مستعد للقيام بذلك ولو غدا ، بل وحتى الآن . ها هو النهر ، ولن تكون هناك حاجة للدفن . لدي حبل محلوك . ذهبت الى الطاحونة قبل ذوبان الجليد واخذت حبلا متينا منها يتحمل خمسة اشخاص . سافلت من قاربك ، وسترين باني سافطلس ولن اعوم . ستعبرين النهر من كل بد ، وبوسعك ان توصليني ، وساساعدك في الجذف الى منتصف الطريق .

ضغطت ناستيونا يديها على صدرها وكأنها تحمي نفسها وهزت راسها كيلا تسمع كلامه ولا تفهمه ، وراحت تستطلعه :

– لماذا تعذبني ؟ لماذا ؟ ما الذي فعلته لك ؟ كنت افكر في الافضل . . . فانا لا اريد اقناعك ، انني لست واثقة . قلت ما خطر ببالي لا غير . اما انت ، فماذا تقول ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

– لا داعي لاقناعي ، فانا اعرف بنفسي . قلت لك منذ اليوم

الاول : كلا . ولن تدعيني الى التراجع عن قراري . فلا تحاولي . لن تنجحي ! – صاح بها ولم يعد يتمالك اعصابه وانهال عليها بحفنة جملها تتصفق مبهوتة . – ما اطيبك ! تريدين الافضل . انا اعرف ما تريدين . فكرت بكيفية التخلص مني . ربما لم تنامي الليل وانت تفكرين بذلك . فتوصلت الى حل لا افضل منه . واحضرت الكلة كيلا يلسعني البعوض عندما يليدون يدي ورجل . لست بحاجة الى كلتك . ولست بحاجة الى شيء بعد الآن . فقد ارحلت تلك الحاجيات . كفاية . يجب ان ترتاحي . ولا تحضري هنا بعد الآن . فلن تجديني . حقا . صرت عالة على هذه المراة . عبثا كليلا عمل رغبتها ! ولكن تذكري مرة اخرى : اذا اخبرت احدا باني كنت هنا ساجعلك تندمين مهما كلف الثمن . سافوم من القبر واطالبك . تذكري . يا ناستهونا .

خطت نحوه في محاولة لوقفه وتهدئته . فلوى عنقه في الحال وانطبع على وجهه قناع متقزز وقاس راسه بين كتفيه . وطلبت منه باصرار ضعيف :

– انظر الي يا اندري . انظر . كلا . انظر ولا تلو وجهك . انظر وقل لي : هل اشبه تلك التي تحدثت عنها ؟ سامحك الله . يا اندري . على ما ابتدعته . قل لي : هل اشبهها ؟

– ماذا ؟ هل علي ان اعتذر منك ؟ واركع عند قدميك طالب الصفح والغفران ؟ ام ماذا تريدين مني ان افعل ؟

– لا داعي للاعتذار . وانا نفسي مستعدة للركوع كيلا تتكلم بهذه الصورة . لا تصدق نفسك. لا تصدق ما قلت . ولا تخدع نفسك . كيف تتصور باني استطيع ان افعل ما لا تريده انت ؟ كيف تتصور يا اندري ؟ لا داعي لذلك . لا داعي . . . انظر الي جيدا . فهل انا كالتي تحدثت عنها ؟ هل من المعقول انك لا ترى ؟

وعطست على شفتها . دون ان تحيد ببصرها عنه . كيلا تتعب . وارتعشت من العبرات المتدفقة التي اختنقت بها وهي تحاول حبسها بكل قواها .

وتعتم هو مشيحا بوجهه المتحير ومسلطا على كل ما حواليه جلدا اسود اعمى :

– لا تصدق نفسك . وصدقها هي . . . عظيم !

ثم لاذا بالصمت امدا طويلا . نهضت ناستيونا كي تنصرف ، اما هو فلم يتزحزح من مكانه . ظل واقفا دون ان يودعها .

صبرت فترة قصيرة : ثلاثة ايام لا غير . وانتهزت اول فرصة سانحة فطلعت القارب الى الماء دون ان تخبر احدا . لم يعد يهمها ان تبقى مع المجهول فلا تعلم بما اذا كان حيا ، موجودا هناك ، ام لا وعندما طرقت على النافذة ليلا ، في الظلام ، وخرج من الكوخ ووقعت عليه عيناها هرعت اليه وعانقته وهي تكاد تطير من الفرح لرؤيته هنا ، حيا ، دون ان تحمل عليه لحيظا . حنا عليها وكاد يبكي للقاء واعرب عن اسفه الشديد وقال انه احمق ورجاها الا تزعل منه ولا تصدق بما قال ، واكد بانه صمم على ان يسرق قاربا ، لو لم تات هي ، ويتعلقها لكي يطلب العفو منها . ذاب فؤاد ناستيونا لكل هذه الاقوال ورفت عواطفهـــا ولم تعد تسيطر على خلجات نفسها فوعدته :

— اعلم بانك اذا انتحرت ، سانتحر انا ايضا .

٣٠

ثم تلاحقت الاحداث وكانها تندحرج من سفح جبل ، من سفح شديد الانحدار .

سخنت ناستيونا الحمام يوم السبت وواربت بابه ، ثم ذهبت لتستحم قبل الآخرين لعلمها بان سيميونوفنا لا تحب البخار الشديد في اول التسخين . ولكنها حالما بدات تغسل راسهـــا بالصابون (كانت ليزا فولوخجين قد حصلت عليه فاعطتهم نصف صابونـــة سوداء) جاء شخص ما وراح يخلع ملابسه في مدخل الحمام . توقفت ناستيونا عن الغسيل لتسترق السمع . فبلغها لهاث حماتها . اسرعت ناستيونا لتغسل رغو الصابون عن راسها كي تتراءى الحمام حالما تدخله سيميونوفنا وتدعي بانها اغتسلت . لكنها عدلت عن رايها . فما دامت حماتها قد جاءت لوحدها فهي لن تسمح لها بالانصراف . كلا ، لا بد مما ليس منه بد . ما اسوا الحظ الذي جعل العجوز تاتي الآن . فيما لم تستحما معا ولا مرة واحدة . جاءت عمدا وكانها تعلم بان احدا هنا لا ينتظرها ولا يريد رؤيتها . من يدري ؟ ربما

جاءت عمدا بالفعل . لعلها تعرف الطبيعة . وربما والدتها سبقا وقررت ان تتثبت من القضية . واذا كان الامر كذلك فستتفجر الفضيحة . انزوت ناستيونا في الركن وتسترت بالطست وحاولت سحب بطنها الى الداخل . ولكن الى اين تسحبه اذا كان متهدلا . واين تخبئه اذا كان موجودا ؟ كلا ، فهو بارز ، ظاهر للعيان ، ولا جدوى من المحاولة .

الا ان الامور مرت بسلام ، ويا للعجب ، هذه المرة . فلعل سيميونوفنا لم تلاحظ شيئا ، او لعلها لاحظت ولم تصدق فنسبت سمنة كنتها الى سبب آخر . ومع ذلك حطت نظرتها العنيدة اليرقانة على ناستيونا مرتين او ثلاثا اثناء الاستحمام ، وعند ذاك سحبت ناستيونا بطنها وانكمشت بكل ما تستطيع حتى اصطك فكاها . وفيما بعد ، عندما ارتدت ملابسها وخرجت ، شعرت بالاسف : ما الداعي لاخفاء ذلك ؟ الوقت مناسب تماما لتفعل العكس ، لتعرض ما لديها . واذا سألتها سيميونوفنا لتخبرها بالحقيقة . ولعل من الافضل ان تسمع الحماة بالنبأ منها ، من ناستيونا ، وليس من الغرباء . من يدري ؟ لعله لا تصب الماء المغلي على ناستيونا اذا سمعت بالنبأ . اما اذا اكتفت بالصراخ والهياج فذلك الفعل بالطبع . وسوف تتخلص ناستيونا اخيرا من هذا التوقع المتواصل ومن هذا الخوف الذي لا يطاق والذي يشتد ويتعدد اكثر فاكثر بمر الزمن .

الا ان قصة الحمام لم تمر دون اثر بالنسبة لناستيونا . فلقد صارت سيميونوفنا منذ ذاك ترمقها بنظرة شزراء ، بطرف عين ثالثة واحدة شبه مغمضة . ناستيونا تعرف ان هذه النظرة لا تبشر باي خير ، وهي تعني بالتاكيد ان العجوز احست بشيء . وبدأت مطاردة حقيقية . فالحماة تنهض في اليوم الواحد عشرين مرة ولم تعد تختلس النظر ، بل تسلط نظرات مباشرة على الجهة المقصودة . ولكن ناستيونا تتلقى : تارة تنسل على جنبها ، وتارة تسير منطوية بطنها بيديها او مرتدية سترة اندرى الفضفاضة ، وتارة تنحني داقعة بصدرها الى الامام . لما بطنها فاخذ يرتفع في الآونة الاخيرة كالعجين المختمر ، ولا تجدي اية حيلة في اخفائه .

ذات مساء ، انفردت سيميونوفنا بناستيونا ، وكانت كل منهما مشغولة بشؤونها : ناستيونا بشؤون الحوش وسيميونوفنا بشؤون

داخل المنزل . تظاهرت الحماة بانها ترى بطن ناستيونا لاول مرة وسالتها صراحة :

– هل انت حبلى يا امراة ؟ لماذا تهمل بطنك ؟

كاد قلب ناستيونا ينفطر : دقت الساعة . تلك هى العتبة امام طريق العذاب ، فاجتازيها ، يا ناستيونا . لم يعد هناك مجال للانكار والتستر . اجابت ناستيونا بنفس الكلمة بعد ان قلبتها على صفحتها السلبية الاخرى :

– حبلى .

– و . . ا . . ه ! – هتفت سيميونوفنا بدهشة ، بل وبشىء من السرور لان الشكوك لم تراودها عبثا ، ثم نهضت فجاة على قدميها المرتعشتين وصرخت بهياج مسعور مختنق ، وظلت طويلا عاجزة عن تلفظ اية كلمة . وراح راسها يهتز . ثم تمكنت اخيرا من تلفظ كلمة «كلبة» على نحو قاطع لم تفهمه ناستيونا فى الحال . فان حماتها لم تستخدم الضمائر فى الماضى مطلقا . واخذت تزلزل مسكة براسها :

– اوى ، اوى ! يا عيب الشؤم ، اوى ! يا الهى ! يا مريم العذراء ! عاقبيها ، عاقبيها فى الحال . خانته ! لم تنتظره ! تعيش عندنا عادلة ، الكلبة بنت الكلب ! ضيافى اندرى ، وتسيجلجا ، هذه الكلبة ، حبلى . . . الا تخجلين ؟ اين حشمتك ؟ ماذا فعلت بها ؟ ادعو الله ان تنمو الديدان فى بطنك ! وان يبقيك حبلى الى الابد ! فما احسن ذلك ، ما احسنه ! – ارتعبت سيميونوفنا نفسها من لعناتها ، فتوقفت ولعصت بريقها ، ثم سالت بامل اخير : – الا تكذبين ؟ ربما لا يوجد شىء ؟

– موجود . – قالت ناستيونا بعجز قليل وهى تعلم ان الجواب على نحو آخر غير ممكن ، وابرزت بطنها عاريا الى الامام .

– موجود – تلفظت سيميونوفنا بانين – تقولين موجود وكانما ذلك شىء عادى . ولن تخنقى بالعار . ابدا . انت قطة ؟ انت قطة دنيئة فاجرة ؟ – عثرت على كلمة جديدة وصاحت بها كما تصيح على القطة وهى تشير بيدها الى الباب : – كش ! اتركى المنزل يا فاجرة ! اذهبى كيلا تبقى رائحتك النتنة . اخرجى فورا . اذهبى من اين جئت . واذا وشل اندرى ماذا ستقول له ؟ من اوريتا ؟ ومن

اطعنا فجلب علينا العار ؟ يا الهي ! ستحرق القرية كلها . ستحرق القرية . عرفت سعدنك من اول يوم . عرفت من انت في الحال . ذهبت وعدت لنا بهذا ! اخرجي والا طردتك بهذا السلفط . اذهبي كيلا يبقى اثر من رائحتك هنا .

خرجت ناستيونا خالية الوفاض . وعند المدخل التقطت دلوا كانت قد جلبت فيه الماء للعجل ونسيته على درجة المدخل بسبب الاستعجال ثم وضعته في مكانه على الحصطبة . وظلت اللعنات تدوي وتتطاير من المنزل . وقفت ناستيونا وكأنها لا تفهم ولا تصدق بان تلك اللعنات موجهة اليها وبانهم طردوها من المنزل فعلا ، ثم فتحت بوابة السياج مترددة ومتباطئة وهي تنتظر شيئا ما . كان الصبية يلعبون في الساحة القريبة لعبة الاوتاد ويهتفون رودكا . سألته ناستيونا عما اذا كانت امه في البيت ام لا ، فاجابها بانها في البيت على ما يعتقد . فتوجهت ناستيونا الى نادكا ، فليس لديها من تذهب اليه غيرها .

لم تشعر بالغيظ على سيميونوفنا . حقا ، لما العاقل للغيظ ؟ ذلك امر متوقع . ولكن ناستيونا كانت حتى اللحظة الاخيرة تعتقد بان الحقيقة يجب ان تظهر بشكل ما وتحميها من هذا الجور ما دامت ليست مذنبة في شيء . لم تكن تبحث عن الحق — فليس من السكن الآن التفريق بين الحق والباطل ، ثم انها من زمان تاهت بينهما — ولكنها كانت تنتظر ادنى مشاطرة من حماتها ، وكانت تتوقع منها ان تدرك بحدس وحدس ان الطفل الذي اعلنت الحرب عليه ، ليس غريبا عليها . فهل يعقل ان دم العائلة لم يهمس في اذنها بشيء ، ولم ينبض في فؤادها نبضة متحركة حساسة ؟ فكيف يمكن التعويل على الآخرين اذن ؟ ما هو العمل الذي اختزن طويلا واستنزف صبرها وقواها ينفجر في الاخير ، وليس لديها ما تغطي به جرحها . فهل يساعدها في ذلك التأمها لنفسها وتعليلها البسيط بضرورة تحمل كل شيء من اجل ما سيتحقق فيما بعد ؟ وماذا يمكن ان يتحقق فيما بعد مما يستحق التحمل ؟ كلا . لا يمكن توقع اي خير ، مطلقا .

ظل قلب ناستيونا مخطوفا غائرا يبعث نبضات ضعيفة من الاعماق . ولعلها صارت تكتفي بالقلب الذي ينبض في صدر

جنينها . فهي لم تعد مهتمة بنفسها اطلاقا . وما يعنيها الآن هو انقاذ الطفل وحمايته من الآلام التي انهالت عليها ، وحمله سليما معافى حتى ذلك اليوم الذي يتعين عليه ان يخرج فيه الى العالم . فلقد يعطف الناس عليه عندما يرونه ، عندما يتسنى لهم ان يروه بالفعل ، فلا يطردونه كما طردوها الآن من بيتها الذي لحما عزيزا عليها بعد ان عاشت فيه ثماني سنين . انها ليست مثالية لهذه النتيجة ، كلا ، ابدا . انها تشعر بالخجل لا اكثر ، وبالخجل ليس من اجل نفسها ، فهي تعرف دربها وقد تعودت عليه ، بل لان ذلك حدث ولانه بلغ حدا جعلها تطلب من الناس ايواءها لتبيت ليلتها . وليس بوسعها ان ترحل فهي مقيدة بقيد مزدوج من اليدين والرجلين ، وليست هناك جهة يمكن ان ترحل اليها . انها وحيدة ، وحيدة تماما .

جاءت الى نادكا واسندت يدها المرهق الى ضلع الباب دون ان تجرؤ على الدخول ما لم توافق نادكا . من يدري ؟ ربما ترفض هي الاخرى ايواءها . من اللازم الآن مرحلة كل شخص من جديد : فحالما يتزحزح المرء من مكانه الذي تعود الآخرون على رؤيته فيه ، تتغير كل المواقف ازاءه ويبدو الناس مستعدين لاطلاق اسم جديد عليه . سألتها نادكا المنهمكة بتسخين الفرن :

– ماذا بك ؟ تعبانة ؟

– هل تسمحين لي بالعيش عندك فترة ؟ – بدأت ناستيونا فورا وهي عاجزة عن اطالة امد الحديث او الاستمداد له .

– لمن ؟ لك ؟

– لي .

تطلعت اليها نادكا باهتمام بعد ان صمت برفلي طليها :

– ماذا حدث ؟

– طردوني .

– طردوك انت ؟

اشارت ناستيونا الى بطنها :

– الا ترين ؟

– ما . . . ذا . . . ا . . . ا ؟ – قالت نادكا باستغراب شديد : – حقا ؟ من اين لك ؟ تعمل ، تعمل – هرعت اليها نادكا

واجلستها على التخت ، وظلت واقفة امامها منحنية عليها – عجيب . ماذا يجرى فى العالم الآن ؟ يبدو انك حبل حقا . ولا احد يدرى . . من اين لك ؟ كيف لجرات ؟ نبأ مثير جدا . سوف يذيع صيتك فى كل الانحاء . من الذى فعل ذلك بك ؟

– الروح القدس . – ناستيونا مستعدة للتضحية باى شىء كيلا يسألوها ولا يعذبوها ولا ينهشوها ، كى يتركوها وشأنها . لقد ملت الى حد الغثيان .

– الروح القدس بالطبع – حاولت نادكا لن تجد مدخلا الى صلب الموضوع – ولكن معرفته تثير الاهتمام . واذا كان سرا فلا داعى لافشائه طبعا . لم يكن هناك ولا رجل واحد على ما اعتقد . فمن اين جاء ؟ كلا ، حدثينى راسا بدون لف ودوران . فلربما اريد انا ايضا ان اجرب هذا الروح القدس .

– لن تلحظى به يا نادكا . – صمتت ناستيونا على الاقصاح عارفة بانها لن تحتاج بعد الآن الى ان توضح شيئا للآخرين ، اذ يكفى ان توضح لنادكا وحدها . كانت تشعر بالتقزز ، ولكن ليس فى الامر حيلة ، عليها ان تقول شيئا ما . فليست تلك هى المرة الاولى التى تتحمل فيها الخطيئة ، ويبدو انها ليست المرة الاخيرة . – هل تتذكرين المقوض الذى جاءنا وجمع الاكتاب على السندات ؟

– ثم ماذا ؟

– كيف تسألين : ثم ماذا ؟ – قالت ناستيونا بغيظ – ربطنا الحصان بالزحافة وانطلقنا و. . . عدت به . فهل تلك قضية صعبة على الذين يجيدونها .

– ليست صعبة ، اطلاقا ، انا اعرف ذلك – واقلتها نادكا على عجل – الحصاب تاتى فيما بعد . ما اقربك ، يا ناستيونا ! كنت تتظاهرين دوما بالحياء ، وتتورد خدودك من ذكر هذه الاشياء . ها هى السنجبة . ماذا ستفعلين فيما بعد ؟ واذا جاء اندرى ؟ سيقتلك حتما .

– فليكن . لماذا تسالينني : ماذا وماذا ؟ من اين لى ان اعرف ؟ الافضل ان تخبرينى هل استطيع ان ابقى عندك لبعض الوقت ؟ هل تسمحين لم لا ؟

– تستطيعين بالطبع . قال اين تذهبين ؟ سندافع معـــا لذا الشق الامر . العجوز لن تراك بعالك طبعا . فكل عظامهـــا الآن تطلق حقدا عليك . لقمت لها حطبا – لم تصبر نادكا فالهامـــت ساخرة – كانت تتمايك بنظراتها . ولكن هل يمكن تصيد المراة ؟ ان المراة تستطيع ان تخدع حتى نفسها ، فكيف بالآخرين ؟ لـم يكن يوسع احد ان يشك بك . ماذا جرى لك يا ناستيونا ؟ تلـك مجازفة خطيرة . سنتولين الامرين . ولكن لا باس ، سنتجـــرع المصيبة معا . فانا متعودة . ماذا ؟ هل جئت بلا حاجيات ؟ الـــم تاخذي شيئا ؟ هل تريدين ان اذهب واحضر حاجياتك ؟

– لا داعي لذلك ، سأذهب بنفسي لبعا بعد .

– بنفسك ؟ لقد فعلت بنفسك ما فعلت . لا تحزني ، فلن يحدث لك شيء . ليس ذلك هو الفظع ما في الوجود . فمن قديـم الزمان صادف ان عاشت الكلاب مع الذئـــاب . سنعيش على اي حال . والا فما قيمة المراة اذا كانت امراة بالاسم فقط ؟ فليولد الطفل ، وسنرى . ولكن ما اسمه ؟

– من ؟

– من . . . من غيره ؟ ذاك الذي اكتبت عنده على السندات . يبدو انه رجل محنك . هل سالتيه عن اسمه على الاقل ؟

– كلا .

– لم تسالي عن اسمه ؟ حمقاء انت يا ناستيونا . فكيـــف تلدين طفلا ولا تعرفين لسم ابيه ؟ تلك هي نتيجة قلة التجربة . يجب ان يسجل اسم الاب في شهادة الميلاد . ولا بد ان يسالوك عنه . ولكن لا باس ، سنبتدع اسما . وسنختار له الفضل اسم الافضل اب ما دام الوقت كافيا .

تاوهت نادكا من جديد وانسلت من الباب . ستعرف القرية بالنبا على اي حال . فكيف تفوت فرصة الزيادة في اشاعته ؟ ظلت ناستيونا لوحدها ، وانكفات على النفث والمطت عينيها واخـــذ بكفالها الم حارق شديد . كان بودها ان تبكي وتنتحب ما شاء لها ان تنتحب كي تنفث من الداخل هذا الالم الفظيـــع الذي لا يطاق والذي اجتاح بدنها كله الآن . لكنها خشيت من ان تؤذي الصوع الجنين . فراحت تتقلب على النفث لمدة طويلا بانين مستديم على

نفس واحد ، فتنهض قليلا ثم تلح من جديد ، ولم تشعر روحها المعذبة بلمحة من الارتياح والهدوء والاستقرار .

في آخر المساء جاء ميخيتش ودعا ناستيونا ، عن طريق رودكا ، للخروج الى الحوش . جلس ميخيتش على جذع نهشه حد الفاس دون تشذيب ، وظلت ناستيونا واقفة امامه . فمعاها لا تقويان على حملها ، ولكنها لا تتمكن من الجلوس ، فهي في وضعية الوقوف تستطيع ان تتحرك على الاقل ، اما الركوع فينقل عليها . حشا ميخيتش غليونه باصابعه المعوجة المرتجفة واشعله . لم يحصل على النار من الفداحة في الحال . شرق بالدخان وانتابه السعال . فاشاح بوجهه ومال الى الارض واشتد عليه السعال حتى كاد يمزق نياط قلبه . ولم يلتقط انفاسه الا بعد فترة . ظلت ناستيونا تنتظر . فاخذ ميخيتش قسطا من الراحة وسحب عدة انفاس حملت له الهدوء ورفع عينيه المدمعتين نحو ناستيونا وقال مستطلعا مرحبا :

– انه موجود هنا يا ناستيونا . لا تنكري . فانا اعرف . لا تقولي لاحد . قولي لي انا وحدي . خبريني ، يا ناستيونا ، وارحميني . فانا ابوه .

هزت ناستيونا راسها بالنفي .

– اسمحي لي بان اراه مرة واحدة . المرة الاخيرة . استطلعك من اجل المسيح ، يا ناستيونا ، اسمحي لي . لن يسامحك الله اذا اخفيت ذلك عني . . . اريد ان اسأله ما الذي يأمل فيه ؟ الم يقل لك ؟ شهدت عائلتنا امورا كثيرة ، ولكنها لم تنحدر الى هذا المستوى . . . انه سافل منحط . الى اي منحدر وصل ؟ . . خذيني اليه ، يا ناستيونا – طالبها بلهجة تقرب من التهديد – استطلعك من اجل المسيح : خذيني اليه . يجب ان اعيده طالما لم يفسد بعد كليا . انت ترين بنفسك : لم يبق مجال للعب والتمثيل . كفاية . ارحميني ، يا ناستيونا ، ساعديني . وسيكون الامر اهون عليك ايضا .

هزت راسها من جديد بعد ان فكرت وكادت تنزل عند رجائه :

– عم تتحدث يا ابتي ؟ ما الذي استطيع ان اقوله لك ؟ ليس

عندى ما اقوله . ليس هناك احد . ذلك من خيالك فقط . لا احد هناك .

– لا تكذبى يا ناستيونا – نهض ميخيتش وضرب غليونه على سانه ضربة خفيفة – على من تكذبين ؟ اردت ان ادير الامور معك بالتى هى احسن . فمن اين لك هذا البطن ؟ ا منه بالطبع . هل تعتقدين باني لا اعرفك ؟ ولا اعرف من انت ؟ يوسعك ان تقصى الحكايات والاساطير على العجوز وعلى السـذة الاغريات . وليس علىّ . والبندقية اعطيتها له . واشياء اخرى كثيرة . وهذا هو الدليل الاخير – كاد يمس بطن ناستيونا بالغليون ثم سحبه فى الحال – فلماذا ستخلين به ؟ اسالك : ماذا ستخلين به ؟

كانت تدرك بانه لا ينبغى لها ان تقول ما ستقوله . ولكنهـا لم تجد ولا تعرف ما ينبغى ان تقول . فحاولت ان تنهى الحـوار وتخلصه باسرع ما يمكن وتنصب لتهوى على التخت من جديـد . فاخرجت الورقة الرابعة السوداء الشباة زورا وبلا نزاهة :

– عشت مع ابنكم اندرى اربع سنوات ولم يحدث شىء . اما انت فتحدث عن الدليل .

تجمد ورمشت جفونه بذعر وهو يتطلع اليها ، ثم استدار وخطا خطوات متثاقلة نحو البوابة . فى تلك اللحظة مر شخص فـى الشارع على ما يبدو . فحالما فتح ميخيتش البوابة استدار عائدا ، ولكنه حمل نفسه على الخروج .

٢١

ظلت ناستيونا واقفة امدا طويلا وهى تتظاهر بالنوم منتظرة حتى تغفو نادكا والاطفال . ثم اضافت الى ذلك وقتا آخر تحملته على افتراض ان احدا لم يستطع ان يغفو فى الحال . وبعد ذلك نهضت بهدوء واخذت فستانها وصديريها وحذاءها بيدها وخرجت حافية على اطراف اصابعها . وعند جدار المدخل الاصم ارتدت ملابسها وحذاءها ووقفت مهتمة . ولكن براسى عار . على الدرجة العليا للمدخل كى تستجمع قواها وعزيمتها وتتثبت من نفسها ومن لزوم او عـدم لزوم القيام بما نوت القيام به . وفكرت : أليس من الافضل عدم

الذهاب الى ايما مكان والعودة الى الفراش والركون . وان لامسد
قصير . الى الهدوء الطبيعي المنشود ؟

الليل مرعب بعض الشيء — سكون كئيب مطبق وظلمة حالكة لا يشقها بصيص . في الليلة الماضية تساقط المطر . وفي الصباح هطل على فترات متقطعة بقطرات كبيرة متناثرة . وكان الريح قد كنست آخر ما تبقى على الغيوم . كما على الاشجار . وكف المطر عن الهطول ليما بعد وظل النهار ملفعا . دون جدوى . بحجاب ضبابي كثيف شرير بدا الآن اقوى واشد مما كان عليه في الامس . لم تكن المباني مرئية تقريبا في الظلام الدامس . فتعين على ناستيونا ان تحدق في الظلام وتتعب عينيها لكي ترى اقرب المنازل بشق الانفس . بل ولعلها لا تراها وانما تتحسسها من بعد في مواقعها المعتادة . تدلت السماء الثقيلة على ارتفاع واطيء جدا حتى خمرت ناستيونا برطوبتها الباردة التي تختلف عن رطوبة الارض . وبتحرك الهواء على نحو دائري غريب . تلك الليلة افضل ليلة للاختفاء لو لم تكن ناستيونا تخشى الظلام الدامس الشرير الذي لاح هناك . على نهر انغارا . بشكل القلع .

كانت قد فوت التوجه الى النهر حالما ظهرت على المدخل . فهي ، في الليالي وفي الطقس السيء تتخلى عن امين الناس ، وتعرف من زمان طريقا واحدا فقط . راحت تنقل قدميها بخطوات حذرة متقاربة كيلا تعثر بشيء ما يعترض طريقها ولا تقع على الارض . فسارت عبر مربط الماشية الى الحمام الذي كانت . فيما ثلاثة ايام . تعتبره حماما . واخفت من مدخله مجذافي الطافية ورمحا . ولم تمس مجذاف المؤخرة . فهي لا تجيد استخدامه . والآن ، حيث لا تعيش عند آل غوسكوف . بدا لها استخدام قارب ميخيتش بدون سماح منه بمثابة سرقة . ولكن ليس لدى ناستيونا مخرج آخر . فهل تأخذ قاربا من الغرباء ؟ انهم ربما يزلجون الكلاب عليها او يبتدعون ما هو اسوأ من ذلك . يكفيها ما هي فيه من متاعب . وفي مكان ما ، وسط القرية ، نبح كلب على حين غرة دون سبب واضح وكأنه تشمم خوفها . واستجاب كلب آخر لنباح الاول . فتوقفت ناستيونا مرتعبة ، وجلست قرب احد الاسيجة منتظرة حتى يهدأ الكلبان وقلبها يدق بشدة . انها اليوم تخاف من كل شيء : من الظلام

الذى كان فى الواقع عونا لها . ومن السكون الرهيب المطبق اكثر من اى وقت آخر والذى يفضح اضعف صوت فى الحال . ومن هذا النباح الذى كان فى الاغلب عارضا وناجما عن حماقة الكـــلاب الناعسة . ولذا انتهى بسرعة . انها ترى فى كل شىء تصديا وقصدا سيئا وفالا نحسا . هبطت الى ما تحت الشاطىء العالى بحذر شديد حتى كادت تزحف وتتوقف وتتسمع بعد كل خطوة . وخيل اليها ان صرير حصى الشاطىء تحت القدمين يصم الآذان . وصدر حفيف عال يصم الآذان ايضا عن القارب عندما دفعته وانغمست فيه . جلست بحذر الظهر دون حراك وتركت القارب ينساب مع التيار الى ما وراء القرية .

الظلمة هنا ، على نهر انغارا ، اقل سوادا ، اذ ينبعث لمـــع رصاصى خفى يضطرب فيه الماء ويضيع ملتويا هابطا الى اعمق . ومن فوق تلك الفضاوة الرصاصية الناعمة تنبسط خطوط كثيفة من انعكاس اضعف واحلك لا يعرف مصدره . ويخيم عليه ظلام دامس يكتنفه فى الحال . راحت عينا ناستيونا تبحثان عن جسيس العوامة البيضاء الثانية التى ساعدت الشيخ ماتفى فى نصبها . شعرت بشىء من الاطمئنان لان الجسيس موجود هنا ولم يختف او ينطفىء . بدا خرير الماء عند المدخل فى الليل مكبوتا اقل انفعالا . بيد ان حفيف التيار المرن المتواصل والمنسوب جعلى خفيف بات اكثر وضوحا . وكان النسيم فى المزيج الاخير من الليل يحوم عشوائيـــا فينتفض ويعلو قليلا ثم يهبط خائرا منهوكا . . .

حان وقت الجلد . قليل الصيف قصير رغم حلوكته . كانت ناستيونا فى بادىء الامر تأمل باعادة القارب قبـــل انبلاج الفجر ، ولكنها تدرك الآن ان ذلك غير ممكن . فقد صرفت وقتا طويلا وهى راقدة فى الفراش وجالسة على درجة المدخل ، كما تصرم الوقت فى احضار البطانيين خلسة وفى انسياب القارب مع التيار . فالوقت لا ينتظر . حبذا لو تمكنت من العودة مع الفجر . ولكن قبـــل ان ينهض الناس من النوم ويتوجهوا الى النهر ، كيلا ترسو بقاربها على مرأى منهم ولا تعطيهم حجة اضافية للاقاويل . ولعلها تستخـــدم القارب للمرة الاخيرة ، فقد لا تحتاج اليه فى المستقبـــل . اذ لا يجوز التمادى فى امتحان الاقدار . كفاية . يبدو انهـــا ، حـــى

ناستيونا ، قد اخطات بشيء في وقت ما ، فشاهدت اكثر من اللازم . ولكن متى وبماذا ؟ ما فائدة التحري والتنقيب الآن ؟ فلن تكون لذلك جدوى . اهم ما يجب فعله الآن هو تحذير اندري والاتفاق معه . وبعد ذلك فليكن الطوفان . احست بتعب فظيع لا يطاق فارادت ان تجلس مبتعدة بالقارب ثم تطلق المجذافين وترقد فتغمض عينيها ، وليجرفها التيار حيثما يشاء ، فلن تكون الحال هناك اسوأ مما هي عليه الآن .

مرت ثلاثة ايام منذ ان طردتها سيميونوفنا من المنزل ، ولكن ناستيونا لا تريد التصديق بانها تعيش عند اناس غرباء وبانه لا يجوز لها ، كالسابق ، ان تدخل غرفتها وتستبدل ملابسها وترقد على السرير الخشبي وتداعب بطنها باستحياء قبيل النوم . عندما لم تعد بها حاجة الى اخفاء بطنها ، حيث يستطيع كل راغب ان يسلط عليه عينيه ويرتشف من سره المطبوع ما شاء كما يرتشف العسل ، اخذ يتفتت ويذوب حنانها على الجنين واحساسها المرتعش الرهيف بحياته التي تكتمل وتمتلىء ساعة بعد ساعة . لم يبق غير الخوف مما يمكن ان يحدث له . ولم يكن هينا عليها ان تتحمل طوال الوقت نظرات الآخرين الشائكة المستنكرة ، تلك النظرات المتطفلة المرتابة الحاقدة . فكما كانت ناستيونا نفسها عاجزة عن الاقتناع بان كل ما حدث لها هو حقيقة لا مراء فيها ، كذلك كان الآخرون عاجزين عن التصديق بان هذه المرأة هي نفس ناستيونا التي يعرفونها ، فصاروا يبحثون كل مرة عن تأكيدات للاشاعة : هل البطن موجود او انه انكمش واختفى ؟ وما من احد ، حتى ليزا لوكوفيين التي تشاطرها لراحها ، يشجعها ويقول لها : تمدي حيلك ، واصغي على الاقاويل ، فالطفل الذي ستلدينه طفلك انت ، ويجب عليك ان تحظيه وتصونيه ، اما الآخرون فسيعودون الى رشدهم بمرور الزمن . ولو كانت مدة الحمل تتناسب وعودة مكسيم لناصيتها ليزا ايضا العداء ، في اغلب الظن ، متوهمة بان زوجها ضللها في الخفية . من يدري ؟ ربما هي الآن ايضا تفكر بهذا الموضوع وتحسب الايام . فان كاترينا ، زوجة نيكولاي ، مثلا ، تحمل لحيثا جديا عليها وتنظر اليها شزرا . فهل يوسع ناستيونا ان تأتي اليها وتوضح الامر وتهدئها قائلة بان زوجك نيكولاي لا علاقة له بالامر .

لم تنطل حكاية ناستيونا بخصوص الغوص على البطن من اهالى القرية . ولعل ذلك شىء طبيعى . بيد ان حال ناستيونا لم تتحسن بسبب تلك القرية . انها لا تعبأ برأى النساء ، فهى تعلم بانها غير مذنبة بحقهن ، وهى على الاقل ، لم تقترف ذلك الذنب الذى ينسبنه اليها . ولذا تنظر اليهن بدون خجل . الا ان الطامة الكبرى هى عندما يلمحون الى شىء ما اقرب الى الحقيقة . ففى اول لقاء لها مع اينوكينتى ايفانوفيتش بعد افتضاح خطيئتها تطلع اليها بنظرته الثاقبة الذكية وهز راسه متفهما وقال :

– يجب علينا ، يا امراة ، ان نتحقق : من الذى قلدك هذا الوسام ؟

وسلط عليها عينيه الحادتين مستنطقا متفحصا وهو يتوقع ان يرتجف عرق ما فى وقبتها او ترتسم على محياها نامة تكشف عن سرها بغير قصد .

– تحقق ، يا اينوكينتى ايفانوفيتش ، تحقق – قالت بنفس اللهجة الصفيقة التى اعتادت على مخاطبته بها فى الاونة الاخيرة دون ان تجعله يتمادى فى كلامه . – اما انا فساعدك فى الاذان بان الطفل سيكون شبيها بك .

– تلو ! ما افقر لسانك ! – همس وابتعد مهددا : – لا بأس ، سنرى من الذى سيضحك .

بدا لها هذا القول الفظ . ولم تكن تتصور ما ينبغى فعله بهذا الخصوص . انها على الدوام لا تمتلك ادنى تصور عما ينبغى فعله ، وهى عاجزة عن التفكير والتصميم على شىء . فقد ظلت على حالها سادرة شاردة اللحن منذ ان صرخت بها سيميونوفنا فى اليوم الاول . اظلمت الدنيا فى عينيها ، وخيل اليها ان كل ما حواليها غريب عليها وعاد لها ، يتعقب كل خطوة من خطواتها ويسترق السمع الى كل فكرة من افكارها . كانت تتحرك كيلا تتجمد وتتخشب نهائيا ، وكانت تنصت الى العمل وتجيب بكلمات ما عندما يسالونها ، ولكنها تنسى فى الحال ما قالته وما فعلته والمكان الذى تواجدت فيه . لم تكن تنام الليل تقريبا ، لان الالم المرهق العزيز يقض مضجعها فلا تجد وسيلة للخلاص ، وفى ضوء النهار لا تفرق بين الصباح والعصر . فقد تاهت وضاعت واختلطت عليها الامور . صارت

نادكا تناديها وتنبهها وتدلها دلما الى المائدة او السرير او الظل – وتتحرك ناستيونا طائعة وتمسل المطلوب ثم تتحير من جديد وتتطلع الى نقطة واحدة امامها بارهاق دون ان تبصر شيئا . وهي تنتظر طوال الوقت موسم حتى الاعتاب الذى يوشك ان يحل من يوم لآخر ، معتقدة لسبب ما بان هذا الموسم الفرح الحبب اليها فيما السابق لا بد وان يشهد انطلاقا ولا بد من ان تصل دوامتها المكرة السعيدة الى نهاية مبينة . فالى متى تستمر الحال على هذا المنوال ؟ !

لم تكن تنوى الذهاب الى اندرى اليوم . الا ان نادكا عادت في المساء من زيارة احد المنازل وافادت :

– اسمعى ، يا ناستيونا ، ما يقولونه عنك . . . يقولون بانك حملت من زوجك الشرعى وليس من شخص غريب .

احست ناستيونا بموجة حارقة اجتاحتها من الرأس ، فارغمت نفسها على الضحك بسخرية :

– اين هو زوجى الآن ؟ ثم اليست الاربع سنين مدة طويلة للحمل منه ؟

– اينوكينتى ايفانوفيتش يؤلف الرضيات . واعتقد ان هذه الاشاعة بدأت منه – قالت نادكا موضحة – هذا الجلف العجوز لا يعرف الاستقرار والهدوء . فهو شخص لا نفع منه للمرأة ، ولذا يستثير الناس ويبتدع ما يثير انتباههم .

– من زوجى الشرعى ، فليكن – قالت ناستيونا موافقة لكى تبين بانها لا تهتم لاقوال الآخرين .

اجتاحها الخوف بعد هذا الحديث راسا : فهذا المحتال سيتلقى اثره وسيصل اليه . في العالم كله لا يوجد شخص آخر مثل اينوكينتى ايفانوفيتش . سوف يظل يبحث وينقب الى ان يصل الى درب مستقيم . وما دام قد استقر على راى فلن يتراجع . سيذهب الى مركز الناحية ويجد المفوض ويفصح له بان اتامانوفكا تنتظر في القريب العاجل وريثا له . وسيرفض ذلك بالطبع ويحتج وتصبح القضية اكثر خطورة . كلا ، ينبغى لاندرى ان ينسحب ، الى اية جهة مهما كانت ، ولكن يجب ان ينسحب من كل يد . او ان يخرج ويسلم نفسه . فالامل في الرحمة اكبر اذا سلم المرء نفسه طوعا . مهما طال حبل السر فالنهاية محتومة . يا الهى ! ما الفظ فعلته . . .

ما الظلما . . . ولماذا اركبها ؟ ولماذا انسحب ، واختفى الى ابد الآبدين ، وكانه لم يكن موجودا على الاطلاق – انها لم تعد تعرف ماذا تريد – فان الطفل سيتحمل بعد ذلك من كل بد تلك السمة التى حرص هو ، اكثر ما حرص ، على حمايته منهـا : فقد تنتشر فى وقت ما اشاعة بان اباه هو احد الهاربين من الحرب . ولن تمحى هذه السمة باية وسيلة . فالانسان . اذا قلت له ان طفلا ولد من الشيطان نفسه ، ربما لا يصدق ، ولكنه لن ينسى الشيطان ، بل وسيجد مائة دليل على ان ذلك الطفل منه بالملات ، من الشيطان الرجيم . وبالتالى فالطفل سيولد بلطخة عار لن يتخلص منها مدى الحياة . ولن تكون النتيجة كما ارادا . لن تكون . ستقع عليه خطيئة الوالدين ، تلك الخطيئة الفاسية الفظيعة ، فما الذى سيفعل بها ؟ ! انه لن يسامحها ، سيلعنهما ، وسيكون على حق .

الظلام الحالك يكتنف كل الارجاء . والسماء تنهال بكل ثقلها . والشواطىء بعيدة لا ترى . لا شىء غير الماء الذى يمكن ، فى اية لحظة ، ان يظفر فاه ثم يبتلعه . وليس واضحا ما اذا كان بصيص العولمة الخجول لا يزال طيبا ام لا ، فهو تارة يلمع وتارة يضيع . فى الليل تخيم على الماء رائحة موات ، رائحة المقبرة القديمة المهجورة الاطراف ، ويتقلب الحنجرة على حافتى منبوش ، وتتلبع الروح منكمشة خائفة فى ركن من الصدر لتختبىء وتتخلص من النفايات الغامضة ، ويخيل اليها ان صوتا سينبعث من الاعماق فى هذه اللحظة او بعد لحظة وسينبئها بشىء صالب الى حد الفظاعة فلن ترغب فى مواصلة الجلوس .

لمرزت ناستيونا الجفافين فى الماء برفق وبدون طبطبة وسحبتهما بحذر دائمة القارب الى الامام . سار القارب ، كما خيل اليها ، بدون حفيف ، فراحت تتسمع باذن مرهفة الى كل صوت ينبعث من النهر او اية جهة اخرى ، وهى متحوطة لكل شىء ومستعدة لكل طارىء . عندما طرق صوت قصير جاف على الشاطىء ، وكانما ارتطمت شجرة بشجرة ، تململت ناستيونا هذا الصوت فى الحال ولجمدت جوارحها ، وسمعت بوضوح على الفور ذلك الصريف المتقطع المنبعث من سحب القارب على الحصى . بلبق الماء الذى

تشكر صفوه ، ثم خيم السكون . ولكن ناستيونا سرعان ما سمعت مجدافا يشق الماء بصوت رتيب يشبه التمطق .

لم تشك ناستيونا بان شخصا يتعقبها . يبدو ان احدهم راقبها وانتظر حتى تبتعد قليلا ثم تحرك في اثرها . ولكن من هو ؟ هل هو ميخيتش ام شخص غريب ؟ هل ظهرت من قاربهم كان هناك ، في نفس البقعة من الشاطئ ، قاربان آخران ، قارب اينوكينتي ايفانوفيتش وقارب الخالية سوموفا ، ويمكن لاي شخص ان يستخدم ايا منهما ، فكلاهما غير مقيدين . ظلت ناستيونا بلا حراك فاستدار قاربها بفعل التيار وانساب معه ، وراح المجدافان المنشوران يشقان الماء كسكينين معرات . لم يكن هناك مجال للتفكير في مواصلة الجدف ، فما دامت هي تسمعه سيسمعها هو ايضا . ها هي تخلق في مهمتها ولن تتمكن من تحذير اندرى . لا بد من العودة . حبذا لو كان هذا الشخص ميخيتش ، فليس فيه ما يخيف ، ولكن ماذا لو كان غيره ؟ وعلى اية حال فقد هيات له امكانية التاكد من صحة شكوكه .

عندما فقد ذلك القارب اثر ناستيونا لاذ بالصمت ايضا ، لم تحرك مجدافي المؤخرة بهدوء من جديد ، وادركت ناستيونا ان عليها ان تجعل صوت مجدافيها يطابق صوت مجدافه ، وتوجهت نحو الشاطئ . لم يكن الشاطئ قريبا ، الا ان راسا صخريا قد انحدر منه الى مسافة بعيدة في اسفل النهر ، والماء يلطم صخوره . اذا بلغت الراس يوسعها ان تجدف دون خوف بشرط ان لا تغير ضجيجا . بلغت طبقة الجدافين المتناسقة التي لا تكاد تسمعها الاذن مستوى موازيا لمرفع ناستيونا ومرت امامها ، ثم ساد السكون ذلك القارب الذي كان ينتظر من ناستيونا ان تفضح نفسها ، ولكنه واصل سيره من جديد دون ان يحقق مبتغاه .

خيل لناستيونا ان الخيط الابيض سينفصل عن الخيط الاسود . فقد ظهرت في الهواء بقع صدئة كالحة ، واشتد البرد قبيل البلاج الفجر وتلاحق النسيم لكي يتحول الى ريح جنوبية وبدات دوامات الماء تتموج . واخيرا بلغت ناستيونا الراس الصخري خلسة ودفعت قاربها بالرمح نحو الشاطئ . ولعل من اللازم الآن ان تترك الطير وتعمل على العكس فتثير ضجيجا وصخبا كي يتصور ذلك الذي

يطاردها بانها لم تكن تنوى هجر النهر ، وكل ما فعلته هو القيام بجولة نهرية على شاطئها لتتخلص من الارق ولتبدد احزانها . لقد تعبت ، تعبت من كل شيء . انهكت قواها حتى رغبت في النهاية العاجلة ، اية نهاية . فهي افضل من حلم الحياة . كانت تريد ان تنام ، ولكنها تعرف انها لن تنفر بسبب اخفاقها في الوصول الى اندريبلسكويه . فهي لم تحقق الا الضرر ، حيث افشت سر انثارا .

ارست قاربها عند القبلة ونزلت منه وتسللت الشاطئ دون سبب واضح . وانفصل الخيط الابيض عن الخيط الاسود بالفعل . فقد لاحت وهشات في السماء السحمة من جهة الجبل . انحسر الليل . ويبدو ان الطقس تحرك هو الآخر . فقد يزاح هذا الستار الحديدي المتجهم عن صفحة السماء في وضح النهار . انها ليلة قليلة شريرة يصعب تحملها حتى على الفنانين النفية فكيف بغير ناستيونا الفنان المبرز ؟ لقد ارهقت روحها المتحرقة الما وعذابا ، وهي تتشكى وتبكي دون ذرة من امل .

كبت ناستيونا لجاة فنفت عنها صرخة وتشبثت يدها بصليب خشبي مائل . يا الهي ! اين انا ؟ ! اين انا ؟ ! في مدفن الغرقى . الشعر بدنها من الرعب وتراخت ساقاها فلم تعودا تطاوعانها ، زحفت زحفا لكي تخرج من قبر مخسوف ، وتدحرجت الى اسفل ، نحو القارب . يا الهي ، ارحمني واعطف علي ! ما هذا ؟ ! يا الهي ، ولماذا ؟ الا يكفيني ما انا فيه من رعب ؟ انتشلت الريح وراحت تدفع القارب الى اعلى النهر بكل قواها مبتعدة عن هذا المكان الكريه القبيح دون ان تعبا بما اذا كان احد سيسمعها . هذا المدفن انشاه اثناء الصيف الماضي مينشكا الاجير الذي جاء الى الاماتورفكا في بداية الحرب من دار الايتام وهو صبي ، وكبر منذ ذلك الحين حتى صار شابا راشدا فارع القامة .

في الآونة الاخيرة حملت المياه عددا من القرفى اكثر بكثير مما في السابق . فلماذا ؟ الحرب وضعت اوزارها ، وانتعشت الآمال . فلماذا اذن ؟ ربما لان الحياة مالت باستدارة شديدة جدا فلم يتحمل الضعفاء عند المنعطف وقعوا في النهر . من يدري ؟ . . اطلقت على مينشكا كنية الاجير لانه اكتفى في البداية بممارسة اعمال بسيطة بالاجرة . وهو لا يستنكف من انتشال القرفى ودفنهم لقاء عشرة

روبلات يستلمها من المجلس الادارى الريفى عن كل قبر . اصبحت هذه الوسيلة لكسب الرزق فراح يقضى النهار كله على النهر يبحث عن الفريسة بعينين حادتين كعينى باشق . ودفن عند البرج السفلى اربع جثث . دفنها كيفما اتفق دون ان يبذل جهدا يذكر . وكل ما كان يريده ان تصادق التعاونية الزراعية على شهادة الدفن التى يتسلم النقود بموجبها من المجلس الادارى .

ظلت ناستيونا ترتعش طوال الطريق . فهى فى النهار تتذكر جيدا هذا المكان وتتحاشاه عن بعد وتخشى حتى التطلع صوبه . فكيف دخلته فى الليل ؟ وكيف سقطت فى القبر مباشرة ؟ ! صارت تخاف على نفسها متأوهة مرتجفة من الرعب والاشمئزاز : فقد تلوثت . وراحت فيما بعد تغسل يديها اللتين امسكت بهما تراب القبر الطينى اللزج . وخيل اليها طوال الوقت ان رائحة تشبه الخميرة تفوح منهما .

ولكنها لم تنس التحقق من ذلك القارب . فالشخص الذى تعقبها استخدم قارب العمة الغائبة سوموفا .

٢٢

فى الصباح لم تذهب ناستيونا الى العمل . كما لم تذهب اليه نادكا . ولا غير فى ذلك . فقد يتوجهون الى حش الاعشاب . وقد جرت العادة على ان يخصص مثل هذا اليوم لجمع المتاع لمن هو بحاجة الى ذلك . اخيرا حل موسم الحش الذى انتظرته ناستيونا وعلقت عليه هذه المرة آمالا عريضة فى الخلاص . مع انها لا تعرف بالضبط باية وسيلة سيساعدها . ولكنه موسم الحش . . . وهى دوما تشعر فيه بالاشراق والفرحة والرغبة فى اداء اى عمل يخص حش الاعشاب . كانت تخرج قبل شروق الشمس وقبل تبخر الندى وتقف عند طرف القطاع المحشوش وتتفقد الحش حتى يلامس الارض وتمرره عبر الاعشاب فى تقلة تجريبية اولى . ثم تحركه كالمكوك وتتحسس بكل جوارحها هسيس الاعشاب النضرة المحشوشة . كانت تهوى الخريف الذى يخيم على البرج بانين اثناء الحش بعد الظهر حيث لم يخف الحر وحيث تتراخى الايدى بعد

فرصة الفناء بتكاسل في البداية ثم تستجمع قواها وتنهمك في العمل ناسية بانها تعمل ولا تتسلى . وتلتهب الروح بحماسة مرحة لا يقر لها قرار . فيسير المرء ناسيا نفسه وهو ينثر العشب الحشوش باندفاع لعوب ، فيخيل اليه انه ينغرز ويتغلغل بعد كل حشة في شيء منسي خلي عزيز عليه . كانت تحب حتى جمع الاعشاب في الليلة الموات حيث ينبعث همس متكسر جاف من العشب الحشوش ويفوح عطر مخدر شديد من الاعشاب المختلفة المكدسة . وتحب التكويم الاولى السريع للعشب قبل ان يتنفس وهي تتطلع بخشية الى السماء والسماء . وتحب الازدحام والهرج والمرج لرب مجسات الحشيش . — تحب كل شيء من البداية حتى النهاية ومن اول يوم للموسم حتى آخر يوم فيه .

ولكن تلك كانت ناستيرنا اخرى ، تختلف عن هذه . الا ان هذه ، اكثر من تلك تنتظر موسم الحش بفارغ الصبر وبامنية متحمسة مبهمة وايمان اعمى وكان مصيرها كله متوقف عليه . وبالفعل فقد خيل اليها ان كل شيء سيخضع في ايام الحش : اين ينبغي لها ان تكون ، ومع من تعيش ، وهل من تسلط جام غضبها ولاجل من لبتهل ؟ ! واجتاحتها من جديد الرغبة في الخروج وحيدة قبل شروق الشمس والوقوف بين البروج وسط الاعشاب الطفيلية الكثيفة الطويلة الى حد الخصر وتشطيل محشها . وتحريكه بعناد وانفة دون تلكؤ حتى تعهد دوبا الى الطرف الآخر من المرج . وعند ذاك تلتفت وتتنفس الصعداء . فليس من قبيل الصدفة ان يقال ان العمل يودي بالانسان الى القبر . ولكن هذا العمل نفسه يطعم الانسان ويحفظه حتى القبر . والاهم انه يحفظه .

كانت تلك الرغبة قد راودت ناستيرنا بالامس . واليوم ، بعد تلك الليلة التي حالوا فيها دونها ودون الوصول الى انغرى ، فقدت هي سواء السبيل . وتحول الارهاق الى فرط انتظامي لذيذ . لم تعد راغبة في شيء ، ولم تعد تأمل بشيء ، امتلأ الفؤاد بفراغ بغيض . فما كان يلوح لها بالامس ممكنا وضاحا انتصب اليوم امامها كجدار اصم . لم يغمض لها جفن خلال الليل . وانتابها صداع شديد تحول الى الم متواصل يعصرها عصرا . وكان شيء ما يضغط عليها ويزلمها من الداخل ، هناك حيث يستقر الجنين . لم تكن تعرف

هل ان ذلك من طبيعة الاشياء ام انها الحقت ضررا بالطفل . فاختلطت عليها الافكار وراحت تلعن نفسها : «هذا ما تستحقينه على ما فعلته» .

لم تفعل شيئا ، ولم تشرع باى عمل . كانت اليوم بيديـــن متدليتين من ركن لركن . وتخرج من المنزل الى الشارع ثم تعود وكانما تبحث عن شيء لا تجده او تنتظر شيئا لا تستطيـــع ان تنتظره . وراحت تتصيد ليدكا وتعانقها وتداعبها حتى ملت تلـــك منها . واخذت الطفلة تختبئ عنها .

وهتفت بها نادكا قائلة :

— ماذا ؟ هل جننت ؟ اين كنت تهيمين البارحة ؟

لم تخش لاستيونا ولم ترتعب . كانت عاقلة حقا . فلماذا لا تسألها نادكا ؟ واجابت :

— اردت ان اذهب الى رجل ثم غيرت رايي .

عندما يقول المرء الحقيقة ربما لا يصدقونه . اما هي فعليها ان تقول الحقيقة . لقد ملت من الخداع . ملت من كل شيء .

فقالت نادكا واثقة :

— جننت ولا بد . اذهبي الى الشيطان اذا كنت لا تفهمين كلام البشر . الافضل لك ان تلعبي بسرعة ولا تعذبي نفسك . فستلدين طفلا وليس جروا .

شكرا لنادكا . فهي على الاقل لا تطردها . وليس لناستيونا احد تاوى اليه . فهل يحق لها ان تتشكى من الناس ؟ لقد ابتعدت عنهم بنفسها . وحتى نادكا التي فتحت فؤادها لها تكلب عليها وكانها عدو لدود . نادكا الساذجة تصدق بكلامها . ولكنها ستعلم في وقت ما انها مخدوعة ولن تكون شاكرة على ذلك . تورطت لاستيونا وما من وجهة تتجه اليها .

لبيل الغناء حضر ميخيتش من الزقاق الخلفي واستدعى لاستيونا من جديد الى الحوش . كان مستعجلا فتكلم على الفور وهو يتطلع الى ناستيونا مباشرة بدون اثر للعطف او الحنان ، وتنائرت كلماتـــه قطعية حادة :

— اسمعي ، يا بنت ، اذا كان موجودا هنا فليذهب باسرع ما يمكن او يفعل شيئا طالما لم يقبضوا عليه بعد . فالرجال ، على

ما يبدو . يعدون العدة . ويلوذهم في ذلك اينوكينتي ايفانوفيتش . توجه نسطور الى كاردا اليوم . ليس ذلك صدفة . . .

لاذت لاستيونا بالصمت . واستدار ميخيتش لينصرف فاضاف بنفس اللهجة الصارمة الجافة :

— كنت اريد ان اعفيك ، يا بنت ، لانك لم تسعي لي بمطاوعتك ولكن لسنات كثيرة اخرى ستسلط عليك . لهذه الخطيئة في رقبتك ، ولن تتخلصي منها . — لم لاحت السرارة الخارقة في صوت ميخيتش وقال معترفا : — هو ايفا جيان : خاف من مصارحة ابيه . فهل يجدي الكلام معكما ؟ . .

لوح بيده يائسا واجتاز السياج الواطيء عائدا من حيث جاء ، فرفع رجله العرجاء بشكل معوج يكاد يثير الضحك .

اما لاستيونا فقد ظلت امدا طويلا واقفة وسط العرش بلا حراك ، وهي تحاول ان تتخذ القرار الهام اللازم ، ولكنها لا تعثر عليه ولا تقوى على صياغته . عبثا تحصر فكرها المشوش المرة تلو المرة . احترق كل شيء ، ولا جدوى من طحن الرماد . وهل يمكن التفكير بوسيلة الآن ؟ فات الاوان .

لم تعد تصدق بشيء ، لا بان ميخيتش كان هنا الآن ، ولا بان شخصا تعقبها على النهر في الليل . خيل اليها انها ابتدعت ذلك كله برأسها المريض ثم نسيت انها ابتدعته . كانت في السابق تحب ان تتصور نفسها ، تخلصا من الملل ، وكان لخيالها طريقة تجري لها ، وتنساق وراء تصوراتها تلك حتى يصعب عليها التفريق بين الحقيقة والخيال . وربما حدث لها ذلك الآن ايضا . راسها يكاد يتطاير من اثر الصداع . وتكاد هي تنتزع جلدها من شدة الالم . حاولت ان تقلل من التفكير ومن الحركة . فليس هناك ما تفكر فيه ، وليس هناك ما يدعوها الى الحركة . كفاية .

في المساء جاءت نادكا بنبأ جديد : وصل رجل السيليسيا يوردلك . حاولت لاستيونا التشكيك في النبأ صامتة : فربما وصل وربما لم يصل . لا احد يعرف بالتحديد . ولا داعي لتصديقهم ، فهم يمكن ان يقولوا كل ما يريدون . واذا وصل ، فما قيمة ذلك ؟ الا يجوز ان لديه اشغالا ما في اناماتوفكا ؟ كان يصطاد السمك ، مثلا ، او يستخدم سلطته ضد الذين لا يدفعون الضرائب المستحقة .

اتاماتوفكا منطقته ، وله الحق في ان يعرج عليها يوميا . وصل ، فليصل ، ثم ماذا ؟

اوت الى الفراش مبكرا وغطت حالا في نوم خفيف كئيب رغم جلبة اطفال نادكا . ولكنها استيقظت في اللحظة التي لوادتها وكان احدا ايقظها خصيصا . شعرت بالنشاط بعد ان اخذت قسطا من الراحة ، وخف الصداع عليها . انها لا تعرف كم مضى من الليل . فالساعة المعلقة على الجدار صامتة وتكل زنبركها يتدلى . ولكنها واثقة من انها لم تتأخر ، وان احدا لم يسبقها بعد . ارتدت ملابسها علنا وخرجت علنا ايضا واغلقت الباب كما ينبغي . فلماذا لم تحترس ولم تتخف يمكن ان تواقب ، وهي هذه المسرة باسس الحاجة الى التوفيق .

لاحظت ناستيونا الآن ان الجو صحا بعض الشيء خلال النهار المنصرم فراحت النجوم توحي وهي تشق طريقها في السماء . الليل هادئ مظلم ، غير ان الرؤية كافية في الضوء الشاحب المنبعث . والرؤية اوضح في رواق عريض طويل على النهر . وقفت ناستيونا ملتصقة الكاربه عن ارض الشاطئ ودفعته وشرعت تجلف في الحال . فيجب ان تسرع ، ويجب ان تحذر الرجل ، ويجب ان تودعه . الى الابد ام الى حين ؟ الله اعلم .

عيب . . . لماذا تشعر بخجل فظيع من اندرى ومن الناس ومن نفسها ؟ من اين لها الذنب الكافي للشعور بمثل هذا الخجل ؟

ما لصوف الحلاق في زمن السعادة وما امرها والمنها في زمن التعاسة ! لماذا يعجز الانسان عن ادخار بعض من احداها ليتقلل به فيما بعد من عبء الاخرى ؟ لماذا تقف هوة سحيقة دوما بين هذه وتلك ؟ اين كنت يا انسان ، وباية دعى كنت تلعب عندما تقرر مصيرك ؟ لماذا وافقت عليه ؟ لماذا سمحت ، دون تفكير ، بان يقطعوا جناحيك في اللحظة التي انت احوج ما تكون اليهما فيها ، حيث يتطلب الفرار من المصيبة طيرانا سريعا وليس زحفا بطيئا ؟

جلدت ناستيونا ورضخت لما يجري بشعور من الطاعة والاذعان : فلا بد مما ليس منه بد ، وهي تستحق ذلك على ما يبدو . . . لن يتعلم الذليل العيش كما ينبغي حتى وان منح حياة

ثانية بعد حياته الاول . ما اشد صفوه السماء وسكونها ! اما ليلة البارحة فلا اقطع منها . الخوف يشتد عندما لا ترى العين شيئا في الظلام . ويخيل للمرء ان حادثا ما سيقع في اية لحظة . هل صحيح ما يقال من ان النجوم في اجواز السماء ترى ما في الارض قبل ان يحدث بامد طويل ؟ فاين تراها النجوم ، هي ناستيونا ، هذه الليلة ؟ النجوم الآن ضعيفة فهل تتمكن من الرؤية السابقة يا ترى؟

جفلت مرتبكة لافكارها المتطرفة الغير المعتادة . ودهشت لان فؤادها يحاول عبثا الاستجابة اليها .

كان فؤادها منتشيا حزينا وكانه ينصت الى اغنية حادثة قديمة ويتحير في معرفة اصواتها — هل هي اصوات الذين يعيشون الآن ام هي اصوات الذين عاشوا قبل مائة او مائتي عام ؟ تصمت جوقة ، وتحل محلها جوقة اخرى . . . وتاتي من بعدها جوقة ثالثة . . .

كلا ، الحياة لذيذة ، الحياة عظيمة ، الحياة مخجلة .

وعلى حين غرة داهمتها ، وهي في خضم هذه الافكار ، اصوات اخرى ، ليست هي اصوات الاغنية القديمة باي حال . التفتت منصغية فرات اشباح اناس على الشاطئ .

— تلك هي ! — صاح نسطور . الاصوات مسموعة جيدا على النهر ، وتسهل صرفة القول والقائل . واضاف نسطور الى تينك الكلمتين شتيمة لاذعة مخجلة . فادركت ناستيونا ان الشتيمة موجهة اليها — اسرعت تريدين ان تسبقينا . كلا ، يا عزيزتي ، لن تتمكني . سنلحق بك .

— ادلع اللقلق الغالي — دوى صوت اينوكينتي ايفانوفيتش — اسرع ، اسرع ، ما ابطاك !

— سنلحق بها حتما !

فرادت ناستيونا ان تجفل بكل فؤادها بسبب الرعب ، ولكنها اطلقت الجفالين في الحال . قالي اين ؟ ولماذا ؟ لقد سارت ، اصلا ، بما فيه الكفاية ، ولا داعي للمزيد .

انها متعبة . ما اقطع تعبها ، وما اشد رغبتها في الراحة بدون خوف ولا خجل ولا انتظار مرعب لما يخبئه الغد . ما اشد رغبتها في الانعتاق الابدي دون ان تتذكر نفسها ولا الآخرين ، ودون ان

تتذكر ذرة مما عانته . ها هي ، اخيرا ، السعادة المنشودة المحمدة بالآلام . فلماذا لم تصدق بها سابقا ؟ وعم كانت تبحث ؟ وماذا كانت تريد ؟ عبثا . كل ذلك عبث في عبث .

عبب . . . هل يدرك الانسان ان من العبب ان يعيش بهذه الصورة اذا كان شخص آخر يتمكن من العيش ، بدلا عنه ، بصورة افضل ؟ كيف يستطيع ، بعد ذلك ، ان يواجه نظرات الآخرين ؟ . . الا ان الخجل ايضا سيتلاشى وسينسى وسيتركها وشانها . . .

وقفت منتصبة بكامل قامتها وتطلعت صوب اندريبلسكويه . بيد ان اندريبلسكويه كانت ملفعة بالظلام . . .

القاربان يقتربان . هيا . الآن . والا سيفوت الاوان .

خطت الى مؤخرة قاربها وتطلعت الى الماء . كان بريق لماع ينبعث من الاعماق ، كما من حكاية جميلة مثيرة ، ويحوم فيه ظل السماء ويختلج . فكم عدد الذين التقوا به وكم عدد الذين سيلتقون ؟ !

سبح وسط النهر ظل عريض : فالليل يتحرك . لامست اذنيها رشات الماء الرقيق الصافي الجذاب . ورنت فيها عشرات ومئات وآلاف النواقيس الصغيرة . . . وهي تنادي وتدعو الى العيد . وخيل لناستيونا ان الناس استولى عليها . فشبت ركبتيها عن متن القارب ومالت به اوطا فاوطا . وهي تحدق في الاعماق بمنتهى الانتباه وبكل ما اوتيت من بصر لسنين طويلة في عمر مديد . فرات في القاع عود تلاب يشتعل .

وسمعت صرخة يائسة من مكسيم لولوخجين :

— ناستيونا ، لا تفعلي ، يا نا . . ستيو . . لا !

وكانت تلك الصرخة هي آخر ما سمعته . وهوت الى الماء ببطء .

فجذب النهر وامتز القارب وتمايل ، وانداحت دوائر متموجة في ضوء الليل الكابي ، ولكن التيار اسرع فاكتسحها ، ولم يبق في ذلك المكان ولا ذرة يمكن ان يتعثر فيها التيار .

سمع فوسكوف جلبة وضوضاء على النهر فتصور بان ذلك يمكن ان يمت بصلة لسه . فقفز وجمع متاعه بلمح البصر ورتب الكوخ ، كالعادة ، بحيث يبدو مهجورا لا اثر للحياة فيه واسرع

نحو غابات التايغا . كان قد اعد خط رجعة لمثل هذه الحالات غير المتوقعة . وهو الجزيرة الصخرية . فهناك ، في المغارة ، لن يعثر عليه احد . وكفى وهو يفكر فيما هو الافضل : هل يصنع كلكا من جذوع الاشجار ام يسرق قاربا للعبور الى الجزيرة ؟

في اليوم الرابع طلعت ناستيونا عند الشاطئ على مقربة من كاردا . وصل اشعار بالنبأ الى اكاماتوفكا ، وكان ميخيتش طريح الفراش ، فبعثوا ميتسكا الاجير الى كاردا . عاد بناستيونا في القارب واستعد ، كعادته ، لدفنهـــا في مدفن الغرقى . الا ان النســوة اعترضن على ذلك . فواروا لناستيونا التراب بين اهليهم ، ولكن في طرف المقبرة ، قرب السياج العائل .

بعد الدفن اجتمعت النسوة في عالم بسيط بمنزل نادكا . وذرفن الدموع اسفا على ناستيونا .

الى القارىء

ان دار التقدم تكسون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، وامرتم لها من رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧

موسكو ، ـ الاتحاد السوفييتي

تصدر دار التقدم
قسطنطين سيمونوف . الاحياء والاموات .

قسطنطين سيمونوف (١٩١٥-١٩٧٩) - شاعر ، وكاتب مسرحي ، وكاتب اجتماعي وسياسي . في السنوات الاخيرة من حياته ، اشتهر على الاخص كروائي . نالت مؤلفاته جائزة الدولة سبع مرات . كوفئ على روايته الثلاثية «الاحياء والاموات» باسمى الجوائز في الاتحاد السوفييتي ، جائزة لينين . اعطى سيمونوف ١٥ سنة في كتابة هذه الثلاثية عن ملحمة الشعب السوفييتي ابان الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥) . وقد قال : «اردت ان ابيّن في كتابي بدون زخرفة من اي جحيم خرجنا ، وكيف ، وفي اي سبل ، وبفضل اية تضحيات استطعنا ان ندحر الغازي عن ابواب موسكو ونطرده حتى برلين . روايتي عبارة عن نشيد عن ارادة المواطنين السوفييتيين وقوتهم الروحية» .